روبنسون كروسو

دراسة فى الأدب المقارن

روبنسون كروسو

دراسة فى الأدب المقارن

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر - القاهرة
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

كلمة توضيحية

فى الفصول التالية دراسة مقارنة لرواية "روبنسون كروسو" للكاتب البريطانى دانييل ديفو: فالفصل الأول يوضح تاريخ الصراع البحرى بين الأوربيين والمسلمين فى القرون الأخيرة غداة القضاء على المسلمين فى الأندلس وعشية الهجمة الاستعمارية على بلاد الإسلام، بغية إلقاء الضوء على ما ورد بالرواية من هجوم بعض السفن الإسلامية على السفينة التى كان بطل الرواية يعمل بها ووقوعه أسيرا فى يد أحد المغاربة إلى أن استطاع الهرب من سيده والعمل بعد ذلك بحارا على أحد المراكب الإنجليزية. والفصل الثانى يعالج موضوعا خطيرا هو أكل لحوم البشر، ذلك التصرف الذى شنع به الغربيون على الشعوب الزنجية فى أفريقيا وجزر المحيط الأطلسى الجنوبية، والذى ثبت أنه ضارب فى أعماق الزمن وأن كثيرا من الشعوب قد مارسته فى ظل ظروف معينة، وأن من الغربيين واليابانيين من يمارسه حتى الآن. أما الفصل الثالث فيتناول بعض القضايا الهامة التى لم تصل رغم ذلك فى أهميتها إلى القضيتين السابقتين، كقضية العُرْى مثلا وقضية اللحوم التى تؤكل أو لا تؤكل واختلافها من أمة إلى أمة.

هذا من حيث مضمون الرواية والمقارنة بينه وبين الأوضاع التاريخية والسياسية خارجها، أما من ناحية المقارنة الفنية فقد وقفتُ فى الفصول

الثلاثـة الباقيـة إزاء المقارنـة بـين روايتنـا والأحـداث التـى وقعـت للبحـار الأسكتلندى قبل تأليف "روبنسون كروسو" بقليل من جهة، وبين الرواية أيضا ورسالة "حى بن يقظان" من جهة أخرى. ثم خصصت الفصل الأخير لفحص ترجمة بطرس البستانى فى القرن التاسع عشر للرواية التى بين أيدينا ومدى توفيقه فى تلك الترجمة والعوامل التى أثرت على عمله من دينية وسياسية واجتماعية وما إلى ذلك. وقد طبعت ترجمته فى بيروت بعنوان "التحفة البستانية فى الأسفار الكروزية أو رحلة روبنصون كروزى". والمرجو أن يكون لتلك الفصول بعض الفائدة، وألا تكون عيوبها من الفداحة بمكان.

وقبل الدخول فى الدراسة المزمعة حول رواية "روبنسون كروسو" للكاتب البريطانى دانييل ديفو ينبغى أولا أن نأخذ فكرة سريعة عن الرواية المذكورة حتى نعرف ما نحن مقبلون عليه. تقول موسوعة "الويكيبيديا" إن "روبنسون كروسو" قصة كتبها دانيال ديفو، ونشرها لأول مرة عام ١٧١٩م. وهى تحكى قصة شاب عاش فى جزيرة من الجزر وحيدا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدا من البشر، ثم بعد عدة سنوات التقى بأحد المتوحشين فعلّمه بعض ما وصل اليه الإنسان المتحضر من تقدم فكرى واتخذه خادما له، ليعود فى نهاية القصة مصطحبا خادمه هذا إلى أوروبا حيث العالم المتمدن.

وتبدأ القصة بمغادرة كروسو إنجلترا فى رحلة بحرية فى سبتمبر عام١٦٥١م مخالفا رغبات والديه، ويسطو القراصنة على السفينة ويصبح كروسو عبدا للمغاربة، إلا أنه يتمكن من الهرب فى زورق ويصادق قائد سفينة برتغالية قادمة من الساحل الغربى لأفريقيا فى طريقها إلى البرازيل، وهناك يصبح كروسو مالكا لإحدى المزارع وينضم إلى بعثة لجلب العبيد من أفريقيا . وتغرق السفينة التى كان فيها وقتذاك فى عاصفة تبعد أربعين ميلا فى البحر فى مدخل نهر أورينوكو فى ٣٠ سبتمبر عام ١٦٥٩م، فيموت جميع الركاب ما عداه. ويتمكن من استخلاص الأسلحة والأدوات والتجهيزات التى كانت فى السفينة قبل أن تتحطم تماما وتغوص فى الماء . ثم يبنى سورا لمسكنه، ويصنع تقويما يتعرف به على مرور الزمن من خلال علامات يرسمها على قطعة خشب. كما يقوم بالصيد وزراعة الذرة ويتعلم صناعة الفخار وتربية المعز، ويقرأ الإنجيل ويصبح متدينا فجأة ويشكر الله على هذا المصير الذى انتهى إليه، إذ لم يكد يفقد شيئًا سوى رفقة البشر .

وفى يوم من الأيام يكتشف كروسو جماعة من آكلى لحوم البشر يقومون بزيارة الجزيرة ليقتلوا ويأكلوا أسراهم. وعندما استطاع سجين من السجناء الهروب انضم إلى كروسو، فسماه: "فرايداى: Friday" باسم يوم الجمعة، الذى قابله فيه، وشرع يعلمه الإنجليزية حتى يستطيع التفاهم معه، كما نجح فى تحويله إلى النصرانية. ثم تصل مجموعة جديدة من السكان الأصليين لصنع وليمة أخرى من اللحوم البشرية،

ويستطيع جمعة وكروسو قتل معظمهم مع الاحتفاظ باثنين من أسراهم: أحدهما هو والد جمعة، والثانى أسبانى. ويخبر هذا الأخير كروسو بأن مجموعة من الأسبان الذين غرقوا موجودون على هذه الجزيرة. ويستطيع الثلاثة بمعاونة هؤلاء الأسبان بناء سفينة يبحرون بها إلى أسبانيا . بيد أن سفينة إنجليزية تظهر ويقع فيها تمرد يسيطر أصحابه على السفينة ويتركون قائدهم على الجزيرة، لكن القائد يستطيع، بمساعدة كروسو، استرداد السفينة. ثم يسافر كروسو بعد ذلك إلى البرتغال للبحث عن قائده القديم الذى يُخْبِرُه بأنّ مزرعتَه البرازيليةَ قد جعلته رجلا غنيا . ومن البرتغال يسافر كروسو برا إلى إنجلترا عن طريق أسبانيا وفرنسا حيث يتعرضون فى جبال البيرينيز لهجوم من الذئاب. ويُقرّر كروسو بَيْع مزرعته لأن عودته إلى البرازيل كانت تستلزم تحوله إلى الكاثوليكية، وهو ما لا يريده. ثم يتزوج ويصبح أبا لثلاثة أطفال. وعندما تموت زوجته ويصبح أرمل يعود إلى جزيرته فى نهاية المطاف.

القرصنة البحرية بعد مأساة الأندلس
فى ضوء الصراع الإسلامى الأوربى

تتضمن رواية "روبنسون كروسو"، بين ما تتضمن من أحداث، وقائع صراع بين السفن الأوربية بعضها وبعض، وكذلك بين السفن الأوربية وسفن المسلمين. وسوف أتعرض هنا بالدراسة للقرصنة الأوربية فى البحار والمحيطات آنذاك ووقوف السفن الإسلامية لتلك العربدة بالمرصاد، ملقيا الضوء على خلفية تلك الأحداث بحيث يستطيع القارئ أن يفهم دوافعها وبواعثها ويربط أجزاء الصورة بعضها ببعض فتبدو له الأحداث فى وضعها المتكامل، ومن ثم يكون فهمها أسهل وأعمق، ويكون الحكم عليها أصحّ وأدقّ. لقد ذكر كروسو، بطل الرواية وسارد أحداثها، (بدءا من ص١٥ فصاعدا) أنه قد أُسِر حين كان على متن مركب فى طريقه إلى غينيا عائدا من بريطانيا ليستأنف نشاطه التجارى هناك، إذ هجم عليهم مركب مغربى استطاع بحارته أن يستولوا على المركب الذى كان على متنه، وأخذوه هو وسائر من كانوا فيه أُسَارى إلى سلى[1] بالمغرب حيث صار روبنسون كروسو عبدا لصاحب المركب الذى هاجمهم.

---

[1] وكانت سلى إحدى نقاط الانطلاق لسفن المجاهدين المسلمين الذين كانوا يتصدَّوْن للسفن الأوربية بعد سقوط الأندلس وتعرُّض المسلمين الباقين هناك للمذابح ومحاكم التفتيش

وقد ذكر كروسو أنه لم يجد ماكان يتوقعه على يد المغاربة من معاملة سيئة. كما أنه لم يحاول تشويه صورة سيده، وإن عبر عن ضيقه رغم ذلك بحياة العبودية، وشرع بعد انصرام عامين من وقوعه فى الأسر يفكر فى الهروب والنجاة بحريته، إلى أن تيسر له ذلك، واصطحب معه غلاما آخر لسيده اسمه كسار فى الترجمة العربية، وإن كانت الرواية تطلق عليه: "Xury"، وكان مسلما. كذلك لم يحاول روبنسون كروسو وصف الحياة فى بلاد المغاربة رغم أنه قضى فيها سنتين أو أكثر كان يعيش أثناءهما مع أسرة مغربية. وقد أطلق المؤلف، من خلال كروسو، لفظ "pirate: القرصان" على قائد المركب الذى طاردهم فى البحر شرق جزر الكناري[1]، أى على بعد "فركة كعب" من

الإجرامية والتنصير والتهجير القسريين ومصادرة الأموال... إلى آخر هذه الشناعات والبشاعات إن كان لها من آخر، وهو ما انتهى سريعا إلى استئصال الإسلام من تلك البلاد بعد أن نعمت فى ظل حكم المسلمين بقرون من الحرية والانفتاح الفكرى والتعايش السلمى بين الأديان.

[1] وقد وصف دانييل ديفو المركب على لسان روبنسون كروسو بأنه "Turkish rover"، وفسر البستانى كلمة "rover" بأنه "مركب فيه قرصان، أى لصوص بحر". لكنه أهمل ترجمة كلمة "Turkish" (ص١٥). ولا ننس أن البستانى كان فى ذلك الوقت من رعايا الدولة العثمانية، فأغلب الظن أنه تحاشى تلك الإشارة المسيئة لحكام الدولة، وإن كانت الكلمة فيما أتصور تعنى هنا "المسلم" لا التركى بالذات. فهو استعمال توسعى استخدم فيه لفظ "التركى" بمعنى "المسلم" على سبيل المجاز استخداما مسيئا، باعتبار الأتراك

أقصى نقطة فى الجنوب الغربى لبلاد المغرب، إذ لا تبعد تلك الجزر نفسها عن بلاد المغاربة سوى ١٠٠ كم. و"القرصان" هو المصطلح الذى كان الأوربيون ولا يزالون يستعملونه للإشارة إلى أمثال أولئك البحارة. فهل كانوا حقا قراصنة؟ وما السبب الذى كان يدفع أمثالهم إلى تعقب المراكب الأوربية فى تلك المناطق ومهاجمتها ؟

أترك القارئ مع الفقرات التالية التى أنقلها من موقع "ستار تايمز"، وهذا رابطها لمن يريد الرجوع إليها بنفسه: http://www.startimes.com/?t=18281626 وقد اعتمد ناشرها فى الموقع المذكور على كتاب "تاريخ العرب الحديث" للدكتور رأفت الشيخ: "أطلق المؤرخون الأوربيون لفظة "قرصنة" على العمليات البحرية الحربية العربية الموجهة بالدرجة الأولى ضد سفن الدول الأوربية وغير الأوربية التى تخالف العرب فى عقيدتهم الدينية. وقد تابع بعض المؤرخين العرب زملاءهم الأوربيين

حكام معظم العالم الإسلامى، وبالذات الأجزاء الملاصقة لأوربا . ففى "معجم إنكارتا" نقرأ ضمن تعريفات كلمة "Turk" ما يلى: " offensive term: an offensive term for a Muslim (archaic)"، أى أنها كلمة مهينة تستخدم بمعنى "المسلم" . وفى "Webster's Revised Unabridged Dictionary (1913)" نقرأ: " A Mohammedan; esp. one living in Turkey" . كما تعنى هذه الكلمة أيضا "الشاخص" الذى يتعلم الإنسان ضرب الرصاص عليه.

فى هذه التسمية حتى اختلط الأمر على المواطن العربى وأخذ يتساءل: ما هى مواصفات القرصنة والجهاد البحرى؟ وما هو الفرق بين القرصنة والجهاد الإسلامى فى مجال الحروب البحرية التى شارك فيها المسلمون ضد أعداء الإسلام؟ وما هو دور الاستعمار فى تشويه صورة النشاط البحرى العربى الإسلامى ومحاربة هذا النشاط؟ وفيما يلى من أسطر سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات موضحين الفرق بين نشاط العرب المسلمين الحربى فى البحار وقرصنة الأوربيين سواء ضد بعضهم البعض أو ضد غيرهم ممن أوقعهم سوء حظهم فى طريق القراصنة الأوربيين.

معنى لفظة "القرصنة": يمكن القول إن القرصنة هى قيام سفينة مسلحة أو أكثر باعتراض سفن تابعة لدولة أخرى أو جماعة ما فى البحر وسلب ما تحمله تلك السفن بدون وجه حق، ودون أن يكون هناك فى هذا الهجوم رد لعدوان أو ثأر لعمل سابق، أى الهجوم لغرض السلب فقط دون أن تكون هناك عداوة سابقة أو حروب معلنة بين الطرفين. هذه هى القرصنة. أما الجهاد البحرى فهو كل عمل حربى تقوم به سفينة أو مجموعة سفن تابعة لدولة ما بهدف الإضرار بسفن تابعة لدولة أخرى معادية عند مرورها فى المياه الإقليمية أو الهجوم على سواحل البلد المعادى. صار هذا العمل حربا بين دولتين بحكم وجود عداء وحالة حرب قائمة، ولا يطلق أبدا بأى حال من الأحوال تعبير "قرصنة" على مثل هذا العمل.

واستنادا لهذا التوصيف العلمى يمكن القول بأن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن النصرانية كان جهادا بحريا إسلاميا بامتداد الجهاد الإسلامى من الأرض إلى البحر لأن المسلمين استندوا إلى مبدإ الجهاد الإسلامى فى محاربة أعداء الإسلام، سواء فى الأرض أو البحر . ولهذا فإننا نطلق على العمليات البحرية التى قام بها المسلمون فى مياه البحر المتوسط ضد سفن أسبانيا والبرتغال وما يسمى: "فرسان القديس يوحنا" طوال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر: "جهادا بحريا إسلاميا" جاءت بدايته ردا على اعتداءات القوى النصرانية الصليبية على المسلمين فى الأندلس (أسبانيا) وملاحقتهم فى أثناء فرارهم من الاضطهاد إلى أقطار شمال افريقيا .

من هنا نلاحظ أن تلك العمليات بين البحرية العربية الإسلامية والبحرية الأوربية إنما حدثت من منطلق دفاع العرب المسلمين ضد أطماع الأوربيين الصليبية وروحهم العدائية لكل ما هو إسلامى، تلك الأطماع التى صورها أصحابها بأنها ثأر من العرب المسلمين، الذين تجرأوا يوما ما فغَزَوُا الأرض الأوربية . لذا لا نعجب أن نسمع الملكة ايزابيلا ملكة أسبانيا تقول لشعبها أواخر القرن الخامس عشر: إن تحرير أسبانيا يعنى إخراج المسلمين منها ، وهذا

لا يتم إلا بفتح افريقيا، أى الاستيلاء على بلدان المغرب العربى وجهاد أبنائها الكافرين، أى المسلمين، فى سبيل العقيدة النصرانية.

ومن هذا المنطلق بدأ الصدام بين العرب المسلمين فى شمال أفريقيا والقوى الأوربية المعادية فى البحر المتوسط، ذلك الصدام الذى أطلق عليه المؤرخون الأجانب لفظ "القرصنة"، وأطلق عليه المسلمون المعاصرون لهذه الأحداث لفظ "جهاد ضد أعداء الإسلام من الأوربيين". وبالطبع واضح أن لفظ "قرصنة" جزء من حملة الحقد والكره التى شنها المؤرخون الأوربيون على المسلمين حتى فى كتب التاريخ. وهم يعرفون جيدا أنها دفاع شرعى عن النفس وجهاد مشروع.

بدايات الجهاد البحرى وأسبابه: كانت أقطار المغرب العربى تعيش عصر وحدة وقوة تحت قيادة دولة الموحدين حتى القرن الثالث عشر الميلادى، وانضم إليها فى تلك الفترة الأندلس. ولكن عندما انهارت دولة الموحدين ظهرت ثلاث إمارات فى أقطار الشمال الافريقى تنافست فيما بينها مما أدى الى ضعفها، وهى: "سلطنة بنى مرين" فى المغرب الأقصى. ولقد تحملت أكثر من غيرها عبء الدفاع عن العروبة والإسلام ضد هجمات أسبانيا والبرتغال. "إمارة بنى حفص" فى تونس. "إمارة بنى عبد الواد" فى الجزائر، المغرب الأوسط.

وفى الوقت الذى ضعف فيه المسلمون فى شمال افريقيا نتيجة تفكك وحدتهم توصلت أسبانيا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر إلى وحدتها الوطنية فى عهد فرديناند وإيزابيلا على أسس دينية كاثوليكية معادية للمسلمين فى الأندلس والمغرب، وحققت البرتغال وحدتها، وقامت فى لشبونة حكومة معادية هى الأخرى للمسلمين، وعملت كل من أسبانيا والبرتغال على بناء السفن والاهتمام بالملاحة، ومن ثم قيام حركة الكشوف الجغرافية التى كان من أهم دوافعها محاربة الإسلام والمسلمين فى أفريقيا والبحار الهندية. ولقد ظهر الصراع واضحا بين الأسبان والبرتغاليين من ناحية وأقطار الشمال الأفريقى من ناحية أخرى باحتلال البرتغال مدينة سبتة المغربية عام ١٤١٥م، واحتل الأسبان المرسى الكبير عام ١٥٠٥م. وفى عام ١٥٠٨ استولوا على مدن حجر باديس، وهران، بجاية. وفى عام ١٥٣٥م احتلوا طرابلس الغرب، ثم تنازلوا عنها لما يسمى: فرسان القديس يوحنا.

ولم يكن استيلاء البرتغاليين والأسبان على المدن العربية بشمال أفريقيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأمر السهل والدائم على الرغم من تفكك وحدة المسلمين فى هذه الأقطار المغربية. إلا أنهم تذرعوا بمبدإ الجهاد الإسلامى فى مقاومة القوى النصرانية الغازية، بل ومهاجمة سفن الدول الأوربية فى البحر المتوسط. واستمر الحال هكذا حتى ظهرت قوة الدولة العثمانية

بضم القسطنطينية عام ١٤٥٣م ثم ضم العراق والشام ومصر ١٥١٤، ١٥١٧، فاستعان عرب الشمال الأفريقى بالدولة العثمانية الإسلامية القوية للوقوف أمام القوى المعادية للمسلمين. وبدخول الدولة العثمانية هذا الصراع دخل الجهاد الإسلامى حلقة جديدة ضد أعداء الإسلام، وكان ميدانه الأكبر الحوض الغربى للبحر المتوسط، وكان عدته وعتاده السفن المسلحة للقوى العربية الإسلامية بأقطار شمال أفريقيا وسفن الأسطول العثمانى من جهة فى مواجهة سفن القوى الأوربية المتحالفة من جهة أخرى.

ومن الغريب أن المؤرخين الأوربيين أطلقوا على دفاع العرب المسلمين فى شمال افريقيا عن أرضهم وحياتهم ضد أعدائهم الذين أتَوْا واحتلوا أرضهم لفظ "القراصنة"، وامتلأت كتبهم بتعبيرات "هجمات القراصنة العرب المسلمين"، تماما مثلما يفعل أحفادهم اليوم، ويطلقون على عمليات المقاومة المشروعة للمحتل فى فلسطين: "إرهابا". ولكن لم العجب؟ فغالبا ما تعمد هؤلاء المؤرخون الكذب وقلب الحقائق لتناسب أغراضهم الخبيثة تجاه الإسلام والمسلمين.

وحينما تعقبت سفنُ الأسبانيين: الفارين من المسلمين الأندلسيين بدينهم من الاضطهاد ومحاكم التفتيش[1] كان من الطبيعى أن يخرج رجال البحر المغاربة

---

[1] يعطيك فكرة عن طبيعة محاكم التفتيش هذه ما قاله كروسو، حين كان يفكر فى مغادرة الجزيرة إلى مكان مأهول بالناس، من أنه يُؤْثِر أن يقع فى أيدى البرابرة أكلة اللحم البشرى

لتأمين المسلمين النازحين من الأندلس والدفاع عنهم ضد سفن المتعقبين لهم من الأسبان، الذين اتخذوا أسلوبا وحشيا فى التعامل مع المسلمين الذين كانوا يقعون تحت أيديهم مما أدى الى صدام بحرى بين سفن المغاربة المسلمين والسفن الأسبانية. وقد أدى ذلك الصدام إلى ظهور قيادات بحرية إسلامية قوية عندها القدرة على منازلة الأعداء والقيام بعمليات الجهاد الإسلامى البحري.

كان الصدام البحرى بين سفن المسلمين المغاربة وسفن القوى الأوربية المتحالفة صداما طويلا استغرق من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر،

فيقتلوه ويلتهموه على أن يأسره الأسبان فى أمريكا الجنوبية، فيقع فى "مخالب الخوارنة العديمى الرحمة"، ومن هناك يرسلونه إلى أسبانيا ليَمْثُل أمام محاكم التفتيش (ص٢٣٧). كل هذا، وهو بَعْدُ نصرانى مثل أولئك القساوسة، وإن كان مذهبه مختلفا، فما بالنا بالمسلمين؟ ونلاحظ أن البستانى قد استخدم كلمة "خوارنة" ترجمة لـ"priests"، أى القساوسة. إلا أن اللبنانيين، الذين ينتمى إليهم البستانى، يستعملون الكلمة الأولى. وفى "محيط المحيط" للبستانى: "الخُورِى (بتخفيف الياء): كاهن النصارى الذى يخدم القرية، وقد يعمّ. يونانية معناها: مدبّر القرية. ج: خوارنة. الخورية: زوجة الخورى". فالبستانى يجرى هنا على ما درج أبناء وطنه على استعماله. وهكذا يرى القارئ كيف أن أسلوب المترجم فى اختيار الكلمات والعبارات والصور يتأثر بظروفه. وشأن الترجمة فى ذلك شأن أى فعل إنسانى آخر، فنحن البشر لا نعيش فى عالم من صنعنا بل نخضع لما تخضع له بقية الكائنات من التأثر والتأثير.

ولم ينته إلا بوقوع أقطار الشمال الافريقى تحت الاحتلال الفرنسى البغيض فى الجزائر والمغرب وتونس، والاحتلال الإيطالى فى ليبيا .

على أى حال كانت صفحة جهاد المسلمين فى الشمال الأفريقى حلقة من حلقات جهاد المسلمين ضد التعصب والبغض الأوربى لكل ما هو مسلم وعربى. ولا ينبغى لنا أن نساير المؤرخين الأوربيين المغرضين فى إطلاق لفظ "القرصنة" على الجهاد الإسلامى البحرى، فقد كان رجال البحر المغاربة يحاربون دفاعا عن الإسلام ضد قوى معادية متربصة بأرض المسلمين ودفاعا عن حرية موانىء المغرب العربى وأبنائه وأرزاقهم" .

والواقع أن القرصنة كانت ولا تزال موجودة، وستستمر ما دامت هناك بحار وسفن وفضاء مائى مفتوح لا رقيب عليه ولا حسيب. إنها موجودة فى القديم، وموجودة فى العصور الوسطى، وموجودة فى العصر الحديث، ويمارسها كل من رأى فى نفسه القدرة على ارتكابها وتصوَّر أنه قادر على النجاة من عواقب جريمته. والأوربيون مشهورون بالقرصنة ويمارسونها ضد الآخرين، وضد بعضهم البعض. ويمكن القارئ أن يرجع إلى مادة "قرصنة" فى أية موسوعة كـ"الموسوعة البريطانية" أو "اليونيفرساليس" الفرنسية أو موسوعتى "الإنكارتا" الإنجليزية والفرنسية أو "الويكيبيديا" بأية لغة يحسنها، وسوف يقرأ فيها تاريخ القرصنة والقراصنة قديما وحديثا . وقد مورست، كما هو معروف،

ضد السفن الإسلامية كثيرا فى كل مراحل التاريخ الإسلامى، ومنها القرصنة الأسبانية والبرتغالية ضد السفن التى كانت تُقِلّ مسلمى الأندلس عند هجرتهم الاضطرارية من ديارهم إلى بلاد المغرب كما قرأنا لِتَوّنا . وقد لخص هذه النقطة الأمير شكيب أرسلان فى نبذة شافية مركزة فى الذيل الأول لكتاب: "آخر بنى سراج"[1].

وفى الرواية التى نحن بصددها ذِكْرٌ لقرصنة السفن الأوربية بعضها ضد بعض. وقد عرضتْ مادة "قرصان" فى "الموسوعة العربية العالمية" بعض لقطات من هذا اللون من القرصنة، إذ تقول تحت عنوان جانبى هو: "قراصنة البحر الكاريبى ومناطق أخرى": "أدت المنافسة بين أسبانيا والدول الأوربية الأخرى فى القرن السادس عشر الميلادى إلى استعمار الأمريكتين المُكْتَشَفَتَيْن حديثًا، وإلى انفجار أعمال القرصنة فى هذا البحر طوال ٣٠٠ سنة. ومع حلول عام ١٥٥٠ سيطرت أسبانيا على جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية. ونتيجة لهذا أخذت عصابات من القراصنة الإنجليز والهولنديين والفرنسيين تقوم بسرقة سفن أسبانيا ونَهْب مستعمراتها فى الأمريكتين. وكان من هؤلاء اللصوص كلاب البحر الذين أرسلتهم إليزابيث ملكة إنجلترا للإغارة على الأساطيل الأسبانية. وكان منهم قادة بحر ذوو شهرة، مثل السير فرانسيس

---

[1] انظر الكتاب المذكور/ مطبعة المنار/ القاهرة/ ١٣٤٣هـ ١٩٢٥م/ ٣٦٢.

دريك والسير جون هوكنز. وقد ارتكب هؤلاء أعمال قرصنة قبل أن تُعْلِن الملكة الحرب على أسبانيا ليتحولوا بذلك إلى غُزَاة بحر.

وفى أوائل القرن السابع عشر الميلادى استوطن البحارة الفرنسيون والإنجليز والهولنديون وغيرهم من الأوربيين جزر هسبانيولا وتورتوجا وجزرًا أخرى فى البحر الكاريبى، وأخذوا يُغيِرون على السفن والمدن الأسبانية، وسرعان ما تحولوا إلى قراصنة مغامرين. وقد ازداد عدد هؤلاء حتى إنه لم تَعُد تنجو منهم مدينة على امتداد البر الأسبانى، وهى المنطقة التى كانت تمتد على ما يُعْرَف الآن بـ"كولومبيا وفنزويلا". وكان أشهر هؤلاء القراصنة المغامرين هنرى مورجان الإنجليزى، الذى قاد سنة ١٦٧١م أَلْفَى قرصان مغامر لنهب مدينة بَنَما وتدميرها حيث كانت أكبر المدن الأسبانية فى أمريكا الوسطى. وكان بعض هؤلاء القراصنة المغامرين يخدمون كغزاة بحر عندما يوافقهم مثل هذا الأمر.

وخلال القرن السابع عشر الميلادى جَدَّ القراصنةُ فى طلب أهداف جديدة، فقام بعضهم بالإغارة على المناطق الواقعة تحت السيطرة الأسبانية فى المحيط الهادى. وحَوَالَىْ سنة ١٦٩٠م بدأ القراصنة الأوربيون بمهاجمة السفن التابعة لأى دولة، وقام بعضهم بالإبحار فى المياه القريبة من مراكز تجارة الرقيق فى غربى إفريقيا. كذلك كانت الأخبار عن الثروات الكبيرة تجذب قراصنة آخرين إلى المحيط الهندى، فكانوا عندما يصلون إلى هناك يهاجمون السفن

المحملة بالنفائس من الحرير والتوابل والمجوهرات والعاج. وقد استقر كثير من هؤلاء القراصنة بين سكان مدغشقر، وهى جزيرة تقع إلى الشرق من البر الإفريقى. وقد يكون الأسكتلندى وليم كد هو الأكثر شهرة بين القراصنة الذين ارتبطوا بمدغشقر. وكانت إنجلترا قد أوفدت كد لإلقاء القبض على القراصنة، إلا أنه عقد صداقات معهم وأصبح هو نفسه قرصاناً.

كذلك وجَّه القراصنة الأوربيون اهتمامهم إلى أمريكا الشمالية وأوربا، فأقام عدد منهم قاعدةً لهم فى جزر البهاما كانوا يهاجمون منها السفن التى تُبْحِر فى هذا الطريق. وكان من قادة هؤلاء القراصنة بنيامين هورنيجولد وكاليكو جاك راكهام وتشارلز فين. وكان من بين القراصنة الذين يبحرون مع هؤلاء الرجال امرأتان هما آن بونى ومارى ريد. غير أن القرصان الذى اشتهر أكثر من غيره بسمعته السيئة فى هذه الفترة كان إدوارد تيتش المعروف بلقب "ذى اللحية السوداء"، وهو الذى أثار الرعب فى سواحل كارولينا وفرجينيا عامى ١٧١٧ و١٧١٨م. وقد قام أسطول صغير من فرجينيا بمطاردة ذى اللحية السوداء وقتله سنة ١٧١٨م. ومع نهاية عشرينيات القرن الثامن عشر الميلادى أنهت البحرية الملكية البريطانية معظم أنشطة القراصنة الأوربيين فى العالم".

ولكى يعرف القارئ مأساة المسلمين فى الأندلس والفظائع الشنيعة التى حاقت بهم هناك بعد سقوط غرناطة وضياع البلاد من أيديهم، وهى النقطة

المحورية فى موضوعنا هذا، نورد مقال "الاضطهاد والتنصير فى الأندلس (١٤٩٢–١٥٦٨م)" للدكتور على منتصر الكتانى[1]، وهو نقطة من بحر:

"بعد استسلام غرناطة عين الملكان الكاثوليكيان الكونت دى تانديا حاكمًا عليها، وإيرناندو دى طلبيرة مَطْرَانًا لها . وبعد الاحتلال استقر أبو عبد الله فى أندرش مع أتباعه وأهله مدةً، لكنه أجبر بعد ذلك على التنازل عن ضياعه فى البشرات وأملاكه فى غرناطة مقابل ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف دوقة قشتالية من الذهب الخالص. وغادر البلاد فى أوائل أكتوبر سنة ١٤٩٣م بأهله وأتباعه، والتحق به عدد كبير من وزرائه وقواده، واستقروا معه فى حاضرة فاس عاصمة المغرب.

وهاجر عددٌ جَمٌّ من كبار أهل غرناطة وقوادها وفقهائها وعلمائها وساداتها وأعيانها . وهاجر أحد قواد الجيش الأندلسى الغرناطى أبو الحسن على المنظرى إلى جنوب سبتة، واستأذن من السلطان أبى عبد الله الوطاسى إعادة بناء مدينة تطوان الخربة، فنقل إليها عددًا كبيرًا من المهاجرين الأندلسيين. واعتنق النصرانية طواعيةً بعد الاحتلال جماعة من الأمراء والأعيان: الأميران سعد ونصر ابنا السلطان أبى السحن وأمهما ثريا، والأمير يحيى النيار ابن عم أبى عبد الله

[1] مجلة "الداعى" الشهرية الصادرة عن دارالعلوم- ديوبند/ محرم- صفر ١٤٣١هـ: ديسمبر ٢٠٠٩ م ويناير- فبراير ٢٠١٠م.

الزغل وزوجه وابنه، ومعظم آل بنيغش بما فيهم الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش والوزير يوسف بن كماشة، وغيرهم كثير.

ثم تحولت سياسة الدولة الأسبانية من الاعتدال إلى الغدر الفاضح ضد أهل غرناطة. وأول الغدر تحويل مسجد غرناطة الأعظم إلى كتدرائية. ثم نظَّمت الكنيسة فرقًا تبشيريةً لتنصير المسلمين. وفى سنة ١٤٩٩م استدعى الطاغيةُ الكاردينالَ سيسنيروس ليعمل على تنصير الأندلسيين بصرامة أكبر، فابتدأ فورًا بتحويل أكبر المساجد إلى كنائس، والضغط بالوعد والوعيد على وجهاء المدينة وفقهائها ليتنصروا. فقامت ثورة عارمة فى حى البيازين، ثم انتقلت سنة ١٥٠٠م إلى جبال البشرات بقيادة إبراهيم بن أمية، فلاحق الجيش الثوار وحاصرهم ثم قضى عليهم بعد شهور، وقتل معظمهم، واسترقَّ أبناءهم ونساءهم. ثم قامت ثورة أخرى أواخر سنة ١٥٠٠م حول بلدة بلفيق ووادى المنصورة بمنطقة ألمرية، فقُضِى عليها بنفس الهمجية والقساوة. وكذلك حصل لثوار منطقة رندة بين يناير وأبريل سنة ١٥٠١م.

وتابعت الدولة والكنيسة سياسة التنصير القسرى بإشراف الملكين الكاثوليكيين، فتم تعميد جميع الأهالى بالقوة بين سنتى ١٥٠٠ و١٥٠١م. ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس. وفى ١٥٠١/١٠/١٢م صدر مرسوم آخر بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت آلاف الكتب فى ساحة

الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب فى جميع مدن وقرى مملكة غرناطة. ثم صدر الأمر بمنع استعمال اللغة العربية ومصادرة أسلحة الأندلسيين، الذين أصبحوا يسمونهم بـ"المورسكيين". ويعاقَب المخالف لأول مرة بالحبس والمصادرة، ولثانى مرة بالإعدام. فاستغاث الأندلسيون مرةً أخرى بسلطان المغرب أبى عبد الله الوطاسى، وبسلطان مصر الأشرف قانصوه الغورى، وبالسلطان با يزيد العثمانى دون جدوى.

ثم استعملت الكنيسة والدولة جهازاً جهنميًّا لمتابعة الأندلسيين ومحاربة كل مظاهر الإسلام فى حياتهم، ألا وهو محاكم التفتيش. أسست الكنيسة الكاثوليكية هذه المحاكم فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا لتقصِّى أخبار الناس ومتابعتهم إن خالفوا أفكار وأعمال الكنيسة. ثم أُنشئت فى أديرة الفرانسسكان والدومينكان محاكم ثابتة يترأسها الأساقفة بسلطة مطلقة، فطاردت العلماء والمفكرين، وشردت وأحرقت منهم الجم الغفير. وأُنشئت أول محكمة تفتيش سنة ١٢٤٢م فى أراغون، وسُمِّيت بـ"الديوان القديم". وفى سنة ١٤٥٩م أصدر ملك قشتالة إنريكى الرابع أمرًا ملكيًّا للأساقفة بالبحث والاستقصاء فى دوائرهم عن المضمِرين لأفكار مخالفة للكثلكة. وفى ١١/ ١٤٧٨م (قبل سقوط غرناطة) أصدر البابا مرسوما بإنشاء محكمة التفتيش فى أسبانيا. وطالبت المحكمة الجميع بالتحول إلى جواسيس للكنيسة. وفى ٢/ ١٤٨٢م توسعت المحكمة من ٣ مفتشين

من القساوسة إلى عشرة، فاستصدر الملكان الكاثوليكيان مرسومًا بابويًّا لتعيين المفتشين السبعة الجدد . وفى سنة ١٤٨٣م صدر مرسوم بابوى بإنشاء مجلس أعلى لديوان التفتيش يتكون من أربعة أعضاء أحدهم المفتش العام رئيس المجلس، وهو توركيمادا، معترف المَلكَيْن. وكان رجلا ظالمًا متعصبًا لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، مع ترف فى الحياة وفساد فى الأخلاق. وخَلَفَ توريكمادا بعد وفاته سنة ١٤٩٨م القسُّ ديسا، أسقف جيان.

تبدأ محكمة التفتيش عملها بتبليغ شخص. فإن كان معروفًا يُسْتَدْعَى لتقديم شهادته، التى تُعتبر "تفتيشًا تمهيديًّا" تُعْرَض نتائجه على "رهبان مقررين" معظمهم من الجهلة المتعصبين الذين يتجه قرارهم إلى الإدانة غالبًا . فيُقْبَض على المتهم ويُسْجَن دون أن يعرف السبب، ويُمْنَح ثلاث جلسات إنذار فى ثلاثة أيام متوالية يُطْلَب منه فيها الاعتراف بذنب لا يدرى ما هو. فإذا اعترف عُوقِب بدون رحمة ولا شفقة. وإذا لم يعترف، أو لم يدر بماذا، يحال إلى التعذيب حتى يعترف بأى شىء أو يموت تحت العذاب. وكانت ضروب التعذيب تصل إلى درجة من الوحشية لا تخطر على بال. وإذا اعترف المتهم بغير التهم الموجهة إليه تُلْصَق به تلك التهم على أى حال. وبعد المرافعة والاستجواب يُرْفَع الموضوع إلى القساوسة المفتشين ليعطوا رأيهم من جديد تمهيدًا للحكم النهائى، الذى يكون غالبًا الإدانة. ويمكن للمتهم أن يعلن التوبة ويطلب العفو من البابا مقابل أموال طائلة إن كانت له

أموال. وإذا حُكِم على المتهم بالبراءة، وقليلا ما يكون ذلك، فإنه يُعْطَى شهادة بطهارته من الذنوب تعويضاً عن ذهاب ماله وشرفه وصحته ظلمًا وعدوانًا .

أما إذا كانت الإدانة بتهمة كبيرة فيُؤْخَذ المتهم من السجن دون أن يدرى مصيره، ويمر بـ"مرسوم الإيمان"، فيلبس "الثوب المقدس"، ويوضع فى عنقه حبل، وفى يده شمعة، ويؤخذ إلى الكنيسة للتوبة ثم إلى ساحة التنفيذ . وهناك يتلى عليه لأول مرة الحكم: سجن مؤبد، ومصادرة كاملة للأموال، أو الإعدام حرقاً بالنار فى حال الكفر الصريح . أما إذا كانت التهمة صغيرةً فيحكم عليه بالسجن لمدة محدودة، وبغرامة مالية، ويسمون ذلك: "حكم التوفيق" .

كانت أحكام الإعدام بالنار كثيرةً ضد المسلمين، وتكون فى مهرجانات عظيمة يتفرج فيها القساوسة ورجال الدولة والأهالى، وأحيانًا الملك وكبار رجال دولته. وكان يُحْرَق المتهمون جماعيًّا فى مواكب الموت للترهيب، وأحياناً عائلات بأكلمها بأطفالها ونسائها . وكانت محاكم التفتيش تحاكم الموتى فتنبش قبورهم، وتتابع الغائبين وتعاقب أهلهم. وكان أعضاؤها يتمتعون بالحصانة الكاملة. وكانوا غالبا ذوى أخلاق سافلة لا يتورعون عن ارتكاب الموبقات والجرائم ضد ضحاياهم. وهكذا أُخْضِع الأندلسيون لهذه المحاكم الإجرامية منذ إعلان تنصيرهم القسرى سنة ١٤٩٩م.

ولما أُخْمِدت الثوراتُ وأُلغِيَ الإسلامُ رسميًّا لم يجد الأندلسيون بُدًّا، أمام عجزهم عن الدفاع وضياع أملهم فى النجدة، سوى التظاهر مكرهين بقبول دين النصارى، والحفاظ على الإسلام سِرًّا يقومون بشعائره من صلاة وصيام وتحاشى المنكرات، ويعلِّمون أبناءهم، ويفعلون ما يجبرون عليه من التردد إلى الكنائس وتعميد الأطفال. وعملوا جهدهم للتكيف مع هذا الوضع الشاذ الحرج الخطر إلى أن يأتى الله بفرج من عنده.

وتحولت الكنيسة والدولة من أمل تنصير المسلمين الفعلى بالتبشير إلى أمل تنصيرهم بالإكراه والعنف والقوة، فجَدَّدَت القوانين الجائرة والإجراءات الصارمة. ففى سنة ١٥٠٨م جَدَّدَت لائحةً ملكيةً بمنع اللباس الإسلامى. وفى سنة ١٥١٠م طَبَّقَت على المورسكيين ضرائبَ خاصةً اسمها "الفارضة". وفى سنة ١٥١١م جددت الحكومة قرارات بمنع السلاح عنهم، وحرق ما تبقى من الكتب الإسلامية، ومنع ذبح الحيوانات. وجُدِّدَ ذلك فى سنتى ١٥١٢م و١٥١٣م. ودام الاضطهاد إلى أن مات فرناندو سنة ١٥١٦م مُوصِيًا خَلَفَه كارلوس الخامس بمتابعة سياسته نحو الإسلام.

واجه كارلوس الخامس المورسكيين بشىء من اللين فى أول أمره، لكن فى سنة ١٤٢٣م أصدر مرسومًا جديدًا يحتم فيه تنصير كل مسلم بقى على دينه، وإخراج كل من أَبى التنصير، وعقاب كل من خالف الأمرين بالرق مدى

الحياة. فاشتكى الموركسيون إلى الملك من جور هذا القرار، فانتقل الملك سنة ١٥٢٦م إلى غرناطة لمتابعة الموضوع، وندب محكمة كبرى برئاسة المفتش العام لترى فيما إذا كان تنصير المسلمين قَسْرًا: صحيحًا وملزمًا أم لا، فقررت المحكمة ألاّ مطعن فى تنصيرهم. فأصدر الملك قرارًا بمنع خروجهم من أسبانيا وضرورة تنصير أبنائهم، وقضى بالإعدام على كل من تنكر للنصرانية. وقرر القانون منع التخاطب بالعربية وكتابتها، وأجبر الموريسكيين على تعلم الأسبانية، وأمر بهدم الحمامات وبأن تبقى بيوت الموريسكيين مفتوحةً على الدوام ليرى الجميع ماذا يجرى فيها . . . إلخ. فالتمس الموريسكيون من الملك مرةً ثانيةً الرأفة، ودفعوا له من أجل ذلك ثمانين ألف دوقة ذهبية، فوافق على تأجيل تنفيذ هذه الإجراءات لمدة أربعين سنةً مقابل دفع ضريبة سنوية. وهكذا وصل الموريسكيون مع كارلوس الخامس إلى توازن، لكن محاكم التفتيش واصلت تعسفها، خاصةً فى سنة ١٥٢٩م.

وخَلَف كارلوسَ الخامسَ بعد موته سنة ١٥٥٥م ابنُه فيليب الثانى، الذى كان متعصبًا ضعيف الشخصية أمام الرهبان: ففى سنة ١٥٦٠م مَنَع الموريسكيين من اقتناء العبيد. وفى سنة ١٥٦٣م منعهم من جديد من امتلاك الأسلحة. وفى سنة ١٥٦٤م ألغى حصانة الذين يقيمون منهم فى أراضى النبلاء. وفى سنة ١٥٦٦م، بعد مضى أربعين سنةً على الاتفاق مع كارلوس

الخامس، قرر تطبيق قراره بكل صرامة، وفرض على المخالفين أقصى العقوبات من السجن والنفى والتعذيب والمصادرة والإعدام حرقًا . فأذيع هذا القانون الغاشم فى جميع أنحاء مملكة غرناطة فى ١/ ١/ ١٥٦٧م، وتولى إذاعته موكب من قضاة محاكم التفتيش تتبعهم الطبول والزمور . وبدأت الحكومة فى تطبيق هذا القانون بكل صرامة، فهُدِمت الحمامات، ومُلِئَت السجون، وتناثرت جثث المسلمين فى شوارع غرناطة وقراها . ولم تفد الموركسيين أية شفاعة، فأخذوا يفكرون فى الثورة المسلحة من جديد .

أما البرتغال فتوسعت على حساب الأراضى الإسلامية فى الأندلس من إمارة صغيرة تأسست شمال غرب البلاد، فاحتلت براغة سنة ١٠٤٠م، ثم قلمرية سنة ١٠٦٤م حيث نقلت عاصمتها . ثم احتلت الأشبونة سنة ١٠٩٣م فنقلت إليها العاصمة، ثم يابورة سنة ١١٦٦م، وقصر بنى دانس سنة ١٢١٧م، وشلب وجميع غربى الأندلس سنة ١٢٤٩م. وبهذا استقرت حدود البرتغال على ما هى عليه اليوم. وعند احتلال الأراضى الإسلامية صادر البرتغاليون كل أراضى المسلمين وأملاكهم، فهاجر عدد كبير منهم، واستقر بعضهم الآخر فى بلادهم كمُدَجَّنين. فلما أعلنت أسبانيا أمرها بتنصير المسلمين سنة ١٤٩٩م تبعتها البرتغال سنة ١٥٠٢م، فهاجر عدد منهم إلى شمال المغرب، وبقى بعضهم الآخر كمسلمين

سرًّا فى البلاد، ثم هاجر عدد كبير آخر سنة ١٥٤٠م إلى المغرب. وبقى الباقون تحت نفس المصير الذى أصاب إخوانهم داخل الدولة الأسبانية.

ودخل عدد كبير من المسلمين تحت حكم قشتالة كمُدَجَّنين بعد سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م، ثم مرسية وقرطبة وإشبيلية فى القرن الثالث عشر الميلادى، فوقَّع الملك الفونسو الرابع سنة ١٢٥٨م قانونًا فرض فيه قيودًا على المسلمين فى كل المجالات، وشجع التنصير بينهم دون إرغامهم عليه. فثار المسلمون سنة ١٢٦١م من شريش غربا إلى مرسية شرقا، فقضى القشتاليون بمساعدة الأراغونيين على الثورة سنة ١٢٦٦م، وفرّقوا فى مرسية بين السكان المسلمين والنصارى حيث ظلّ حى الرشاقة الإسلامى تحت حكم وجهاء بنى هود إلى سنة ١٣٠٨م.

وتوالت القرارات التعسفية ضد المسلمين فى قشتالة فى سنة ١٣٤٨م و١٣٦٨م و١٣٧١م: منها إجبار المسلمين على وضع شارات مميزة فى ثيابهم، ومنعهم من الوظائف النبيلة، ومعاقبة المخالف بالمصادرة والسجن والتعذيب. وفى سنة ١٣٨٧م فرَّقوا فى المسكن بين المسلمين والنصارى، وأجبروا المسلمين على الركوع للصليب، وجُدّد القرار سنة ١٣٨٨م. وفى سنة ١٤٠٨م منعوا المسلمين من الأكل مع النصارى وعاقبوا المخالفين، وقرروا إجراءات أخرى متشددةً للتفريق بين الفئتين فى كل المعاملات. وفى سنة ١٤٢٢م أُصْدِرَ أمرٌ بالإعدام على من يمنع

مسلمًا من اعتناق النصرانية تبعته قرارات مالية مجحفة بالمسلمين سنة ١٤٣٥م و١٤٣٨م. وأصدرت الملكة إيزابيلا سنة ١٤٧٦م مرسومًا تلغى فيه ما تبقى من المحاكم الشرعية، وتحدد ملبس المسلمين. وفى سنة ١٤٨٠م أصدرت مرسومًا أكدت فيه استرقاق المسلمين القادمين من غرناطة، وفرقت بين سكن المسلمين والنصارى.

وفى سنة ١٥٠٢م قرر الملكان الكاثوليكيان قتل المسلمين الرافضين التنصير فى قشتالة أو طردهم خارج البلاد . كما أصدرا أمرًا بمنع مسلمى قشتالة من الاتصال بمسلمى مملكة غرناطة. ثم أصدرا أمرًا فى نفس السنة بتنصير جميع مسلمى قشتالة وليون وإخراج من يرفض التنصير. وفى سنة ١٥١٥م أصدر الملك مرسومًا يحرّم فيه على المتنصرين حديثًا فى أية جهة من مملكة قشتالة أن يخترقوا أراضى مملكة غرناطة أو يتصلوا بأهلها، وعقوبة المخالف الموت والمصادرة.

وقع أول المسلمين فى يد النصارى بمملكة أراغون عند سقوط برشلونة ومنطقتها سنة ٩٦٠م، ثم تكاثروا بعد سقوط سرقسطة سنة ١١١٨م، وميورقة سنة ١٢٢٠م، ويابسة سنة ١٢٣٥م، وبلنسية سنة ١٢٣٨م، ومنورقة بالجزر الشرقية سنة ١٢٨٦م. ضمنت معاهدة استسلام بلنسية صيانة المسلمين وأموالهم وعقيدتهم ولغتهم العربية والشريعة الإسلامية، ولكن ملك أراغون غدر بكل عهوده فور امتلاك المدينة، فصادر مساجدهم وحَوَّلهم إلى شبه أرقاء بعد

جمعهم فى أحياء خاصة بهم. وفى سنة ١٢٣٨م شرع الملك قوانين مجحفة، فثار المسلمون سنة ١٢٥٤م، واستولَوْا على عدد من الحصون بين شاطبة ودانية ولقنت. ولم يستطع الملك القضاء عليهم إلا سنة ١٢٥٧م بمساعدة أوربا كلها بأمر من البابا. ثم تتالت القوانين المجحفة الظالمة سنة ١٢٦٨م، فثار المسلمون مرةً ثانيةً عام ١٢٧٦م، وحرروا أربعين حصنًا وتمركزوا فى شاطبة، ودامت الثورة إلى سنة ١٢٧٧م.

ثم تتابعت القوانين الظالمة: سنة ١٢٨٣م تمنع المسلمين من الوظائف النبيلة، وسنة ١٣٠١م تنزل بعض الضمانات القانونية التى أعطيت لهم من قبل، وسنة ١٣٢٨م تجعلهم تحت رحمة الإقطاعى النصرانى وكأنهم عبيد له، وسنة ١٣٤٢م و١٣٧٠م تمنعهم من الهجرة إلى غرناطة والمغرب، وسنة ١٣٧١م و١٣٨٩م و١٤٠٣م تمنعهم من فداء الأسرى المسلمين، وتعاقب المخالفين بالاسترقاق. وفى سنة ١٤١٨م صدر قانون يحدد تحرك المسلمين فى المملكة، ويجعل أحياء المسلمين تحت إشراف مراقب نصرانى، ويمنع الأذان تحت طائلة الإعدام. وفى سنة ١٤٢٨م صدر قانون يجعل القضاء بين المسلمين بين يدى الإقطاعى النصرانى، وكذلك التحكم فى تحركاتهم.

وبعد سقوط غرناطة ساءت حالتهم، ولكن السادة الإقطاعيين عارضوا فى إجبارهم على التنصير خوفًا على مصالحهم الزراعية. ولكن منذ سنة

١٥١٢م ابتدأت جماعات من النصارى المتعصبين تُغير على القرى الإسلامية وتقتل وتحرق وتسبى دون رادع، ونَصَّروا قهرًا عددًا كبيرًا من المسلمين. وفى سنة ١٥٢٥م قررت الدولة والكنيسة فى أراغون أن الذين أجبروا على التنصير هم نصارى وجب عليهم أن يعيشوا كذلك، وإلا وجب على محاكم التفتيش أن تعاملهم معاملة المرتدين. ثم قرر الملك إجبار جميع المسلمين على التنصير. وبعد أن استرجع المسلمون الملك عن هذا القرار وافق منحهم مهلة عشر سنين مقابل غرامة قدرها أربعون ألف دوقة ذهبية، وخفف عليهم إبانها شروط التنصير.

لكن اليأس دخل نفوس المسلمين، فثاروا فى منطقتى سرقسطة وبلنسية إلى ضفاف نهر شقر، فنظَّمت الدولة الأراغونية جيشًا من المتطوعين النصارى من كل أوربا لمحاربة المسلمين، وتكوّن جيش ضخم بقيادة الملك كارلوس الخامس نفسه، فقضى على الثورة أواخر سنة ١٥٦٢م، فقَتَّل الجم الغفير من المسلمين، واسترقَّ عددًا كبيرًا منهم، وأجبر الباقين على التنصير، كما فرّ عدد من المجاهدين إلى الجزائر والمغرب، فتابع الباقون فى البلاد حياتهم المزدوجة بين الإسلام فى السر والنصرانية فى العلانية.

وعملت الدولة الأسبانية بشطريها: أراغون وقشتالة على قطع الصلة بين المسلمين فى المناطق المختلفة، خاصةً بين مسلمى مملكة بلنسية ومملكة

غرناطة. ففى سنة ١٥٤١م حرمت على مسلمى غرناطة النزوح إلى بلنسية، وحرمت الهجرة من بلنسية إلا بترخيص ملكى مقابل غرامة باهظة" .

والآن نستطيع أن نتفهم تفهما أوضح قول د . أنيس القيسى على الرابط التـــــــــــالى: http://buzzypress.blogspot.com/2012/08/blog-post_3182.html تحت عنوان "عن النشاط البحرى العثمانى فى البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر": "يعدّ موضوع القرصنة من المواضيع البالغة الأهمية فى تاريخ البحر المتوسط، وما زال يشكل نقطة خلاف بين المؤرخين والباحثين. وهو بلا شك موضوع يستحق دراسة مستقلة كونه يرتبط بقضايا قانونية وفقهية وفيلولوجية من دونها لا يمكن فهم المعنى الدقيق لكلمة "القرصنة" . وتأتى نقطة الخلاف بين المؤرخين لا بشأن الكلمة نفسها، وإنما بشأن المعانى المتعددة التى تحملها، لاسيما إذا حاولنا فهم معانيها المختلفة وتطور تلك المعانى عبر العصور وبلغاتها المختلفة. ولفهم القرصنة لا بد أن نقرّ أولا أنها شكل من أشكال الحروب.

كانت الحروب البحرية فى البحر المتوسط على نوعين: حروب رسمية، وحروب غير رسمية. فالحروب الرسمية هى تلك التى تشنها أساطيل دولة ما ضد أساطيل دولة أخرى، بأساطيلها الخاصة وقادتها التابعين لها ولنظامها الإدارى. ولا بد أن يجرى هذا النوع من الحروب حينما يكون الطرفان فى حالة

خلاف. أما النوع الآخر من الحروب، وهو الحرب غير الرسمية، فقد سُمِّيَتْ بـ"القرصنة" . وهى نوع من العمليات العسكرية يقوم به مغامرون بحريون بهدف الاستيلاء على سفن أو حمولات أو أشخاص بهدف استرقاقهم أو بيعهم. وقد دأب كثير من المؤرخين الغربيين، أو بالأحرى: معظمهم إن لم يكن كلهم، على وسم النشاط البحرى العثمانى فى البحر المتوسط بـ"القرصنة" وعلى مَن قام به بـ"القراصنة"، وقلدهم فى ذلك كثير من الكتّاب والمؤرخين العرب، غالبا من دون قصد . وقد انبرى عدد من المؤرخين العرب مؤخرا للتصدى لهذا الموضوع ومعالجته معالجة علمية جادّة بهدف تصحيح فهم هذا المصطلح ووضعه ضمن إطاره التاريخى الصحيح.

فى معالجتنا لهذا الموضوع لا بد أن نركز على قضية واحدة، ألا وهى: كيف نُقْنِع الطرف الآخر بوجهة نظرنا ؟ إذ لا يكفى أن ننكر صفة القرصنة على النشاط البحرى الإسلامى عامة، والعثمانى خاصة فحسب، وإنما كيف نثبت، بتقديم الأدلة والبراهين، أن هذا النشاط نوع من الأعمال المشروعة هدفه الرئيس حماية المواقع والثغور الإسلامية أولا، وردّ الأخطار المحدقة بها وملاحقتها والقضاء على مصادر قوتها ثانيا .

فى المقام الأول ينبغى علينا تعريف ما المقصود بلفظتى "قرصنة" و"قرصان" كما يورده الباحثون الغربيون، وما مقابلهما فى اللغة العربية. عادة

ما يطلق المؤرخون الغربيون على النشاط العثمانى فى البحر المتوسط تعبيرين: الأول "Privateering"، الذى يعنى عملا حربيا بحريا بتفويض من الحكومة يقضى بمهاجمة سفن العدو، و"Privateer"، الذى يعنى قائد المركب الذى يقوم بهذا العمل. أما التعبير الثانى فهو "Piracy"، الذى يعنى القيام بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين من دون ترخيص ومن دون وجه حق، ولفظتى "Pirates" و"Corsairs" على الأشخاص الذين يقومون بهذا النوع من العمل. والكلمة الأخيرة تعنى تحديدا القرصان بمعنى "لص البحر، أو المركب الذى يقوده هذا اللص".

وقد يتبادر إلى الذهن أن التعبيرين متشابهان إلى حد بعيد، ولكن ثمة اختلافات جوهرية من الناحية القانونية: فالتعبير الأول، الذى سنطلق عليه لفظة "القرصنة/ الغارة"، وإن كانت غير رسمية، هو حرب شرعية تجرى بتخويل من الدولة. ولهذا النوع من القرصنة قوانينه الخاصة وأحكامه وعاداته وتقاليده. أما التعبير الثانى الذى سنطلق عليه لفظة "لصوصية البحر" فلم يدخل فى الاستخدام إلا خلال القرن السابع عشر. وقد أطلقه الأسبان على القباطنة العثمانيين الذين كانوا يشنون الغارات على السواحل الأسبانية بهدف الاستيلاء عليها أو إيقاع أكبر قدر ممكن من الأضرار بها لمنعها من متابعة نشاطاتها فى سواحل شمالى أفريقيا والإغارة على الثغور الإسلامية هناك.

ويذكر فرناند براودل، ونحن مدينون له إلى حد بعيد لتوضيحه الفرق بين التعبيرين، أن الأسبان أطلقوا هذا المصطلح ابتداءً من سنة ١٦١٤ حينما طُرِد القباطنة المسلمون من مرمورة واستقروا فى الجزائر، وأن هذا التعبير وفد إلى البحر المتوسط مع السفن التى كانت تجوب المحيط الأطلسي.

وفى الوقت الذى توفّر فيه "القرصنة/ الغارة" فرصة للتفاوض بين الطرفين المتنازعين عن طريق توفير شبكة من الوسطاء لحل الخلافات وافتداء الأسرى وتعويض الضحايا، فإن "لصوصية البحر" لا توفر مثل هذه الفرصة، فليس هناك قانون يحكمها أو قوة تُلزِم القائم بها بالتقيّد بضوابط أو روادع معينة: قانونية كانت أم أدبية. وفى الوقت الذى لم يكن فيه هذا النوع من القرصنة منتشرا فى الثغور الإسلامية، ولا سيما سواحل البحر المتوسط فى شمالى أفريقيا والسواحل التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية، فإنه كان منتشرا على السواحل المسيحية. وثمة جماعات متخصصة كانت تقوم بهذا النوع من القرصنة، مثل الأوزكوك (Uzkoks) فى سيغنا (Segna) وفيومى (Fiume) بإيطاليا. وهؤلاء لا يخضعون لدولة أو دين أو فئة معينة ولا حتى لقانون معين، وإنما هم مجرد قُطّاع طرق ولصوص بحريين، وكانوا يسرقون المسيحيين بالقدر نفسه الذى يسرقون به العثمانيين. ومن هنا فإن مسألة تحديد نشاطاتهم كانت محدودة إن لم تكن صعبة. وهذا النوع لا وجود له

بين"القراصنة" العثمانيين، فلم نسمع عن أحد قام بالإغارة على ممتلكات الدولة العثمانية أو ممتلكات الدول الخاضعة لها أو المتحالفة معها ولا على رعاياها أو سفنها، وإنما على ممتلكات القوى المعادية لها، غالبا لدعم أسطولها وقوتها البحرية، بمعنى تعزيز قدرتها على مواجهة أعدائها. وهو نوعٌ مشروعٌ من العمليات البحرية، لأن الدولة العثمانية كانت فى حرب مفتوحة مع أعدائها خلال القرن السادس عشر.

ولعل من المناسب هنا أن نقدم مثالين لتحديد وضع القباطنة العثمانيين مقارنة بغيرهم من القراصنة الأوربيين. ففى حديثه عن هذا الموضوع ذكر المؤرخ هارولد لامب ما نصه: "بدأ أحدهم منذ أمد بعيد بتسمية القادة البحريين العثمانيين بـ"القراصنة ولصوص الساحل المغربى البحريين". ولم يكن ذلك موجودا فى عهدهم لأن هذه الكلمات لم تكن مستعملة حينذاك. إنهم لم يكونوا قراصنة أو لصوصا بحريين على الساحل المغربى ولا أمراء بحر، كما لم يبحروا من أوكار قراصنة. ولكنك ستجد جميع هذه المصطلحات فى كتب التاريخ الحديثة الغربية". ويستطرد لامب فى مقارنته بين خير الدين وأندريا دوريا قائد الأسطول المسيحى قائلا: "وكان بمقدور خير الدين أن يصبح قرصانا عظيما، لكنه فضّل أن يبحر مستظلا بعلم واحد هو العلم التركى، الذى كان يرفعه مع راية قيادته. وكان يحمل رتبة "أمير بحر"، ويتقاضى مرتبه

من الخزينة التركية، ويبنى سفنه فى المسفن، وينفذ خطة أمة واحدة، محاربا ست إمارات أو قوى معادية. أما خصمه أندريا دوريا فعادةً ما كان يوصف بـ"أميرال الإمبراطورية" . وكان يبدل أعلامه كما يبدل ولاءه، وكانت له ثلاث عشرة سفينة هى ملكه الخاص فى الأساطيل الجنوية والفرنسية والأسبانية، وكان يطالب بنسبة مئوية من الغنائم" . ولا بد من الإشارة إلى أن أندريا دوريا، الذى كان يعمل لصالح الملك الفرنسى فرانسوا الأول، كان قد غيّر ولاءه لصالح الإمبراطور الأسبانى شارل الخامس، إذ لم يكن مقتنعا بالمبلغ الذى كان يدفعه له الملك الفرنسى فى حين عرض عليه الإمبراطور مبلغ ستة آلاف دوكة عن كل سفينة.

أما الباحثة الأمريكية سندى فالار (Cindy Vallar) فتصف القباطنة العثمانيين كالآتى: "لقد كان القراصنة البربريون (Barbary Corsairs) قادة مراكب مفوّضين (Privateers) للإمبراطورية العثمانية أكثر من كونهم قراصنة (Pirates)ا . وكان الهدف من غاراتهم قد تحوّل من النهب الصِّرف وأسْر الأشخاص إلى الجهاد ضد روما والمسيحية" . وتستطرد الباحثة فالار فتقول: "وتنبغى الإشارة أيضا إلى أن معظم هؤلاء القراصنة كانوا مسيحيين تحولوا إلى الإسلام، وكانوا يقومون بنشاطهم للحصول على الغنائم بصورة شرعية من سفن

البحر المتوسط أو للحصول على حريتهم من العبودية. وقد دأب العالم المسيحى على عدّ هؤلاء قراصنة وإرهابيين، وعاملوهم على هذا الأساس".

من هنا يتبين أن النشاط البحرى العثمانى، الذى يسميه الغربيون: "قرصنة"، كان نوعا من أنواع العمليات الحربية المشروعة أو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "الغارات البحرية". فقد كان القباطنة العثمانيون يعملون ضمن إطار النظام الإدارى العثمانى، ومن ثم فإن نشاطهم كان موجها لخدمة قضية الدولة العثمانية فى حربها مع خصومها السياسيين فى البحر المتوسط. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الدولة العثمانية تمثل العالم الإسلامى والخلافة الإسلامية بعد سيطرتها على الأماكن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية. بمعنى آخر فإن القباطنة العثمانيين الذين كانوا يقومون بنشاطهم البحرى إنما كانوا يقدمون خدماتهم إلى دولة إسلامية، وبالأحرى إلى الإسلام نفسه.

وبما أن الإسلام لم يكن يعترف إلا بنوع واحد من الحرب بصفته حربا شرعية، ألا وهو الجهاد، الذى يُشَنّ لنشر الإسلام وتوسيع الممتلكات الإسلامية وحمايتها، فلا بد إذن أن "القرصنة" العثمانية، التى أصبحت لدينا الآن نوعا آخر من أنواع العمليات العسكرية المشروعة، وإن تكن غير رسمية، أصبحت مرادفة لمفهوم "الغزوة" أو "الغارة"، التى كانت تعنى شيئًا آخر خلاف ما يرمى إليه الكُتّاب الغربيون.

ومنذ عهد الفتوحات الإسلامية الأولى كان المسلمون يشنون الجهاد ضد أعدائهم برا وبحرا بوازع دينى مصحوب بالتقليد العسكرى الذى ورثوه عن حقبة ما قبل الإسلام المتمثل بـ"الغزوات"، التى تبناها الدين الإسلامى. وقد انسجم هذا التقليد مع التطلعات السياسية والعسكرية للدولة العثمانية منذ بداية ظهورها واستمر معها فيما بعد. وقد استجاب المحاربون المسلمون المنضوون تحت لواء الإمبراطورية العثمانية بأعداد متزايدة على طول سواحل شمالى أفريقيا وغيرها من المناطق التى خضعت للنفوذ العثمانى إلى دعوة السلاطين العثمانيين للفتوحات لنشر الإسلام وتوسيع رقعة الإمبراطورية. وعلى طول تلك المناطق بدأت الغارات أو "الغزوات" تُشَنّ لحماية "دار الإسلام" ضد "دار الحرب". وكان السلاطين العثمانيون يفتخرون بلقب "الغازي" ويضعونه أمام أسمائهم تفاخرا، وكان أشهرهم السلطان سليمان القانونى يلقب نفسه: "غازى الغزاة". والشئ المهم الآخر أن لقب "الغازي" كان مرادفا لكلمة "المجاهد" لدى سلاطين آل عثمان، لكن من المؤكد أن الفرق بينهما موجود فى الفقه الإسلامى، بل وحتى فى الموروث العربي.

على أية حال عندما حدث التوسع البحرى الإسلامى من جانب، وحدثت مأساة المسلمين فى الأندلس من جانب آخر، انخرط كثير من أولئك "القراصنة– الغزاة" بالعمليات البحرية يدعمهم السلطان العثمانى، الذى أصبح

الآن "خليفة المسلمين وحامى حمى الدين" بعد إعلانه الخلافة الإسلامية جزءا لا يتجزأ من العقيدة السياسية والدينية للدولة العثمانية. وعليه فهو زعيم للجهاد ضد الكفار، مما أضاف زخما معنويا وماديا كبيرا لدولته ولسلطته على حد سواء.

من هنا فإن مصطلح "القرصنة"، ونعنى به التعبير الأول الذى يستخدمه الأوربيون: "Privateering"، الذى أطلقنا عليه تسمية "القرصنة/ الغارة" أصبح يعنى، من بين ما يعنيه، "الغزوة"، بمعنى الإغارة على ممتلكات العدو. ويعنى "الجهاد" أحيانا عندما يتعلق الأمر بمسألة الدفاع عن الإسلام ونشره، وهو مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الذى روّجه الأوربيون بوسم "القراصنة العثمانيين"، الذين سنطلق عليهم تسمية "قباطنة"، بصفة "القرصنة" بمعناها الضيق الذى يعنى السرقة واللصوصية وقطع الطريق. لكننا، من جانب آخر، ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الأوربيين الغربيين الذين يستخدمون لفظة "Privateering"، كانوا يقصدون بها مفهوم "الغزوة" أو "الجهاد" كما توصلنا إليه هنا أو كما يفهمه المسلمون عامة. بالأحرى فهم يطلقون لفظة أخرى، وهى لفظة "Raid"، على الغزوة أو الغارة مثلا، ولفظة "Spoil" على الغارة المُحمّلة بالغنائم أو الغنائم نفسها، وهو ليس المفهوم الذى نقصده بالتأكيد. وفى العموم فإنك نادرا ما تجد باحثا غربيا يستخدم لفظة "Pirate" على القباطنة

العثمانيين. بدلا من ذلك فإننا غالبا ما نقرأ تعبير "The Barbary Corsairs" مثلا، الذى يعنى "القراصنة البربريين"، أو "قراصنة الساحل البربري"، وهى تسمية خاطئة بكل الأحوال، فهم لم يكونوا برابرة، وإنما مسلمين عثمانيين كانوا، فى الغالب، مسيحيين من مناطق اليونان والبلقان التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية.

إن تعدد المصطلحات الأوربية الخاصة بالقرصنة وتنوع معانيها ودلالاتها اللغوية، وعدم وجود ما يماثلها فى اللغة العربية أو فى الموروث الإسلامى، باستثناء مفردة واحدة هى "القرصنة"، يدل على أن هذه اللفظة دخيلة على الموروث العربى الإسلامى من جانب، ومتأصلة فى الموروث الأوربى من جانب آخر. من هنا يمكننا مسك الخيوط الأولى لرد تهمة القرصنة عن النشاط البحرى للمسلمين عامة، والعثمانيين خاصة".

وبالنسبة إلى ما أشار إليه النص السابق من الاتهامات المتجنية التى يوجهها الباحثون اللغربيون فى هذا الصدد للمسلمين يمكن القارئ أن يراجع مثلا مادتى "Barbary pirates" فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا"، و"Barbaresque" فى النسخة الفرنسية من ذات الموسوعة، ولسوف يجد صورة مجاهدى البحر المسلمين سوداء قاتمة. ولكن لنفترض أن ما يقوله الباحثون الغربيون صحيح، أفليس هذا أفضل مما نحن المسلمين فيه الآن بوجه

عام من هوان وضعف وذلة وتخلف وشلل نفسى وعقلى وخلقى بحيث إننا لا نستطيع أن ننجز شيئًا يخرجنا مما نحن فيه أو يكسبنا احترام العالم؟

ولزيادة الأمر وضوحا نختم بالنص التالى، وهو نص مادة "جهاد بحرى" فى نسخة "ويكيبيديا" العربية: "الجهاد البحرى الإسلامى أو القرصنة البربرية هى العمليات التى قام بها المسلمون ضد سواحل أو سفن الدول الأوربية المعادية لها من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر فى المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط، وعلى طول سواحل المحيط الأطلسى الأوربية والأفريقية. كانت قواعد انطلاقهم معاقل منتشرة على طول سواحل شمال أفريقيا، خصوصا مدن تونس وطرابلس والمغرب وسلا وموائئ أخرى بالمغرب.

بالنظر لما تعرض له المسلمون فى الاندلس، والهجمات الأوربية على الشمال الأفريقى باحتلال البرتغال لمدينة سبتة عام ١٤١٥، واستيلاء الأسبان على المرسى الكبير عام ١٥٠٥ ومدن حجر باديس ووهران وبجاية سنة ١٥٠٨ وطرابلس الغرب فى عام ١٥٣٥ قبل أن يتنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا، فإنه من الظلم اعتبار تلك الهجمات من "أعمال القرصنة" كما أطلق عليها الأوربيون، بل كانت أعمالا قتالية ضد دول هى أصلا فى حالة حرب معها. وقد انتقلت هذه التسمية: "القرصنة" إلى بعض الكتب العربية

دونما تمييز. ومن أشهر مجاهدى البحر خير الدين بربروس، وعروج بربروس، وطورغوت رايس، وعلى باشا قلج، ومراد رايس الأكبر، ومراد رايس الأصغر".

فى ضوء هذا ينبغى أن ننظر إلى ما قاله روبنسون كروسو بطل روايتنا عن أَسْره، وهو على ظهر سفينة بريطانية، من قِبَل بعض البحارة المسلمين وتحوُّله إلى رقيق فترة من الزمن قبل أن يستطيع الهرب من سيده المغربى، الذى عامله معاملة حسنة ولم يؤذه قط.

أكل لحم البشر بين رواية روبنسون كروسو وبين الأساطير والآداب والتاريخ

من الموضوعات الهامة التى تعرضت الرواية لها أكل لحوم البشر . وهو من الجرائم الوحشية التى يتهم الغربيون بها الأفارقةَ وأمثالَهم ممن ابْتُلُوا باستعمارهم لبلادهم وسرقتهم ثرواتهم، لتشويه صورتهم والتدليل على أنهم بحاجة إلى أن يستعمروهم كى يأخذوا بأيديهم إلى مدارج الترقى . يريدون أن يشيعوا فى العالمين أنهم ذوو إنسانية ورقّة وعطف كبيرٍ، وأصحاب رسالة حضارية تجشّمهم بذل الجهد وتحمُّل التعب فى سبيل هذه الغاية النبيلة . وسوف يتبين لنا خلال الفصل الحالىّ أن ذلك السلوك ليس مقصورا على تلك الأمم بل مارسته كثير من الشعوب، وعلى رأسها الغربيون أنفسهم قديما وحديثا ، فضلا عن قيامهم بإبادة الملايين فى حروبهم العدوانية، مما يتضاءل بجواره أكل اللحم البشرى تضاؤلا شديدا . إلا أن الدعايات الغربية الاستعمارية تتجاهل ما يفعله المجرمون الكبار وتركز على الجرائم الأقل التى يجترحها غيرهم، جريا على عادة من يرى القشة التى فى عين أخيه، ويتجاهل الخشبة التى فى عينه، مما أخذه السيد المسيح فى الأناجيل على منافقى اليهود .

وقد أشار كروسو إلى ذلك الموضوع فى بدايات وصوله إلى الجزيرة المقفرة التى ساقته الأقدار إليها بعد غرق مركبه بالبحارة الذين كانوا معه عليها،

إذ كان ينظر ذات يوم رائقِ الجوّ إلى الغرب من تلك الجزيرة فرأى أرضا لم يعلم ما هى، وإن كان قَدَّرَ أنها قسم من بلاد أمريكا كما يقول، وأنها قد تكون شطوط بلاد البرابرة بين أسبانيا والبرازيل من أكلة لحوم البشر، الذين يفترسون كل من وقع فى أيديهم من الآدميين (ص١٠٧) .

كما أشار إلى ذلك بعد قليل إِبَّان حديثه عن الأخطار التى سوف تحدق به لو فكر فى مغادرة تلك الجزيرة التى رمته الأقدار على شاطئها ليبقى هناك سنوات محبوسا لا يقدر على أن يَرِيمها، ثم لما فكر فى تركها توافدت على خياله المخاطر التى يمكن أن تحيق به إنْ وضع رغبته موضع التنفيذ، ومنها وقوعه فى يد متوحشى شواطئ الكاريبى الذين يأكلون لحوم البشر، والذين قتلوا وأكلوا من الأوربيين الكثير حتى لقد كانوا يلتهمون منهم فى المرة الواحدة عشرة وعشرين حسب كلامه (ص١٢٣) .

كما صورت الرواية مشهدا لوليمة بشرية أقامها بعض المتوحشين على شاطئ الجزيرة وشاهدها كروسو، وكانت شيئًا مفزعا وشاذا (ص٢٠٠-٢٠٣) . وهذا هو النص، وهو منقول من ترجمة البستانى: "رأيتُ ذات يوم صباحًا خمسة قوارب بالقرب من الشاطئ فى الجهة التى كنت مقيما فيها، وكان القوم الذين أَتَوْا فيها قد خرجوا جميعا إلى البر، ولم أكن أراهم حينئذ، فدهشت من ذلك. وكانت الكثرة تضعف أملى فى النجاح لأنى، إذ رأيت أن

القوارب كانت كثيرة، وكنت أعلم أن البرابرة يأتون دائما أربعةً أو خمسةً وأحيانا أكثر فى كل قارب، حرت فى أمرى، ولم أعلم كيف أقدر أن أفتك بعشرين أو ثلاثين رجلا دفعة واحدة وأنا وحدى. إلا أنى تهيأت للنضال كما فعلتُ قبلا، وكنت مستعدا لأن أقع بهم إذا لزم. وبعد أن انتظرت مدة، وكنت أتنصت لعلى أسمع صوتهم، حتى مللت الانتظار وضعتُ أخيرا بارودتين بجانب سُلَّمِى، وصعدت إلى أعلى التل، ووقفت هناك فى ظل رأسه لئلا يَرَوْنِى، فرأيت هناك بواسطة نظارتى أنهم لم يكونوا أقل من ثلاثين بربريا وأنهم كانوا قد أشعلوا نارا وشَوَوْا لحما، غير أنى لم أعلم كيف شَوَوْهُ ولا لحم أى شىء هو. وكانوا جميعا يرقصون حول تلك النار بحركات وإشارات غريبة حسب عادتهم.

ثم رأيتهم، بواسطة نظارتى، يجرّون من القوارب رجلين منكودَىِ الحظ ويأتون بهما إلى البر لأجل الذبح، فتقدم أحدهم إلى واحد منهما وضربه على رأسه بنبوت أو سيف من خشب حسب عادتهم، فسقط لوقته إلى الأرض، فأخذ اثنان أو ثلاثة منهم يشتغلان فى فَزْره وتقطيعه. وأما الرجل الآخر فكان واقفا وحده جانبا إلى أن ينتهوا من رفيقه ويأتى دوره. فلما رأى هذا التعيس أن له حرية قليلة، وكان غير مقيد، هيجت الطبيعة فى قلبه آمال الحياة، فهرب منهم وأخذ يركض بسرعة لا تصدَّق على الرمل سائرا باستقامة نحوى، أى نحو الجهة من الجزيرة التى كان فيها منزلى. ويجب أن أقر بأنى، لما رأيته يركض نحوى

خفت جدا، وعلى الخصوص لما رأيت، كما ظننت متوهما، أن جميع أولئك البرابرة كانوا يَجِدّون فى طلبه. فأخذت حينئذ أنتظر تمام قسم من حُلْمِى، وهو أنه يهرب لا محالة إلى غابتى. إلا أنى لم أقدر أن أعتمد على القسم الآخر من ذلك الحلم، وهو أن البرابرة لا يتبعونه إلى هناك. غير أنى مع ذلك ثَبَتُّ فى مركزى، وأخذ عزمى يقوى عندما رأيت أن الذين كانوا يطاردونه لم يكونوا أكثر من ثلاثة رجال. وزدتُ جراءةً عندما وجدت أنه سبقهم كثيرا فى الركض، وصارت المسافة بينه وبينهم بعيدة حتى ظهر لى أنه، إذا بقى كذلك نصف ساعة، ينجو منهم جميعا ويأمن غائلتهم.

وكان النهر الصغير الذى ذكرته مرارا فى أول قصتى، وقد أخرجت منه وَسْقِى إلى البر، يفصل بينهم وبين قلعتى، فظهر لى أنه يجب على ذلك المسكين أن يعبره سابحا بسرعة، وإلا وقع فى أيديهم. فلما وصل الأسير الهارب إلى حافَة ذلك النهر ألقى نفسه فيه مع أن المد كان قويا، وعبره سابحا بسرعة إلى الجانب الآخر منه، وأخذ يركض بكل عزم وسرعة. ولكن لما وصل الثلاثة الرجال الذين كانوا يطلبونه إلى النهر رأيت أن اثنين منهم يحسنان السباحة، وأما الثالث فكان لا يحسن ذلك، فوقف على الحافَة ينظر إلى رفيقيه، ثم بعد قليل رجع على أعقابه إلى الوراء، وكان ذلك من حسن حظه كما سيأتى بيانه.

وقد لاحظت أن ذَينِكَ الرجلين صَرَفا فى قطع النهر ضِعْف الوقت الذى صرفه ذلك الهارب، فظهر لى حينئذ أن ذلك الوقت هو الوقت المناسب لاقتناء خادم أو رفيق أو مساعد، وأنى مندوب من العناية الإلهية أن أخلّص حياة ذلك الرجل المسكين. فنزلت حالا على السلم مهرولا، وتناولت بارودتيَّ، وكنت قد وضعتهما بجانب السلم كما ذكرت، ثم صعدت عليه بكل عجلة أيضا، وعدوت إلى رأس التل، ثم جاوزته إلى جهة البحر. وإذ كانت المسافة قصيرة ومنحدرة صرت حالا بين التابعَيْن والمتبوع، فأخذت أنادى ذلك الهارب بأعلى صوتى، فالتفت إلى ورائه. وربما كان فى أول الأمر خائفا منى بقدر خوفه منهما، ولكنى أشرت إليه بيدى أن يرجع، وأخذت أتقدم فى غضون ذلك شيئًا فشيئًا نحو ذينك الرجلين اللذين كانا يطلبانه. ثم هجمت بغتة على السابق منهما وضربته بقندق بارودتى. ولم أرد أن أطلق البارودة لأنى لم أشأ أن يسمع الآخرون صوتها، وإن كان لا يمكن أن يُسْمَع صوتها بسهولة لبعد المسافة حتى إنه إذا سُمِع صوتها فإذ كان لا يمكنهم أن يَرَوْا دخانها لم يكن ممكنا لهم أن يعرفوا بسهولةٍ ماذا كان ذلك.

فلما طرحتُ الأول مصروعا إلى الأرض وقف رفيقه الذى كان يتبعه كأنه كان خائفا، فأخذت أتقدم مسرعا نحوه. فلما صرت على مسافة قريبة منه رأيت جيدا أنه كان معه قوس وسهم كان يهيئهما ليرمينى بهما، فاضطرنى

الأمر حينئذ إلى أن رميته بالرصاص، فأصبته، فوقع حالا على الأرض ميتا . وأما البربرى الهارب فلما رأى عَدُوَّيه قد وقعا إلى الأرض وظن أنهما قد ماتا خاف جدا من نار بارودتى وصوتها ووقف جامدا كأنه حجر، فلم يتقدم ولا تأخر، إلا أنه كان يبان كأن الهرب كان أَحَبَّ إليه من الإتيان إلىَّ. فناديته ثانية وأشرت إليه أن يتقدم نحوى، ففهم ذلك بسهولة، وتقدم قليلا ثم وقف. وهكذا كان كلما تقدم بعض خطوات يقف مرتجفا كأنه قد أُخذ أسيرا وكان مُزْمَعًا أن يُقْتَل كما قُتِل عدواه. فأشرت إليه أيضا أن يأتى إلىَّ، وعملت له جميع ما جال فى خاطرى من علامات التشجيع، فكان يتقدم نحوى شيئًا فشيئًا . وكان كلما مشى عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة يركع على الأرض علامة تأدية الشكر لى على إنقاذى إياه. فَبَشِشْتُ فى وجهه وتبسمت له وأشرت إليه أن يتقدم أيضا نحوى ولا يخاف أذى. وأخيرا دنا منى وخر ساجدا على الأرض وقبَّلها، ثم وضع رأسه على الأرض وأمسك رجلى ووضعها على رأسه. والظاهر أن مراده فى ذلك إنما كان أن يبين لى أنه قد حلف بأن يكون لى عبدا إلى الأبد . . . ".

وفى موضع آخر من الرواية (ص٢٠٥– ٢٠٦) يطالعنا منظر بقايا تلك الوليمة البشرية على الشاطئ. يقول كروسو: "وحملتُ أنا بارودتين، وذهبنا (أى كروسو وجمعة خادمه الزنجى) معا قاصدَيْن الموضع الذى كان أولئك

البرابرة فيه لأنى كنت راغبا فى أن أَطَّلِع على أتم مرام على أحوالهم. فلما وصلنا إلى الموضع برد دمى فى عروقى، وغاص قلبى فى جوفى من كراهة المنظر. وبالحقيقة كان المنظر عندى فظيعا، وأما جمعة فلم يبالِ به. فإن المكان كان مغطى بعظام الناس، والأرض مصبوغة بدمهم. وكانت قطع كبيرة من اللحم مطروحة هنا وهناك قد أُكِل جانب منها، وشُوِيَتْ قليلا بالنار. وبالاختصار كان هناك كل علامات وليمة الظَّفَر التى كانوا قد تنعَّموا بها بعد الغلبة على أعدائهم. فرأيت ثلاث جماجم وخمس أَيدٍ وعظام ثلاثِ أو أربعِ سيقانٍ وأقدامٍ وأجزاء أُخَرَ كثيرة من الجسم. وأخبرنى جمعة بواسطة الإشارات أنهم كانوا قد أَتَوْا إلى هناك بأربعة من الأسرى ليعملوا وليمة، فأكلوا ثلاثة منهم وأنه هو الرابع، وبأنه حدثت حرب بينهم وبين ملكٍ يجاروهم، فأخذوا كثيرين من رعاياه أسرى. وكان بيان أن جمعة هو من جملة رعايا ذلك الملك. فأخذت الفئة الظافرة كل أولئك الأسرى إلى أماكن مختلفة لكى يأكلوهم كما فعل أولئك الأشقياء بالذين أَتَوْا بهم إلى هذه الجزيرة.

ثم أمرتُ جمعة أن يجمع معا الجماجم والعظام واللحم وكل ما بَقِيَ من الوليمة كومةً واحدةً ويشعل عليها نارا كبيرة ويحرقها جميعا حتى تصير رمادا. ووجدت أن جمعة كان يشتهى أن يأكل بعضا من اللحم لأنه كان لم يزل أَكَّال لحم الناس فى طبيعته. إلا أنى أظهرت كراهة عظيمة لذلك العمل، فلم يعد يتجاسر

أن يُظْهِر ما انطوت عليه طبيعته من هذا القبيل، وعلى الخصوص لأنى كنت أفهمته بواسطة ما أنى أقتله إذا بدا منه شىء من ذلك" .

والعجيب أن البربرى المسكين الذى نجا على يد بطل الرواية من التهام أمثاله له ما إن مضى يوم وخرج هو والبطل من بيت الأخير ومرا بالمكان الذى دفن هو نفسه فيه اثنين ممن كانا سيأكلانه لولا أن قتلهما البطل حتى شرع يومئ للبطل أن يستخرجا الجثتين ويأكلاهما ، إلا أن كروسو تظاهر بأنه سوف يتقايأ من بشاعة الأمر وأشار إليه أن يطرح هذه الفكرة عن رأسه، فانصاع له (ص٢٠٥) . فما معنى هذا ؟ معناه أن أولئك القوم لم يكونوا يَرَوْن فى أكل بنى جنسهم ما يعاب أو يستحرم. وهم، وإن كانوا يكرهون أن يأكلهم أحد ، لا يجدون غضاضة فى أكل الآخرين ولا يتورعون عنه، بل يرونه شيئا طبيعيا تمام الطبيعية .

ثم إن كروسو قد اجتهد فى أن يُنْسِىَ جمعةَ عادةَ أكلِ اللحم البشرى، فسلق وشوى لحم الجداء وأطعمه منه حتى صار يتذوقه ويلذّه، وإن كره تمليحه، وهو ما حاول كروسو أن يغيره فيه، لكنه فشل، فتقبل الأمر إذ عرف أن مرجع ذلك هو اختلاف الذوق بين شخص وآخر (ص٢١١– ٢١٢) . ومع هذا أخذه جمعة ذات يوم، بعدما بدأ يتحضر وينسى ما كان من همجيته وتوحشه، إلى المكان الذى كان قد أتى إليه من شاطئ الجزيرة هو وقومه

ليلتهموا وليمتهم من لحوم أعدائهم الذين انتصروا عليهم وأسروهم، وكانت الوليمة مكونة من عشرين رجلا وامرأتين وولد أكلوهم عن آخرهم، وإن عجز عن استعمال العدد "عشرين"، فأحضر عشرين حصاة ورصها أمام سيده على الأرض وطلب منه أن يقوم بعدها (ص٢١٣- ٢١٤) .

وفى موقف آخر فى الرواية يسأل كروسو جمعة عن مدى اشتياقه إلى بلاده وعشيرته، فقال إنه يكاد يطير من الاشتياق إليهم، ويحب أن يعود إلى هناك إذا ما وافق كروسو على مصاحبته. فعندئذ سأله كروسو: وهل ستعود إلى أكل اللحوم البشرية؟ فأكد له أنْ: لا، وأنه سوف يستعيض بلحم الحيوان واللبن والخبز عن هذا . فحذره من أنهم سوف يقتلونه فى هذه الحالة. فكان جوابه أنهم لن يقتلوه لأنهم يحبون أن يتعلموا، وقد تعلموا الكثير من جماعة الأوربيين الذين ألقى بهم المحيط على شواطئ بلاده. فقال له: لكنى إذا ذهبت معك فسوف يأكلنى قومك. فرد جمعة بأنه لن يدعهم يأكلونه لأنه سوف ينبئهم بما له من جمائل فى عنقه. وعاد فأخبره بما كان قد ذكره قبلا من أنهم يكرمون تلك الجماعة الأوربية ولا يفكرون فى إيقاع الأذى بأحد من أفرادها (ص٢١٨) .

وفى هذا المشهد، كما فى معظم الرواية، إبراز حاد لما يقوم الأوربى به من تحضير للأمم المتخلفة وانتشالها من وضع الهمجية الذى ألفاها عليه إلى أفق

الإنسانية العالى. وفى هذا طبعا مغالاة مقيتة يكذّبها التاريخ أيما تكذيب، فالأوربيون هم سادة اللصوصية الدولية: سرقوا ثروات الشعوب ونكّلوا بها وقتلوا منها الملايين وقَضَوْا على بعضها فمسحوهم من فوق الخريطة مسحا، وحَرَموا الشعوبَ التى لم يستطيعوا إفناءها الاستمتاعَ بخيرات بلادها، ووضعوا العراقيل فى سبيل التحضر الحقيقى أمامها بحيث إنها، كلما فكرت فى التقدم، أُلْفَتِ السبيل وَعْرًا لا يطاق، ثم استداروا من الناحية الأخرى يتهمون تلك الشعوب بعدم قدرتها على التساوى مع الأوربيين فى أى شىء لأنهم من طينة حقيرة تعجز عن تحقيق ذلك الأمل المستحيل.

وقد خصصت النسخة العربية من موسوعة "ويكبيديا" مادة عن " أكل لحوم البشر". وهأنذا أوردها بشىء من الاختصار: يطلق على ظاهرة أكل لحوم البشر فى الإنجليزية: cannibalism، وترجمتها "أكل لحم الجنس ذاته". وهى مشتقة من اسم قبائل "كاريب" الهندية التى تحدث عنها المستكشف كريستوفر كولومبوس[1].

[1] وفى مادة "cannibalisme" من موسوعة "إنكارتا" الفرنسية (ط٢٠٠٩م) أن التسمية قد أخذت من "caníbal" الأسبانية المحرفة بدورها عن "caribal"، ومعناها فى لغة الكاريبيين "الرجل القاسى الشرس"، وهو اسم كان شائعا بين هنود الأنتيل لدى وصول كرستوفر كولومبس: " Le terme «cannibale», et son dérivé «cannibalisme» formé au XVIII[e] siècle, proviennent de l'espagnol caníbal, issu lui-même d'une déformation de caribal, qui signifie dans la langue des Caraïbes «homme cruel et féroce», nom dont

و قد مورس أكل لحم البشر عبر التاريخ أثناء المجاعات وداخل المدن المحاصرة، فضلا عن أن بعض القبائل البدائية قد مارسته كنوع من المبالغة فى إيذاء العدو، إذ يأكل المنتصر من لحم المهزوم. وهناك أيضا اعتقاد بعض الناس أن أكل لحم الأعداء ينقل قدراتهم إليهم. وفى بعض الحالات تشكل هذه الممارسة أحد الطقوس الدينية. وقد يكون سببها مرضا سلوكيا جنسيا .

وقد وجد الأثريون عظاما بشرية فى أوعية طهى عمرها نصف مليون عام فى الصين. ومن أشهر القبائل التى اشتهرت بهذا النشاط قبيلة أناسازى فى أمريكا الشمالية. ويقال إن جيمس كوك، الذى قتله سكان هاواي، قد تم التهامه. وقد يكون أكل لحم البشر نوعا من التكريم للميت مثلما تفعل بعض القبائل فى نيوزيلندا، فهى تمجد ذكرى الميت بأن تأكل مخه. فبعد أن يموت شخص له مكانة عندهم تجتمع القبيلة حول جثته وينشدون بعض الأناشيد الدينية، ثم يستخرج ساحر القبيلة مخ الميت ويوزعه بالتساوى بين المشيعين ليأكلوا منه.

وخلال الحرب العالمية الثانية تواترت الأخبار عن أكل الجنود اليابانيين بعضهم بعضا وأكل أعدائهم أثناء محاصرة الأمريكيين لهم وقطعهم المؤونة عنهم فى إحدى الجزر. كما اضطر الناجون من حادث الرحلة ٥٧١ لسلاح الجو

---

ont été baptisés les Indiens des Antilles à l’arrivée de Christophe Colomb".

الأوروجوياني إلى أكل لحم المتوفَّيْن من ضحايا الحادث حين انعزلوا لمدة ٧٢ يوما فى جبال الأنديز على ارتفاع ٣٦٠٠ متر.

واشتهر الكثير من السفاحين بأكل لحوم البشر، مثل أرمين مايِفس فنى الكمبيوتر الألمانى الذى اعترف بقتل رجل وأَكْله فى أوائل عام ٢٠٠١م، إذ التقى به بعد أن أعلن على مواقع الإنترنت أنه يطلب "شابا قوى البنية ما بين الثامنة عشر والثلاثين للذبح". ثم قال مايِفس فيما بعد إنه قتله برضاه. غير أن ما زعمه هذا السفاح من ذلك "التراضي" لم يهدئ من حالة الاشمئزاز التى أصابت الشعب الألماني[١].

---

[1] وهذه قصة ذلك السفاح بشيء من التفصيل، وهى منقولة من الرابط التـــالى: http://www.kabbos.com/index.php?darck=19: "جريمة عجيبة حيرت العالم لا لبشاعتها فحسب، ولكن لغرابتها أيضا لكون الضحية في هذه الجريمة أكثر جنونا ووحشية من القاتل نفسه حتى إن المحققين احتاروا: أيهما المذنب في هذه الجريمة البشعة؟ الضحية أم القاتل؟

بطل الجريمة هو الألماني أرمين ميفز Armin Meiwes، وهو مولود فى ١٩٦١م، ويعمل فنيا لأجهزة الكمبيوتر. وقام ذات يوم بوضع الإعلان الغريب التالي على الإنترنت: "مطلوب شخص قوي البنية بين ١٨- ٣٠ من العمر لكي يُذْبَح ويُلْتَهَم". والغريب أن أرمين وجد متطوعا لهذا الطلب، وهو مهندس ألماني يدعى: بيرند براندز، ويبلغ من العمر ٤٣ عاما. وهو شخص غريب الاطوار وشاذ جنسيا. وقد التقى الاثنان في مارس ٢٠٠١م، وقام أرمين باصطحاب براندز إلى بيته وأراه الغرفة التي سيقوم بقتله وتقطيعه فيها، ثم قام براندز

بابتلاع كمية كبيرة من الحبوب المهدّئة والمسكّنة، وقام أرمين بقتله والتهام أجزاء من بدنه، وصور الجريمة كلها على شريط مدته ساعتان. . .

ألقي القبض على أرمين في ديسمبر ٢٠٠٢م بعد أن قام بنشر إعلان آخر على الإنترنت (عندما قارب لحم براندز على النفاد) يطلب فيها ضحية جديدة، فقام المحققون بملاحقته وفتشوا بيته فوجدوا أجزاء من بدن ضحيته السابقة براندز. لكن المحكمة وجدت مشكلة في إدانة أرمين لأنه لم تكن هناك مادة قانونية في ألمانيا تدين أكل لحوم البشر. وعليه فلا توجد جريمة قتل على أساس أن الضحية هو من تطوع لكي يقتل. كما أنه شارك في جزء من عملية القتل والالتهام (استفاد أرمين من وجود شريط الجريمة ليثبت أن عملية القتل تمت بالتراضي وبطلب من الضحية نفسه). لكن الادعاء وجه إلى أرمين تهمة القتل من أجل اللذة الجنسية وانتهاك حرمة الأموات، وحكم عليه بالسجن ثمانية سنوات ونصفا.

وفي عام ٢٠٠٦ أعيدت محاكمة أرمين من جديد بسبب بشاعة جريمته والهلع الذي سببه للرأي العام، ولأن الضحية براندز (حسب قول الادعاء) كان يعاني من اضطرابات جنسية وعقلية، وكان مدمنا على المشروبات الكحولية والمخدرات، فاستغل أرمين اضطرابات الضحية لاستدراجه وقتله، فوجهت إلى أرمين ميفز تهمة القتل وأدين بها، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (عقوبة الإعدام ملغاة في المانيا). . .

وبالإضافة الى براندز هناك حوالي ٢٠٠ شخص راسلوا أرمين جوابا على إعلانه، وإن كان من الممكن أن يكون بعضهم قد رد من باب المزاح. لكن أرمين أكد في المحكمة أنه التقى بخمسة منهم واصطحبهم الى بيته ليذبحهم ويلتهمهم، إلا أنهم تراجعوا في آخر لحظة. وهو من الأمور التي ذكرها أرمين للدفاع عن نفسه، إذ قال: إن أحد المتطوعين طلب مني أن أعلقه في أحد المجازر ثم أسلخه كالخنزير. وقد تواعدنا إلى أحد المجازر القريبة بعد انتهاء

العمل، وقمت بتعليقه على القلاب، لكنه تراجع في آخر لحظة، فتركته بعد أن تسكعنا قليلا واحتسينا عدة أقداح من البيرة وتناولنا البيتزا .

وفي الحقيقة كان أرمين ميفز مختلا نفسيا، إذ اعترف أن تفضيل والده لأخيه الاصغر سبب له عقدة نفسية، فكان يتخيل منذ الصغر أنه يقوم بقتل أخيه أو زملائه في المدرسة والتهام أجسادهم. كما قال إن أفلام الرعب التي شاهدها في صغره قد حفزت لديه الرغبة في قتل الناس والتهامهم. وببساطة قال أرمين في المحكمة إنه كانت لديه تخيلات حَوَّلها الى واقع. وهو ينوي تأليف كتاب حول تجربته في أكل لحوم البشر. كما يعتقد بأن هناك قرابة ٨٠٠ رجل من أكلة لحوم البشر في ألمانيا، ويصر على وجود الآلاف من الناس الذين يتمَنَّوْن أن يؤكلوا، ولكن الحظ لا يحالفهم لأنهم لا يجدون أحدا يأكلهم (ليسوا من النوعية المناسبة حسب قوله)، إذ قال إن خمسة أشخاص استجابوا للإعلان الذي نشره على الإنترنت، ولكنه لم يجد فيهم الصفات التي يبحث عنها .

وبعد قضية أرمين ظهرت العشرات من المواقع على الإنترنت لأكلة لحوم البشر تبحث عن أشخاص للأكل. وقد علق عليها أرمين قائلا: لا يمكنهم القيام بالامر بنفس الجودة التي قمت بها !" .

وفى جريدة "المصريون" الضوئية قرأت، يوم الجمعة ٧/ ١١/ ٢٠١٤م، تقريرا بعنوان "آكل لحوم البشر يظهر في بريطانيا" هذا نصه: "ذكرت صحيفة "ميترو" البريطانية أنه تم العثور على أحد آكلي لحوم البشر في غرفة أحد الفنادق ببريطانيا . وقامت الشرطة البريطانية باقتحام غرفة الفندق بجنوب ويلز، وقامت بقتل الرجل المشتبه به، وهو ماثيو ويليامز البالغ من العمر ٣٤ عاما، بعد مشاهدته وهو يأكل مقلة عين امرأة، وكذلك أجزاء من وجهها . وأوضحت تقارير الشرطة فيما بعد أن المرأة الضحية كانت تبلغ من العمر ٢٢ عاما فقط حيث هاجمها القاتل في إحدى القرى التي تعيش بها، ثم أخذها إلى غرفة الفندق وقتلها وتناول بعض أعضائها، وذلك وفقا لما قاله الشرطي جيل إدواردز" . والخبر منشور فى

ومن السفاحين أيضا ألبرت فيش، الذى اغتصب وقتل وأكل عددا من الأطفال خلال العشرينات، قائلا إنه كان يشعر بلذة جنسية هائلة نتيجة ذلك. وهناك السفاح الروسى أندريه تشيكاتيلو، الذى قتل ٥٣ شخصا على الأقل بين عامى ١٩٧٨ و١٩٩٠م.

كما اشتهرت قضية إسى ساجاوا آكل لحوم البشر اليابانى الذى اشتهر بقتل طالبة السوربون الدنماركية رينيه هارتيفيلت، والذى عَدَّه الأطباء "مجنونا"، ومن ثم لا يمكن إخضاعه للمحاكمة، فأعيد إلى اليابان حيث مكث فى مصح عقلى لخمسة عشر شهرا، خرج بعدها . وهو يعيش حتى اليوم طليقا فى اليابان.

وقد سُجِّل كثير من حالات أكل لحوم البشر بحكم الضرورة خلال الحرب العالمية الثانية. فخلال ٨٧٢ يوما من حصار لينينجراد بدأت تظهر تقارير عن أكل لحوم البشر فى شتاء ١٩٤١-١٩٤٢م بعد أن أُكِلَتْ كل الطيور والفئران والحيوانات الأليفة من قِبَل المحاصَرين. وقد شكلت شرطة لينينجراد وحدة خاصة لمكافحة أكل لحوم البشر. وفى وقت لاحق، فى فبراير ١٩٤٣، تم نقل ما يقرب من ١٠٠.٠٠٠ من الجنود الالمان (أسرى الحرب) إلى معسكرات

جريدة "Metro" قبل ذلك بيوم تحت عنوان "'Cannibal killer' found 'eating woman's eyeball and face'".

أسرى الحرب فى سيبيريا أو آسيا الوسطى حيث حصلت مجاعة لخاطفيهم السوفييت الذين قاموا بأكل لحوم البشر. وهناك روايات من بعض الناس بالعثور على أظافر إنسان فى النقانق، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن تلك المواد الغذائية كانت تتألف من اللحم البشري.

ويشير كثير من التقارير والشهادات إلى أن الجنود اليابانيين فى أجزاء كثيرة من منطقة شرق آسيا الكبرى ارتكبوا أكل لحوم البشر ضد أسرى الحلفاء فى الحرب. وشهد لانس نايك حاتم على، الذى صار فى وقت لاحق من مواطنى باكستان، بأن القوات اليابانية فى غينيا الجديدة بدأت فى اختيار السجناء، وكانت تقتل كل يوم أحدهم ويأكله الجنود، وأن حوالى ١٠٠ سجين قد تم تناول لحومهم بهذه الطريقة. وعادت القوات اليابانية مرة أخرى لاختيار من تريد تناول لحومهم من السجناء، ثم نُقِل الذين اختيروا إلى كوخ حيث تم تقطيع لحومهم وهم على قيد الحياة. وقد وقعت آخر الحالات الموثقة فى جزيرة Chichijima باليابان فى فبراير ١٩٤٥م، حيث قتل وأكل الجنود اليابانيون خمسة من أفراد سلاح الجو الأميركى. وتم التحقيق فى هذه القضية عام ١٩٤٧م فى محاكمة جرائم الحرب، وتم شنق من ثبتت إدانتهم.

وفى رواية "روبنسون كروسو" نجد البطل يقول، عن بحارة أوربيين يحتمل أن يكون قد ضاع بهم مركبهم فى المحيط وأشرفوا على الموت جوعا، إنهم سيكونون فى حالة يفكرون فى أن يأكل بعضهم بعضا (ص١٨٥) .

ولكن، فى مادة (cannibalism) بالنسخة الإنجليزية من موسوعة "ويكيبيديا"، نقرأ أن "الحكايات التى تُرْوَى عن أكل لحوم البشر قد اسْتُخْدِمَتْ كأداة إمبراطورية لتسويغ إخضاع الشعوب التى ينظر إليها على أنها شعوب بدائية" . وهذا هو النص الإنجليزى لهذا الكلام:

"Historically, allegations of cannibalism were used by the colonial powers as a tool of empire to justify the subjugation of what were seen as primitive peoples".

وفى مادة "cannibalisme" أيضا بموسوعة "إنكارتا" الفرنسية (ط٢٠٠٩م) نجد من علماء الغرب ومفكريه أنفسهم من يشكك فى صحة الكلام المتناقَل عن هذا الموضوع. وفى نفس المادة كذلك بـ"الموسوعة البريطانية" أن تلك العادة ترجع إلى أوائل التاريخ الإنسانى، وأن شعوب معظم القارات قد زاولته: " A widespread custom going back into early human history, cannibalism has been found among peoples on most continents" .

وها قد اتضح لنا أن من الغربيين أيضا من يمارسون أكل لحوم البشر . قد يقال إن الأمر هنا لا يمثل ظاهرة ولا أسلوب حياة يتبعه شعب أو جماعة

بكاملها من الشعوب الغربية. والرد على ذلك أن الغربيين "المتحضرين" صنعوا ويصنعون ما يُعَدّ بجانبه أكل لحوم البشر حسنة من الحسنات. ألم يستعمروا الشعوب وينهبوا ثرواتها وينكلوا بكل حُرٍّ أَبِيٍّ يرفض الذل والهوان ويعلقوا على أعواد المشانق ويقتلوا فى أقبية السجون من يرفضون إجرامهم وعُتُوّهم واستكبارهم ولصوصيتهم؟ ألم يقضوا على المسلمين فى الأندلس بحيث لم يعد فيها من يقول كلمة التوحيد بعدما عاش المسلمون والنصارى واليهود على الحلوة والمرة قرونا ثمانية دون أن يفكر المسلمون حكام البلاد أوانئذ فى التنكيل بيهودى أو نصرانى أو يفكروا فى تحويله إلى ديانتهم، فضلا عن التخطيط للقضاء على كل دين يخالف دينهم؟ ألم يدمروا شعوبا كاملة كشعب الهنود الحمر؟ ألم ينشروا الحشيش والأفيون بين الصينيين حتى يظلوا فى غيبوبة وبلادة لا يفيقون لما ينزلونه بهم من تعاسة وتنكيل أبدا؟ ألم يقتلعوا الفلسطينيين من بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم لآلاف السنين ويوطنوا بدلا منهم اليهود، الذين لموا أشتاتهم من جميع أرجاء العالم ممن ليس لهم فى فلسطين ناقة ولا جمل؟ ألم يدكوا المدن والقرى على رؤوس المسالمين الآمنين فى كل بلاد الله؟ ألم يدمروا أفغانستان والعراق أمام أعيننا جهارا نهارا؟ ألا يضعون أيديهم فى يد كل سفاح من حكام العالم الثالث ويساعدونه فى قتل الأحرار من شعبه والتنكيل بهم

وإنزال أبشع ألوان الظلم والسحق والهرس والدهس بهم كى يظل مدينا لهم بالولاء ويسكت على جرائمهم فى حق الشعب والوطن اللذين يحكمهما ؟

وقد قام بهذه المقارنة قبلا بين أكل لحم البشر وتنكيل الغربيين بالأمم المغلوبة على أمرها المؤلف الفرنسى ميشل مونتينى (١٥٣٣- ١٥٩٢م) . جاء بالمادة الخاصة به فى موسوعة "المعرفة" على المشباك: "أوحى إليه الهنود (أى الهنود الحمر) الذين رآهم فى روان بأن يقرأ تقارير الرحالة. ومن هذه الروايات كتب مقالة "عن أكلة لحوم البشر" . وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء. "لست أجد فى هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئًا همجيا ولا وحشيا إلا إذا سمى الناس ما لم يألفوه: همجية. وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاء لا يمرضون إلا نادرا، سعداء دائما تقريبا، عائشين فى سلام وطمأنينة دون قوانين. وامتدح فن الأراتكة وطرق الأنكا . وأجرى على لسان هنود روان تنديدا بثراء أوربا وفقرها . لقد أدركوا أن بيننا رجالا أُتخموا بكل أنواع السلع فى حين يتضور غيرهم جوعا، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا الظلم ولم يأخذوا بتلابيب الآخرين. وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحى بلادهم، واتهم هؤلاء قائلا إن المسيحيين المزعومين جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقة للعلم طيّبة بطبيعتها . ونسى مونتينى لطفه لحظةً فتفجر فى غضبة مُضَرِيَّةٍ للحق: "ما أكثر المدن العامرة التى نُهِبَتْ وسُوِّيَتْ بالتراب! وما أكثر الأُمَم التى دُمِّرَتْ أو أقفرت من أهلها ! وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين ومن جميع المراكز والأعمار قُتِلوا ونُهِبوا وأُعْمِل فيهم السيف، وأغنى

بقاع الأرض وأجملها وأفصلها قُلِبَتْ ظهرا على عقب وخُرِّبَتْ وشُوِّهَتْ من أجل تجارة اللؤلؤ والفلفل! إيه أيتها الانتصارات الآلية، ويا أيها الغزو الوضيع!" .

بل إن روبنسون كروسو ذاته، بعدما فكر أن يقتل كل أكلة لحوم البشر ممن يفدون إلى شاطئ الجزيرة ويقومون بذبح أسراهم والتهامهم وقضى فى تقليب الموضوع والتخطيط له عدة أسابيع، عاد فنظر فى أمر هؤلاء الناس بعين جديدة، فرأى أنهم معذورون لجهلهم وعدم وجود من يرشدهم إلى الصواب ويفهمهم أن ما يفعلونه تصرف وحشى. كما أنهم، حسبما تنبه، لم يتعرضوا له بأى أذى، بل إنهم لم يكونوا يعرفون بوجوده على الجزيرة أصلا. وعلى هذا فبدلا من التعرض لهم بالأذى، وبخاصة أنه لا يضمن أن تكون النتيجة النهائية فى مصلحته حتى لو قتل منهم أعدادا وفيرة، ينبغى أن يكون همه هو الابتعاد عن طريقهم والامتناع عن عمل أى شىء يمكن أن يُشْعِرهم بوجوده على الجزيرة. ليس ذلك فقط، بل إنه حين قارن بينهم وبين الأسبان، الذين أَفْنَوُا الملايين من سكان أمريكا الأصليين وفاحت رائحة توحشهم فى أوربا كلها بما فيها بلادهم ذاتها[1]، رأى أنهم بالنسبة إليهم أبرياء جدا رغم وثنيتهم وهمجيتهم. وكانت النتيجة أنه عدل عن خطته التى كان ينوى تنفيذها ضدهم.

[1] ليس الأسبان وحدهم هم الذين فعلوا ذلك، إذ لم يكن الأنجلوساكسون مثلا أقل وحشية وإجراما منهم. لكن المؤلف ينتهز الفرصة ليشوه أعداء بلاده أوانذاك، متظاهرا بأن الإنجليز هم حماة العدل والرحمة والإنسانية.

لقد استبان له أنهم لم يكونوا يدركون أن ذلك إثم أو حرام، بل كانوا يأتونه على أنه أمر طبيعى جدا كما نفعل نحن حين نقتل ثورا أو نعجة لنأكلها. ثم ماذا يكون ذلك إزاء ما تفعله الشعوب المتحضرة فى كثير من الحالات حين تقتل أعداءها بأعداد وفيرة حتى بعد استسلامهم وإلقائهم السلاح؟ (ص١٧٠- ١٧٣. وانظر أيضا ص١٩٦، ١٩٨- ١٩٩، ٢١٤. ويجد القارئ نفس هذه الأفكار تقريبا فى ص٢٢٤- ٢٢٥)[1]. إلا أنه لما رأى أن أحد المأكولين هذه المرة رجل أبيض تغير موقفه، فأطلق النار عليهم، وأمر جمعة أن يحذو حذوه حتى قتّلاهم كلّهم تقريبا، وكانوا أكثر من عشرين، وأنقذا الرجل الأسبانيولى (ص٢٢٧- ٢٣٠).

ويقابل القارئ على المشباك حكايات عن أكل لحوم البشر. وهذه بعضها مع شىء من التصرف فى الصياغة[2]: بدأت قصة رودى إيوجين فى ٢٦ مايو ٢٠١٢م عندما توقفت سيارته على جانب الطريق بمدينة ميامى ليخرج منها ويبدأ فى السير تحت أشعة الشمس الحارقة بولاية فلوريدا الأميركية، التى يبدو أنها أثرت فيه بشكل كبير، ويبدأ فى التصرف بغرابة، إذ خلع كل ملابسه

---

[1] وإن كان قد عاد فى قراره حين وقع بصره على بقايا الجثث الآدمية التى التهموها على شاطئ الجزيرة، فعزم على أن يقتلهم. لكنه نَفَرَ من فكرة تحوله إلى قتّال يُفْنِى كل من يراه منهم مثلما يأكلون هم كل من يقع فى أيديهم من الأعداء (ص١٨١- ١٨٣). وسوف يضطر بعد ذلك إلى قتل بعضهم دفاعا عن الشاب الذى كانوا يريدون التهامه فأنقذه منهم وسماه: "جمعة"، واتخذه غلاما له ورفيقا.

[2] http://al-mashhad.com/News/278794.aspx

ليصبح عاريا تماما . وأثناء هذيانه فى الشارع هاجم رونالد بوبو (أحد مشردى الشوارع- ٦٥ عاما) بوحشية لمدة ١٨ دقيقة أكل خلالها معظم لحم وجهه. ورغم صيحات المارة لم يهتم، حتى أتت شرطة ميامى وأطلقت عليه النار عدة مرات. ورغم عدم إعلان الشرطة عن السبب فى تلك الحادثة فإن التسريبات غير الرسمية تشير إلى أنه كان واقعا تحت تأثير مادة مهلوسة جديدة قوية.

وكان لوكا روكو ماغنوتا (٢٩ عاما) يعمل عارض أزياء بمدينة مونتريال الكندية، واُتُّهِم بقتل صديقه الصينى جون لين، إذ طعنه وذبحه ثم قطّعه ونزع رأسه، وقام بأكل قطع من لحمه وإطعام بعضها لأحد الكلاب. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل قام لوكا بتصوير ما فعله ووضعه على الإنترنت، وسخر من السلطات من خلال إرسال أجزاء من الجثة إلى الأحزاب السياسية الكبيرة بكندا. ورغم مطاردة الشرطة له فقد تمكن من السفر إلى باريس ثم برلين حيث قُبِض عليه هناك أثناء جلوسه بمُقْهًى يتابع آخر الأخبار عنه على الإنترنت ويشاهد صوره.

وكان ماو سوجياما قد دون على موقع تويتر استعداده لتقديم وجبة من بعض أعضاء جسمه مقابل ١٠٠ ألف ين مع إعداده وطهيه لتلك الأعضاء وفق طلب المشترى. وقد استجاب له ٥ أشخاص قاموا بأكل أعضائه فى وليمة فاخرة فى أبريل الماضى. وقد حصل على ٢٥٠ دولارا مقابل الطبق الواحد .

واعترف الطالب ألكسندر كينيوا (٢١ عاما) بجامعة مورغان ستايت بمدينة بالتيمور للشرطة بأنه أكل قلب زميله فى السكن ومخه. وكان ألكسندر قد دون على الفيسبوك رسالة تنذر بجريمته قبل أسابيع من القبض عليه. وعند حضور الشرطة للمسكن بعد بلاغ من والد القاتل حول عثور أحد أبنائه على رأس بشرية وَيَدَيْن بصندوق القمامة بالقبو اعترف ألكسندر بقتل زميله كوجوى بونسافو وأَكْل أجزاء من جثته. كما أرشد الشرطة إلى المكان الذى أخفى فيه بقية الجثة.

وفى مايو ٢٠١٢ أُلْقِى القبض على زهانغ يونغميغ (٥٦ عاما) بقريته فى جنوب غرب الصين حيث اشتهر بكونه وحشا آكلا للحوم. وقد وجهت إليه التهمة بقتل ١١ شخصا وتقطيع أعضائهم وأكل أجزاء من أجسامهم مع إلقاء بعض لحمهم لكلابه الثلاثة وبيع بعض منها فى السوق على أنها لحم نعام. وعند إلقاء الشرطة القبض عليه وجدوا عيونا بشرية محفوظة داخل عبوات من النبيذ وقطعا من اللحم البشرى معلقة لتجفّ.

والليلة قرأت خبرا بعنوان "أمريكى يقتل سيدة ويقطع أوصالها ويتناول أجزاء من الجثة" جاء فيه: "اتهمت السلطات الأمريكية اليوم رجلا بقتل سيدة وتقطيع أوصالها وتناول أجزاء منها . وذكرت شبكة "فوكس نيوز" الإخبارية الأمريكية أن المتهم جريجورى هول، الذى يقيم بولاية تنيسى الأمريكية ويبلغ من

العمر ٣٧ عاما، يواجه تهمتى القتل العمدى من الدرجة الاولى وانتهاك حرمة الموتى. وقررت المحكمة المحلية الإفراج عن المتهم بعد دفع كفالة مالية قدرها ١.٥ مليون دولار أمريكى". والخبر منشور فى صحيفة "المصريون" الضوئية بتاريخ الأربعاء ١١ يونيه ٢٠١٤م.

وبتاريخ الجمعة ١٨/ ١٢/ ٢٠١٥م قرأت فى جريدة "المصريون" أيضا مقالا بعنوان "منتجات من جلد البشر على الإنترنت" يجرى على النحو التالى: "عرض أحد المواقع البريطانية منتجات جلدية للبيع بآلاف الدولارات لكونها صنعت من "جلود بشرية رطبة" بحسب ما ذُكِر على صفحة شركة "هيومن ليذركويوكي" فى الفيسبوك. بحسب المصدر فإنّ حذاء من الجلد البشرى بـ ٢٧ ألف دولار، ومحافظ جلدية يتجاوز سعرها ١٤ ألف دولار، وغيرها. ويؤكد الموقع أن الجلد المستخدم حقيقى وبشرى ١٠٠ بالمائة. لكن صور منتجات هذا الموقع أثارت استهجان البعض، خاصة مع تأكيد الموقع على أن الطلبات كثيرة، وتغطى سبع سنوات قادمة لأرباح منتظرة. وطلب الموقع من زبائنه الانتظار لحين إشعار آخر لاستقبال الطلبات الجديدة. بحسب موقع ٢٤ فقد كُتِب على الموقع: "نحن متخصصون فى تقديم منتجات رائعة وحصرية لعملائنا المميزين للغاية، وجميع منتجاتنا صنعت من قِبَل حِرْفِيِّين ذوى سنوات

خبرة طويلة فى التعامل مع أجود أنواع الجلود المعروفة، وهى جلد الإنسان"، مضيفا أن الشركة تحصل على الجلود من متبرعين فور وفاتهم" .

كذلك طالعتُ فى موقع "شبكة الملحدين العرب" مقالا مترجما إلى العربية بعنوان "الكشف عن أدلة محتملة لحدوث أكل لحم بشرى مريع فى أوروبا فى العصر النيوليتى" خلاصته أن الأوربيين، قبل بضعة آلاف سنة، وقبل أن يتحضروا، كانوا يمارسون أكل لحوم البشر . فقد عثر العلماء على حفريات ترجع إلى نحو ٧٠٠٠ سنة يمكن أن تكون بقايا عظام ولحوم بشرية كان يلتهمها بشر: "عثر علماء الآثار الدارسين لتنقيبات تعود الى حوالى ٧٠٠٠ عام فى منطقة الجنوب الالمانى على أدلة تبيّن أن أكثر من ٥٠٠ شخص قد أمكن كونهم ضحايا لأكل لحم البشر.

الأدلة على حدوث أكل لحم البشر فى هذه الفترة فى أوربا تكون نادرة جدا، لكن مئات البقايا الأحفورية فى مكان قريب من بلدة Herxheim تملك علامات لحدوث أكل لحم بشر . أحد الباحثين Dr. Bruno Boulestin من جامعة Burdeos فى فرنسا قال بأن فريقه قد عثر على عظام تحمل علامات مشابهة لما تمّ العثور عليه، وهى لبقايا حيوانات مشويّة. أيضا عثروا على قطع من اللحم يبدو أنها كانت منزوعة عن العظام، وعظام مكسورة بجدّة لاستخراج المخ والنخاع بسهولة على ما يبدو.

قال Dr. Boulestin بأنّ الجروح والعلامات التى فى العظام توفّر أدلة على أن أجسام أكثر من ٥٠٠ ضحيّة، متضمنين أطفالا وأجنّة، كانت مشوهة عمدا، والضحايا كانت ممزقة كأطعمة كما لو كانوا حيوانات.

التنقيب الأثرى حول حقبة السيراميك قد بدأ لأول مرة فى الفترة بين ١٩٩٦ و١٩٩٩، ومن جديد فى العام ٢٠٠٥ والعام ٢٠٠٨. حتى هذه اللحظة تمّ العثور على بقايا ٥٠٠ شخص وعدد هائل من الكلاب فى حفر بيضاوية الشكل. احتوت تلك الحفر أيضا على السيراميك، مما يشير إلى أن تلك البقايا قد تراكمت على مدار عقود عدّة فقط. البقايا تؤرّخ لبدايات العصر النيوليتى عندما انتشرت الزراعة فى أوروبا.

عالمان ألمانيان من معهد Senckenberg ومتحف التاريخ الطبيعى فى فرانكفورت هما Miriam وHaidle، وكذلك Joerg Orschiedt من جامعة لايبزيغ، كانوا قد درسوا العظام ذاتها واستبعدوا نظرية Dr. Boulestin المتصلة بأكل لحم البشر، واقترحوا أن نزع اللحم كان على الأرجح بحسب طقس خاص بإعادة الدفن.

لقد فكّر Dr. Boulestin وفريقه بأن اللُّقَى العظمية عبارة عن مكان لإعادة الدفن، لكنهم اقتنعوا بأنها تتصل بأكل لحم البشر. بعد فحص تفصيلى لحوالى ٢١٧ عيّنة من العظام لعشرة أشخاص على الأقل متضمنة اثنين من

الأطفال لم يُولَدوا بعد قد أبرزت علامات مضغ وحكّ تكون أكثر اتساقا مع أكل لحم البشر.

بحسب Haidle وOrschiedt العظام العائدة لناس مدفونة قد كانت أيضا تحتوى بعض العلامات المشابهة، وأكل لحم البشر سيكون إثباته تقريبا مستحيلا. بلدة Herxheim وأماكن أخرى قد كانت مهجورة زمن حقبة موت أولئك الناس منذ ٧٠٠٠ عام، الأمر الذى من الممكن أن يشير إلى وجود أزمة اجتماعية ما فى ذاك الزمن. التنقيبات مستمرة، وDr. Boulestin وفريقه يعتقدون بأن المكان يمكن أن يحتوى على بقايا بشرية أكثر.

ويجد القارئ المقال باللغة الإنجليزية على الرابط التالى:

http://phys.org/news179393799.html، وعنوانه: " Evidence unearthed of possible mass cannibalism in Neolithic Europe" . وهو يجرى على النحو التالى:

"(PhysOrg.com) -- Archaeologists studying a 7,000-year-old site in what is now south-west Germany have found evidence suggesting that more than 500 people may have been the victims of cannibalism.

Evidence of cannibalism in Neolithic Europe is rare, but hundreds of remains excavated at a site near the village of Herxheim have markings suggestive of cannibalism. One of the authors of the research paper, Dr Bruno Boulestin of the University of Bordeaux in France, said his team had found bones with markings similar to those found on the remains of animals that have been spit roasted. They also found cuts suggestive of meat being scraped from the bones, and bones with

the ends broken, as if to facilitate scraping out the marrow.

Dr Boulestin said the cuts and markings on the bones provided evidence the bodies of the more than 500 victims, including children and fetuses, were intentionally mutilated, and the victims were butchered and eaten in the same way as animals.

The archaeological site is one of the Linear Pottery Culture, and was first excavated from 1996-99 and again in 2005 and 2008. So far the remains of about 500 humans and a large number of dogs have been found buried in oval pits. The pits also contained pottery, which suggests the remains were accumulated over only a few decades. The remains date from the early Neolithic period, when farming had spread into Europe.

Two German scientists, Miriam Haidle of Senckenberg Research Institute and Natural History Museum in Frankfurt, and Jorg Orschiedt of the University of Leipzig, who have previously studied bones found at the site dismiss Dr Boulestin's theory of cannibalism and suggest the removal of flesh was more likely to have been part of a reburial ritual.

Boulestin's team originally also thought the find was a reburial site, but they became convinced the people had been cannibalized after a detailed examination of 217 samples of bone from at least 10 people, including two unborn children, revealed chewing and scraping marks that were more consistent with cannibalism.

According to Haidle and Orschiedt bones of people who had been ritually reburied would have had similar markings, and cannibalism would be almost impossible to prove.

Herxheim and other settlements were abandoned around the time of the deaths of the people, about 7,000 years ago, which may indicate there was a social crisis of some kind at the time. Excavations are continuing,

and Dr Boulestin and his team think the site may contain the remains of many more people".

ومن الطريف أن عبارة "أكلة لحوم البشر" قد صارت فى العقود الأخيرة مصطلحا أدبيا لطائفة من الأدباء الشبان الإيطاليين يؤلفون ما يسمى بخليط "صلصة الرعب" مستغلين كل ما يقدمه العصر فى هذا السبيل من مشباك وتلفاز وكرتون وغير ذلك. ويجد القارئ هذا فى مادة "Cannibales" بـ "Dictionnaire mondial des littératures / Larousse":

"Mouvement littéraire italien. Sous le nom de Jeunesse cannibale, les éditions Einaudi ont publié en 1996 une anthologie des nouveaux auteurs italiens, parmi lesquels Niccolò Ammaniti, Daniele Luttazzi, Aldo Nove, Tiziano Scarpa, Isabella Santacroce. Ce recueil est devenu le manifeste d'une nouvelle mouvance qui envahit le champ littéraire avec la pulp-fiction, à savoir le mélange, dans une sauce «horreur», de tout ce qui caractérise la modernité: la publicité, la bande dessinée, l'Internet, l'information télévisée ou les faits divers".

وإذا ما رجعنا إلى الوراء كى نطلع على شىء من التاريخ الخاص بموضوع أكل البشر وجدنا فى الأساطير الإغريقية أن الملك الإغريقى ليكاوون، الذى كان يعيش قبل عصر الطوفان، قد أغضب زيوس كبير الآلهة بذبح ولدٍ وتقديمه ضحية له. وهناك من يَعْزُون هذا الغضب إلى أنه دعا زيوس إلى وليمة تضم بين أطباقها شواء آدميا. وتذكر أسطورة ثالثة أن أبناء ليكاوون قد صنعوا، فى وليمتهم لزيوس، مرقا من أحشاء جدى ونعجة وأخ لهم، وأن هذا بالأحرى

هو ما أغضب زيوس فمسخهم هم وأباهم ذئابا . وكان الاعتقاد أن أى رجل مذؤوب يمكن أن يعود إلى صورته الإنسانية إن لم يأكل لحما بشريا طوال عشرة أعوام، أما إذا ظل يفعل ذلك فإنه يعيش سائر حياته ذئبا . . . إلى آخر ما تقول مادة "Lycaon" فى "Encyclopaedia Mythica" المشباكية.

وفى "الأوديسة" لهوميروس أن أوديسيوس حين أبحر برجاله اكتشفوا، بعد أن تخلصوا من سحر اللوتس، أن السفينة بها ثقب كبير لا بد أن يتوقفوا لإصلاحه. ولكن أين يتوقفون؟ أخذوا يبحثون إلى أن وجدوا جزيرة قريبة فذهبوا إليها . لم يكن بالجزيرة التى يقفون عليها إلا الأشجار والحشائش فقط، وكان أمامهم جزيرة أخرى يسمعون ثغاء الغنم منها . فقرر أوديسيوس أن يأخذ بعض البحارة ويصطادوا بعض الأغنام لتكون مؤنتهم طوال الرحلة. وحين بلغوا الجزيرة الأخرى اصطادوا الغنم دون أن يعبأوا بصاحب القطعان. وشوى البحارة أحد الخراف، ثم أكلوا وأرادوا أن يستريحوا، فوجدوا كهفا فسيحا به مكان مسور ممتلئ بالقش يستخدم حظيرة للأغنام، وبجوار جدار الكهف سلالُ جبنٍ ودَنٌّ ثقيل ممتلئٌ باللبن وجلودٌ كثيرة، فعرف أوديسيوس أنهم فى كهف راعى الغنم.

وفجأة دخل عليهم الراعى، وكان سيكلوبا عملاقا مخيفا ذا عين واحدة، وسد عليهم مدخل الكهف. وحين وجد أوديسيوس ورجاله قال: أهلا بكم

أيها الضيوف ! ما هى قصتكم ؟ فتكلم أوديسيوس قائلا: نحن بحارة تحطمت سفينتنا على الجزيرة. فسألهم: أيوجد بحارة غيركم فى مكان آخر ؟ فنفى أوديسيوس ذلك لأنه لم يكن مطمئنا لذلك السيكلوب، الذى ما إن انتهى من عبارته حتى أغلق مدخل الكهف بصخرةٍ هائلة، وأمسك اثنين من البحارة وهشم رأسيهما فى الجدار، ووضعهما على النار وبدأ فى حلب الماعز منتظرا نضجهما . ثم التهم البحارين المسكينين، وشرب الحليب وأكل الجبن، ثم نام. وحاول أوديسيوس وبقية الرجال زحزحة الصخرة أثناء نوم السيكلوب، لكنهم فشلوا .

وفى الصباح استيقظ السيكلوب وأمسك باثنين آخرين من البحارة، وبعد أن تناول فَطُوره البشرى أخرج الغنم، وخرج وسد الكهف بالصخرة. وظل أوديسيوس يفكر كيف يخرجون من ذلك الموقف. وفجأة وجد الحل، إذ رأى غصن زيتون كبيرا فأخذه، وطلب من الرجال أن يَسُنّوه مثل الحراب بسيوفهم، ففعلوا، وأخفاه أوديسيوس بين القش حتى عاد السيكلوب، وبدأ فى التهام وجبته. لقد قضى حتى الآن على نصف من فى الكهف. ولما شبع تقدم منه أوديسيوس، وفى يده كأس من نبيذ أبوللو المقدس الذى تُرِك ليُعَتَّق ألف سنة. وكان على من يريد أن يشرب منه كأسا أن يمزج الرشفة بخمسين كأسا من المياه. وكان أوديسيوس قد غنم منها برميلا فى طروادة. وقدم أوديسيوس

الكأس للسيكلوب دون أن يمزجها بقطرة ماء واحدة، فجرعه السيكلوب، وطلب المزيد حتى ثمل وترنح وقال له: ما اسمك أيها البحار؟ فقال له: اسمى "لاأحد". قال له: حسن يا لاأحد. سأكافئك على تلك الخمر المذهلة بأن تكون آخر من تؤكل من رفاقك. ثم ارتمى على الأرض فاقد الوعى بتأثير الخمر.

فأسرع أوديسيوس وأخرج الغصن وترك سِنَّه على النار حتى احمر، ثم حمله هو والرجال وفقأ عين السيكلوب الوحيدة، فنهض وهو يعوى من الألم، واستيقظ كل جيرانه السكالبة من نومهم ونادَوْا: أيفولوموس، ماذا أصابك؟ هل ضربك أحد؟ فقال: "لاأحد" ضربنى، "لاأحد" فقأ عينى، "لاأحد" اللعين. فلم يعبأ به أحد من جيرانه.

وفى الصباح تحسس السيكلوب فتحة الكهف، وأزال الحجر لتخرج الأغنام وترعى، وجلس على الفتحة يتحسس كل شىء يخرج كيلا يتمكن أوديسيوس من مغادرة الكهف. ولكن أوديسيوس الماكر ربط كل رَجُلٍ من رجاله تحت بطن كبش كبير، وجعل هذا الكبش فى وسط كبشين آخرين عند الخروج من الكهف، واختار لنفسه أكبر الكباش وأمسك بفروته وخرج معه.

وكان السيكلوب عندما يتحسس يجد أغناما تخرج، حتى وصل الكبش الكبير، الذى تحته أوديسيوس، فقال له: كبشى العزيز، مالك فى آخر القطيع،

وكنتَ دائما فى مقدمته؟ لا بد أنك حزين لما حدث لى. هيا اخرج وارع مع بقية القطيع. ثم سد باب الكهف، لكن أوديسيوس ورفاقه فى ذلك الحين كانوا يسوقون الأغنام إلى سفينتهم. وحين بعدت السفينة قليلا فى البحر صاح أوديسيوس بالسيكلوب أبيفولوموس قائلا: اعلم أن من فقأ عينك هو أوديسيوس بن لايترس، ملك إيتاكا. فصاح السيكلوب: لقد صدقت النبوءة أن من سيفقأ عينى هو المحارب أوديسيوس. ولكننى ظننت أنه سيبارزنى ويقتلنى. إلا أنك، بمكرك، قتلتنى أكثر من ألف مرة.

قد يقال إن السيكلوب لا ينتمى إلى البشر، ومن ثم فلا عبرة بأكله لحوما بشرية، لكن من السهل الرد على هذا الاعتراض بأنه لا فرق بينه وبين البشر إلا فى أنه ذو عين واحدة بينما البشر لهم عينان. أما فيما عدا هذا فهو يتصرف كما يتصرف الإنسان، إذ يرعى الغنم كما يرعاها الإنسان، ويفكر ويدبر أموره على نحو ما يفكر الإنسان ويدبر. كما أنه يتكلم إلى البشر كما يتكلم بعضهم مع بعض، ويخطط كما يخططون... إلخ. ومن هنا فإن الفرق المذكور ليس بالفرق الحاسم، وكل ما هنالك أنه يبدو وكأنه إنسان مشوه الملامح. ثم إن الكتابات التى تتحدث عن السيكلوب تصفه بأنه "cannibal"، وهى الكلمة التى تعنى كل كائن حى يأكل لحم فرد ينتمى إلى نفس الجنس. نجد هذا مثلا فى

"الموسوعة البريطانية" . ويمكن القول به أيضا فيما يتعلق بالغيلان، التى سوف يأتى ذكرها بعد قليل.

وفى مادة "Cyclops" من "Encyclopaedia Britannica" (ط٢٠١٢م) أن المؤلفين المتأخرين جعلوا السيكلوبات عُمّالا بشريين (workmen) عند هيفستوس إله النار والبراكين والأشغال المعدنية والصناعات اليدوية، ويقال إنهم بَنَوْا عددا من المدن الإغريقية كتِيرْنس وغيرها، ومن هنا أُطْلِق فى العمارة الحديثة مصطلح "السيكلوبى" على ضرب من الجدران تبنى بحجارة غير مربعة. وهذا كله يعضد ما قلته من أن السيكلوبات لا يتميزون تميزا حاسما عن البشر.

وفى كتاب "الفلاحة النبطية" لابن الوحشية نقرأ النص التالى: "وقد سَمَّى شجرةَ الأبهل صردايا الكنعانى باسمٍ بلغتهم معناه "شجرة الغول" لأنها شجرة تغتال من يشم رائحتها ومن يراها ويتأملها وقتا. هذا المعنى قلناه على ما نظن. فأما على تفسير من فسر قول صردايا من غيرنا فإنه قال: إن معنى قوله أن حيوانا من التى تأوى القفر والبرارى يسمى: "الغول" يألف هذه الشجرة ويحب شم رائحتها، وإن هذا الحيوان نصفه على صورة الانسان، صورة امرأة خاصة بثديين كبيرين، وهو النصف الفوقانى، والنصف السفلانى كصورة نصف حمار ينتهى الى ساقين فى طرفيهما موضعَ القدمين حافران مثل حوافر الحمير

والبغال وما أشبه ذلك، وإن هذا الحيوان تهرب الحيوانات البرية كلها منه حتى الأسود والذئاب وكل ذى قوة شديدة ومخالب، فلا يقوم له واحد من هذه، وإن أعظم لذة وشهوة هذا الحيوان أن يظفر بإنسان، فإنه يتلاعب به تلاعبا كثيرا وقتا طويلا ثم يشق بطنه بمخلبين له فى بدنه فى كل كف، مخلبين قويين عظيمين، يشق بهما بطنه، ويأكل قماش بطنه، وقبل شق جوفه زعموا انه يأكل ذكره وخصيتيه، ثم يشق جوفه فيأكل أحشاه ثم يتركه بأن يجره إلى سرب له. فكلما نتن ريحه كان أشهى للغول وأطيب عنده، فلا يزال يتردد عليه حتى يفنيه. وإن هذا الغول يأوى أسرابا له فى الأرض ولا يأوى إلا فى برية قفرة موحشة لا يسلكها أحد من الناس، وربما كانوا فى جزائر البحر يأوونها ويخرجون منها فيقومون فى الماء إلى أذقانهم، فيصيدون الحيتان والسمك فيأكلونها كما يأكلون الناس، وإنهم يأكلون جميع وحوش البر وجميع دواب البحر، فإذا بَقُوا بلا طعام ولم يجدوا مأكولا أكل بعضهم بعضا، وإن جميع غذائهم ينحلّ فى أجوافهم، فيخرج منهم كالبول رقةً لفرط حرارة أبدانهم، وإن احدهم إن ظهر فى الشمس فوقع شعاع الشمس على بدنه مرض، فهم يختفون فى الأسراب فى الأرض النهار كله، فإذا جاء الليل وغربت الشمس انتشروا يطلبون الرزق الليل كله وإلى مُضِى ربع ساعة من النهار، ثم يختفون على العادة.

وأما تفسير قولنا نحن إن شجرة الأبهل إنما سماها صردايا لنا: "شجرة الغول" لأنها تغتال من يشم رائحتها ومن يراها ويتأملها وقتا، فإن هذه حارة شديدة الحرارة قاتلة برائحتها وطعمها. وفيها خاصية فعل تنكى به عين من يتأملها وينظر إليها وحدها زمانا. فإن صغريث خاصة قال إن إدمان النظر اليها يورث حمى حارة يختلط معها العقل. وإذا كان هذا هكذا فهى مغتالة للناظر اليها والشامّ رائحتها. أما الناظر اليها فكما قالوا إنها تنكى عينيه وتمرضهما، وأما الشامُّ رائحتها فإنها تنكى دماغه فتُورِثه صداعا وتسخّنه شديدا حتى ربما أورثت برساما يذهب معه العقل يتبعه خيالات كثيرة. فبهذا الفعل: الإمراض والإسخان صارت شجرةَ الغول والاغتيال، أى أنها تغتال الناس فتمرضهم، وغير هذا مما له شرح يطول. فهذا تفسير الناس أنها شجرة الغول. . . وقد زعم قوم أن هذا الغول يشم روائح الناس وسائر الحيوانات من نحو ثلاثة فراسخ، وأن الانسان أحبُّ إليه من جميع ما يأكله، وأنه يأكل السباع كلها وسائر حيوانات البر، وأنها تهرب منه إذا أحست به، أما فى جزائر البحر فتعوم فى الماء هربا منه، وأما فى طرفى النهار فإنها تدخل الأسراب العميقة الضيقة التى لا يصل الغول إليهم فيها ولا يظهرون منها حتى يفقدوا روائح الغول،

فيعلمون بذلك أنها قد تعدَّت عنهم لأن الحيوانات تشم للغول رائحة نتنة قبل وصول الغول إليهم، فهم لذلك يهربون منها".

وفى رواية "أكلة الموتى: عن مخطوطة ابن فضلان" لمايكل كرايتون أنه كانت هناك فى شمال أوربا أيام المقتدر العباسى كائنات غريبة الشكل قبيحة الملامح عفنة الرائحة اسمها "وحوش الضباب" تأكل البشر بعد أن تمزّق أجسادهم على نحو شديد البشاعة والوحشية. وهم يأتون دائما فى ضباب أسود منتن يتخلل كل شىء، وكثيرا ما يشتبكون فى معارك مع البشر، ويمكن هؤلاء أن يهزموهم رغم وحشيتهم وقسوتهم البشعة[1].

ويقول المقريزى فى كتابه: "اتّعَاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا" عن بعض حوادث الشّدّة المستنصرية فى منتصف القرن الخامس الهجرى[2]: "كان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتًا قصيرةَ السقوف قريبةً ممن يسعى فى الطرقات، فأعدوا سَلَبًا وخطاطيف، فإذا مر بهم أحد شالوه فى أقرب وقت ثم ضربوه بالأخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه. قال الشريف أبو عبد

---

[1] يجد القارئ بعضا من هذه المناظر فى ص٦٦- ٦٧، ١٠٥- ١٠٦، ١١٦- ١١٩، ١٣٥- ١٣٧، ١٤٠- ١٤١ من ترجمة تيسير كامل للرواية المذكورة المنشورة فى سلسلة "روايات الهلال" (ط٢/ ١٩٩٩م)

[2] وهى المجاعة الهائلة التى وقعت فى عهد ثامن الخلفاء الفاطميين المستنصر بالله لشحة ماء النيل فى تلك الفترة وجشع التجار وغير هذا

الله محمد الجوانى فى كتاب "النقط": حدثنى بعض نسائنا الصالحات قالت: كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحُفَر فتقول: أنا ممن خطفنى أَكَلَةُ الناس فى الشدة، فأخذنى إنسان، وكنت ذات جسم وسِمَن، فأدخلنى بيتا فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل، فأضجعنى على وجهى وربط فى يدى ورجلى سلبًا إلى أوتادِ حديدٍ عريانةً، ثم شرح من أفخاذى وأنا أستغيث ولا أحد يجيبنى، ثم أضرم الفحم وسوى من لحمى وأكل أكلا كثيرا، ثم سكر حتى وقع على جنبيه لا يعرف أين هو، فأخذت فى الحركة إلى أن تخلى أحد الأوتاد، وأعان الله على الخلاص، وخَلَصْتُ وحَلَلْتُ الرباط وأخذت خروقا من داره ولففت بها أفخاذى وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس، فحُمِلْتُ إلى بيتى، وعرَّفتهم بموضعه، فمَضَوْا إلى الوالى فكبس عليه وضرب عنقه. وأقامت الدماء فى أفخاذى سنةً إلى أن ختم الجرح، وبقى هكذا حفرا".

ويقول المقريزى أيضا فى "إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة" عن المستنصر: "واحتاج المستنصرُ حتى باع حِلْيَة قبور آبائه. وجاءه الوزير يوما على بغلته، فأكلتها العامة، فشنق طائفة منهم، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم". كما يقول عن مجاعة حصلت بعد ذلك بنحو قرن ونصف: "عدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع، فكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا، والمرأة تأكل

ولدها"، وإن كان محقق الكتاب د . كرم حلمى فرحات يشكك فى مثل هذه الأقاويل ويرى أنها مبالغات من المقريزى غير مقبولة أراد بها تصوير مدى قسوة تلك الأزمات وما أحدثه الغلاء بالناس[1] .

وفى "المواعظ والاعتبار بذكر الخُطَط والآثار" للمقريزى كذلك: "وفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقرافة شىء يقال له: القطربة، تنزل من جبل المقطم، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها حتى رحل أكثرهم خوفا منها . وكان شخص من أهل كبار مصر يُعْرَف بـ"حميد الفوّال" خرج من أطفيح على حماره، فلما وصل إلى حلوان عشاءً رأى امرأة جالسة على الطريق، فشكت إليه ضعفا وعجزا، فحملها خلفه فلم يشعر بالحمار إلاّ وقد سقط، فنظر إلى المرأة، فإذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخالبها، ففرّ وهو يعدو إلى والى مصر وذكر له الخبر، فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة تدلَّى جوفها . ثم صارت بعد ذلك تنبع الموتى بالقرافة وتنبش قبورهم وتأكل أجوافهم وتتركهم مطروحين، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة" .

---

[1] انظر مقدمة د . كرم حلمى فرحات محقق "إغاثة الأمة بكشف الغمة" للمقريزى/ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية/ ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م/ ٥٦ .

وفى "ألف ليلة وليلة": "كان لذلك الملك ولد مُولَع بالصيد والقنص، وكان له وزير، فأمر الملكُ ذلك الوزيرَ أن يكون مع ابنه أينما توجه. فخرج يوما من الأيام إلى الصيد والقنص، وخرج معه وزير أبيه، فسارا جميعا فنظرا إلى وحش كبير، فقال الوزير لابن الملك: دونك هذا الوحشَ، فاطلبه. فقصده ابن الملك حتى غاب عن العين، وغاب عنه الوحش فى البرية. وتحير ابن الملك فلم يعرف أين يذهب. وإذا بجارية على رأس الطريق وهى تبكى، فقال لها ابن الملك: من أنتِ؟ قالت: بنت ملك من ملوك الهند، وكنت فى البرية، فأدركنى النعاس، فوقعت من فوق الدابة ولم أعلم بنفسى فصرت حائرة.

فلما سمع ابن الملك كلامها رق لحالها وحملها على ظهر دابته وأردفها وسار حتى مر بجزيرة، فقالت له الجارية: يا سيد، أريد أن أزيل ضرورة. فأنزلها إلى الجزيرة، ثم تَعَوَّقَتْ، فاستبطأها فدخل خلفها وهى لا تعلم به، فإذا هى غولة[1]، وهى تقول لأولادها: يا أولادى، قد أتيتكم اليوم بغلام سمين. فقالوا

---

[1] ما قلناه قبل قليل عن "السيكلوب" وأنه لا يتميز عن الإنسان تقريبا إلا بأن له عينا واحدة يمكن قوله كذلك عن الغول. ومما له دلالته أن بطرس البستانى، عند ترجمته لكلمتى "cannibals or maneaters"، اللتين وصف بهما روبنسون كروسو سكان الكاريبى، قال: "غيلان يأكلون لحوم الناس" (ص١٢٣. وهو ما تكرر ص١٦٤/ س٢، وص١٦٥/ س٧) بما يدل على ما قلته من أنه لا فرق جوهرى بين الغول والبشر فى الخيال الشعبى. إلا

لها: ائتينا به يا أمنا نأكله فى بطوننا. فلما سمع ابن الملك كلامهم أيقن بالهلاك، وارتعدت فرائصه، وخشى على نفسه ورجع، فخرجت الغولة فرأته كالخائف الوجل وهو يرتعد، فقالت له: ما بالك خائفا ؟ فقال لها: إن لى عدوا، وأنا خائف منه. فقالت الغولة: إنك تقول: أنا ابن الملك. قال لها: نعم. قالت له: مالك لا تعطى عدوك شيئًا من المال فترضيه به؟ فقال لها: إنه لا يرضى بمال، ولا يرضى إلا بالروح، وأنا خائف منه، وأنا رجل مظلوم. فقالت له: إن كنت مظلوما كما تزعم فاستعن بالله عليه، فإنه يكفيك شره وشر جميع ما تخافه. فرفع ابن الملك رأسه إلى السماء وقال: يا من يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، انصرنى على عدوى واصرفه عنى. إنك على ما تشاء قدير. فلما سمعت الغولة دعاءه انصرفت عنه، وانصرف ابن الملك إلى أبيه" .

وفى "ألف ليلة وليلة" أيضا: "ثم إن ساعدا قال: يا أخى يا سيف الملوك، لما غرقت المركب وغرقت المماليك طلعتُ أنا وجماعة من المماليك على لوح خشب، وسار بنا فى البحر مدة شهر كامل. ثم بعد ذلك رمانا الريح

أن ما يلفت النظر هو تأكيد البطل (فى نفس الصفحة) أن أهالى جزر الكاريبى قد أكلوا كل أوربى وقع فى أيديهم، وأن ذلك كان يحدث للعشرة والعشرين أوربيا معا، إذ كيف عرفت أوربا أنهم قد أُكلوا فعلا؟ سيقال: لأنهم لم يعودوا من هناك. والجواب هو: ألا يمكن أن يكونوا قد قُتِلوا فقط دون أن يُؤكَلوا؟ وهذا طبعا إن كانت القصة صحيحة.

بقدرة الله تعالى على جزيرة، فطلعنا ونحن جياع، فدخلنا بين الأشجار وأكلنا من الفواكه واشتغلنا بالأكل، فلم نشعر إلا وقد خرج علينا أقوام مثل العفاريت فوثبوا علينا وركبوا فوق أكتافنا، وكانوا نحو المائتين، فقلنا لبعضنا: ما يكفى هؤلاء أن يركبونا حتى يأكلونا أيضا ! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! ولكن نحن نقوّى عليهم السُّكْر، ثم نقتلهم ونستريح منهم ونخلص من أيديهم. فنبهناهم وصرنا نملأ لهم تلك الجماجم ونسقيهم، فيقولون: هذا مر. فقلنا لهم: لأى شىء تقولون: هو مر، وكل من قد قال ذلك إن لم يشرب منه عشر مرات فإنه يموت من يومه؟ فخافوا من الموت وقالوا لنا: اسقونا تمام العشر مرات. فلما شربوا العشر مرات سكروا، وزاد عليهم السكر، وهمدت قوتهم، فجررناهم من أيديهم. ثم إننا جمعنا من حطب تلك الكروم شيئًا كثيرا، وجعلناه حولهم وفوقهم، وأوقدنا النار فى الحطب، ووقفنا من بعيد ننظر ما يكون منهم. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفى الليلة التاسعة والعشرين بعد السبعمائة قالت: بلغنى، أيها الملك السعيد، أن ساعدا قال: لما أوقدتُ النار فى الحطب أنا ومن معى من المماليك، وصارت الغيلان فى وسطها، وقفنا من بعيد لننظر ما يكون منهم. ثم قَدِمْنا إليهم بعد أن خمدت النار فرأيناهم صاروا كوم رماد، فحمدنا الله تعالى، الذى خلصنا منهم، وخرجنا من تلك الجزيرة وطلبنا ساحل البحر، ثم

افترقنا عن بعضنا: فأما أنا واثنان من المماليك فمشينا حتى وصلنا إلى غابة كثيرة الأشجار فاشتغلنا بالأكل، وإذا بشخص طويل القامة طويل اللحية طويل الأذنين بعينين كأنهما مشعلان، وقدامه غنم كثيرة يرعاها، وعنده جماعة أخرى فى كيفيته. فلما رآنا استبشر وفرح ورحب بنا وقال: أهلا وسهلا. تعالَوْا عندى حتى أذبح لكم شاة من هذه الأغنام وأشويها وأطعمكم. فقلنا له: وأين موضعك؟ فقال: قريب من هذا الجبل. فاذهبوا إلى هذه الجهة حتى تَرَوْا مغارة، فادخلوا فإن فيها ضيوفا كثيرين مثلكم. فرُوحُوا واقعدوا حتى نجهز لكم الضيافة.

فاعتقدنا أن كلامه حق، فسرنا إلى تلك الجهة ودخلنا تلك المغارة فرأينا الضيوف التى فيها كلهم عميانا. فحين دخلنا عليهم قال واحد منهم: أنا مريض. وقال الآخر: أنا ضعيف. فقلنا لهم: أى شىء هذا القول الذى تقولونه؟ وما سبب ضعفكم ومرضكم؟ فقالوا لنا: من أنتم؟ فقلنا لهم: نحن ضيوف. قالوا لنا: ما الذى أوقعكم فى يد هذا الملعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟ هذا غول يأكل بنى آدم، وقد أعمانا، ويريد أن يأكلنا. فقلنا لهم: كيف أعماكم هذا الغول؟ فقالوا لنا: فى هذا الوقت يعميكم مثلنا. فقلنا لهم: وكيف يعمينا؟ فقالوا لنا: إنه يأتيكم بأقداح من اللبن ويقول لكم: أنتم تعبتم من السفر، فخذوا هذا اللبن واشربوا. فحين تشربوا منه تصيروا مثلنا.

فقلت فى نفسى: ما بقى لنا خلاص إلا بحيلة. فحفرت حفرة فى الأرض وجلست عليها، ثم بعد ساعة دخل الملعون الغول علينا ومعه أقداح من اللبن، فناولنى قدحا وناول من معى كل واحد قدحا، وقال لنا: أنتم جئتم من البر عطاشا، فخذوا هذا اللبن واشربوا منه حتى أشوى لكم اللحم. فأما أنا فأخذت القدح وقربته من فمى ودلقته فى الحفرة وصحت: آه! قد راحت عينى وعميت. وأمسكت عينى بيدى، وصرت أبكى وأصيح، وهو يضحك ويقول: لا تخف. وأما الاثنان رفيقاى فإنهما شربا اللبن فعميا، فقام الملعون من وقته وساعته وهو يسعى خلفى، فقلت للعميان الذين عنده: كيف العمل مع هذا الملعون؟ فقال واحد منهم: يا ساعد، انهض واصعد إلى هذه الطاقة تجد فيها سيفا صقيلا، فخذه وتعال عندى حتى أقول لك كيف تعمل. فصعدتُ إلى الطاقة وأخذت السيف وأتيت عند ذلك الرجل، فقال: خذه واضربه فى وسطه، فإنه يموت فى الحال. فقمت وجريت خلفه، وقد تعب من الجرى، فجاء إلى العميان ليقتلهم، فجئت إليه وضربته بالسيف فى وسطه فصار نصفين، فصاح على وقال لى: يا رجل، حيث أردت قتلى فاضربنى ضربة ثانية. فهممت أن أضربه ضربة ثانية، فقال الذى دلنى على السيف: لا تضربه ضربة ثانية، فإنه لا يموت بل يعيش ويهلكنا. وأدرك شهرزادَ الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفى الليلة الثلاثين بعد السبعمائة قالت: بلغنى، أيها الملك السعيد، أن ساعدا قال: لما ضربتُ الغول بالسيف قال لى: يا رجل، حيث ضربتَنى وأردتَ قتلى فاضربنى ضربة ثانية. فهممت أن اضربه، فقال لى الذى دلنى على السيف: لا تضربه ضربة ثانية، فإنه لا يموت بل يعيش ويهلكنا. فامتثلتُ أمر ذلك الرجل ولم أضربه، فمات الملعون، فقال لى الرجل، قم افتح المغارة، ودعنا نخرج منها لعل الله يساعدنا ونستريح من هذا الموضع".

وفى "ألف ليلة وليلة" كذلك، وهى الحكاية الرابعة من حكايات السندباد البحرى: "قال السندباد البحرى: اعلموا، يا إخوانى، أنى لما عدت إلى مدينة بغداد واجتمعتُ على أصحابى وأحبابى وصرت فى أعظم ما يكون من الهناء والسرور والراحة، وقد نسيتُ ما كنت فيه لكثرة الفوائد وغرقتُ فى اللهو والطرب ومجالسة الأحباب والأصحاب وأنا فى ألذ ما يكون من العيش، فحدثتنى نفسى الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس، وقد اشتقت إلى مصاحبة الأجناس والبيع والمكاسب، فهممت فى ذلك الأمر واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر وحزمت حمولا كثيرة زيادة عن العادة، وسافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، ونَزَّلتُ حمولتى فى المركب واصطحبت جماعة من أكابر البصرة. وقد توجهنا إلى السفر وسافر بنا المركب على بركة الله تعالى فى البحر العَجَّاج المتلاطم بالأمواج، وطاب لنا السفر. ولم نزل على هذه الحالة مدة

ليالٍ وأيامٍ من جزيرة إلى جزيرة، ومن بحر إلى بحر، إلى أن خرجتْ علينا ريح مختلفة يوما من الأيام، فرمى الريِّس مراسى المركب وأوقفه فى وسط البحر خوفا عليه من الغرق. فبينما نحن على هذه الحالة ندعو ونتضرع إلى الله تعالى إذ خرج علينا ريح عاصف شديد مزق القلع وقطعه قطعا، وغرق الناس وجميع حمولهم وما معهم من المتاع والأموال، وغرقتُ أنا بجملة من غرق. وعُمْتُ فى البحر نصف نهار وقد تخليت عن نفسى، فيسر الله تعالى لى قطعة لوح خشب من ألواح المركب، فركبتها أنا وجماعة من التجار. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفى الليلة الخامسة والأربعين بعد الخمسمائة قالت: بلغنى، أيها الملك السعيد، أن السندباد البحرى بعد أن غرق المركب وطلع على لوح خشب هو وجماعة من التجار قال: اجتمعنا على بعضنا ولم نزل راكبين على ذلك اللوح ونرفس بأرجلنا فى البحر، والأمواج والريح تساعدنا، فمكثنا على هذه الحالة يوما وليلة. فلما كان ثانى يوم ضحوة نهار ثار علينا ريح، وهاج البحر، وقوى الموج والريح، فرمانا الماء على جزيرة ونحن مثل الموتى من شدة السهر والتعب والبرد والجوع والخوف والعطش. وقد مشينا فى جوانب تلك الجزيرة فوجدنا فيها نباتا كثيرا، فأكلنا منه شيئًا يسد رمقنا ويقيتنا، وبتنا تلك الليلة على جانب الجزيرة.

فلما أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، قمنا ومشينا فى الجزيرة يمينا وشمالا، فلاح لنا عمارة على بعد، فسرنا فى تلك الجزيرة قاصدين تلك العمارة التى رأيناها من بعد، ولم نزل سائرين إلى أن وقفنا على بابها . فبينما نحن واقفون هناك إذ خرج علينا من ذلك الباب جماعة عراة ولم يكلمونا، وقد قبضوا علينا وأخذونا عند ملكهم، فأمرنا بالجلوس، فجلسنا، وقد أحضروا لنا طعاما لم نعرفه ولا فى عمرنا رأينا مثله، فلم تقبله نفسى ولم آكل منه شيئًا دون رفقتى. وكانت قلة أكلى منه لطفا من الله تعالى حتى عشت إلى الآن.

فلما أكل أصحابى من ذلك الطعام ذهلت عقولهم وصاروا يأكلون مثل المجانين وتغيرت أحوالهم. وبعد ذلك أحضروا لهم دهن النارجيل فسَقَوْهم منه ودهنوهم به. فلما شرب أصحابى من ذلك الدهن زاغت أعينهم من وجوههم، وصاروا يأكلون من ذلك الطعام بخلاف أكلهم المعتاد . فعند ذلك احترت فى أمرهم وصرت أتأسف عليهم، وقد صار عندى هم عظيم من شدة الخوف على نفسى من هؤلاء العرايا . وقد تأملتهم، فإذا هم قوم مجوس، وملك مدينتهم غول، وكل من وصل إلى بلادهم أو رَأَوْه فى الوادى أو الطرقات يجيئون به إلى ملكهم، ويطعمونه من ذلك الطعام ويدهنونه بذلك الدهن، فيتسع جوفه لأجل أن يأكل كثيرا ويذهل عقله وتنطمس فكرته ويصير مثل الإبل، فيزيدون له الأكل والشرب من ذلك الطعام والدهن حتى يسمن ويغلظ،

فيذبحونه ويشوونه ويطعمونه لملكهم. وأما أصحاب الملك فيأكلون من لحم الإنسان بلا شوى ولا طبخ.

فلما نظرتُ منهم ذلك الأمر صرت فى غاية الكرب على نفسى وعلى أصحابى، وقد صار أصحابى من فرط ما دهشت عقولهم لا يعلمون ما يُفْعَل بهم. وقد سلموهم إلى شخص، فصار يأخذهم كل يوم ويخرج يرعاهم فى تلك الجزيرة مثل البهائم. وأما أنا فقد صرت من شدة الخوف والجوع ضعيفا سقيم الجسم، وصار لحمى يابسا على عظمي".

وفى مقال بعنوان "المسيحية وحوادث أكل لحوم المسلمين" منشور بموقع "الحوار المتمدن" على الرابط التالى: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=343204 يقول حسن محسن رمضان: "ريمون دى جيل، راهب نوتردام لى بوى، رجل دين مسيحى متوسط الثقافة، ركيك الأسلوب، مع تعصب شديد لمعتقده، أهم ما يميزه هو جهله التام بأى معنى من معانى التسامح، ولذلك "سوّغ أبشع الأعمال التى اقترفها الفرنجة، مثل الإبادة الجماعية للمسلمين وأكل لحوم الموتى منهم" مثل ما وصفه الأستاذ الدكتور سهيل زكار فى مقدمة الجزء السادس من موسوعته الشامية. شارك ريمون دى جيل فى الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦–١٠٩٩م)، وكتب مؤرخا لحوادثها. ولهذا عُدّ كتابه: "تاريخ الفرنجة الذين استولَوْا على القدس"، على ركاكة أسلوبه، عملا وثائقيا هاما لهذه المرحلة من تاريخ

المنطقة. كتب ريمون دى جيل فى تاريخه هذا عن استعداد الجيش الصليبى لمهاجمة مدينة معرة النعمان (سنة ١٠٩٨م)، التى يقول عنها: "ذات التعداد الكبير من السكان"، وذلك بعد أن هاجم هذا الجيش مدينة البارة المسلمة و"قتل الآلاف واستعبد آلافا غيرهم وأرسلهم ليُبَاعوا كرقيق فى أنطاكية".

كتب ريمون عن سقوط المعرة وإبادة سكانها: "أعطانا الرب الموجود دومًا المدينة حسبما وعد رسلها. غير أن بعض حَمَلة الصليب ممن لم يعبأ بحياته، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة، استمروا فى مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام. وهكذا حصل الفقراء على حصة الأسد من الغنائم والبيوت فى معرة النعمان، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة. وفى هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون فى مغائر تحت الأرض. وبالفعل لم يظهر منهم أحد فى الشوارع. واستولى المسيحيون على جميع السلع التى كانت فوق الأرض، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لإخراجهم من مغائرهم. وخيب نهبهم للمغائر آمالهم. وعندها عذبوا كل واحد من المسلمين وصلت أيديهم إليه حتى الموت. . . وقد رُمِيَتْ جثث المَعَرِّيِّين فى السباخ والأماكن الواقعة خلف الأسوار. وعلى العموم، ولِما تقدم من أسباب، لم تمنحنا المعرة الكثير من المنهوبات".

ثم يسترسل ريمون دى جيل، فيقول بكل أَرْيَحيَّة: "وما لبث أن أصبح شح الطعام حادا إلى درجة أن المسيحيين كانوا يأكلون، بكل متعة وتلذذ، جثث المسلمين الجائفة التى كانوا قد رَمَوْها فى السباخ قبل أسبوعين أو ثلاثة. وأثار هذا المشهد الاشمئزاز فى نفوس العديد من الحجاج والغرباء. ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردّى الأوضاع فَقَدَ الكثيرون الأمل فى وصول تعزيزات فرنجية، فقفلوا عائدين. وكانت ردود فعل المسلمين والأتراك وتعليقاتهم على ما شاهدوه قولهم: إن هذا العرْق العنيد الذى لا يعرف الرحمة، ولم يزحزحه الجوع أو السيف أو شتى المخاطر لمدة عام عن أسوار إنطاكية، ويتلذذ بأكل اللحم البشرى، لا يُمكن أن يُقاوَم أو يُقْهَر. مَن الذى يستطيع فعل ذلك؟ . . . ولم ندرك وقتها وَقْع ذلك وأثره، وأن الرب قد جعل منا سببا من أسباب الرعب" (انظر الترجمة الكاملة للكتاب فى: الموسوعة الشامية، ترجمة سهيل زكار، المجلد٦، ص٢٣٦-٢٤٧).

أمين معلوف (لبنانى مسيحي) عقد فصلا كاملا فى كتابه: "الحروب الصليبية" بعنوان "أكلة لحوم البشر فى المعرة". ينقل أمين معلوف، عن المؤرخ الفرنجى رادولف دى كين: Radulph of Caen، هذا النص من تاريخه: "كان جماعتنا فى المعرة يغلون وثنيين (المقصود المسلمين) بالغين فى القدور، ويشكّونَ الأولاد فى سفافيد (أسياخ) ويلتهمونهم مشويين" (ص ٦٣). أما

المؤرخ ألبير دى آكس (Albert of Aix)، الفرنجى أيضا والذى كان من المشاركين فى حصار المعرة وشاهدَ عيَانٍ على ما حدث فيها، فقد كان أكثر صراحة فى وصف ما حدث. فقد كتب يقول: "لم تكن جماعتنا لتَأْنفَ وحَسْب من أكل قتلى الأتراك والعرب، بل كانت تأكل الكلاب أيضا". إلا أن ترجمة أمين معلوف بحاجة إلى إعادة نظر، لأن العبارة كما كتبها ألبير دى أكس هى " Nam Christiani non solum Turcos vel Sarracenos occisos, verum etiam canes arreptos"، وترجمتها الحرفية: "ليس فقط لم يتردد المسيحيون منْ أكل قتلى الأتراك والعرب، ولكن حتى الكلاب". وما لم يذكره أمين معلوف فى كتابه هو أن هناك مؤرخا آخر قد ذكر تلك الحوادث بشكل فوتغرافى، إن صح التعبير، لتصوير هذا الفعل. فقد كتب فالتشر أوف تشارترز (Fulcher of Chartres) ما يلى: الكثير منا، بسبب مضايقات جنون الجوع، قَطَعُوا قطعًا من لحم مؤخرات (buttocks) العرب الموتى هناك ثم طبخوها، ولكن قبل أن تنضج بالنار التهموها بأفواه وحشية.

أترى كل هؤلاء المؤرخين الفرنجة كلهم افْتَرَوْا على هذا الجيش الذى رفع لواء العقيدة؟ لا أعتقد ذلك. وليس السبب فى ذلك كثرة المؤرخين وتعدد الروايات وتواتر الأخبار، ولكن بسبب أنه فى السنة التالية على هذه الحادثة

أرسل بارونات الحملة الصليبية رسالة رسمية إلى البابا يخبرونه فيه: اجتاحت الجيشَ مجاعةٌ فظيعةٌ فى المعرة وألجأتهم إلى ضرورة جائرة هى التقوّت بجثث المسلمين".

وفى كتابه: " Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem" يشير ستانلى لين بول إلى رواية تقول إن ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا، حين كان فى عكا أثناء اشتراكه فى الحروب الصليبية، سقط مريضا واشتهت نفسه بقوة أن يأكل لحم الخنزير، وهو ما لم يكن متوافرا فى بلاد المسلمين، فما كان من أحد الفرسان الدهاة إلا أن ذبح له طفلا مسلما سمينا، وقدمه له على أنه لحم خنزير. كما أن ريتشارد ذاته قد أمر بنحر سجنائه المسلمين وقدمهم طعاما شهيا على مأدبته لمن كانوا يأكلون معه. وهذا نص ما كتبه لين بول بالإنجليزية[1]:

"The most celebrated English romance of the Middle Ages relating to Saladin is the Romance of Richard Coeur de Lion, which appears to have taken its present shape about the beginning of the fourteenth century. In this dreary poem we find Richard, lying sick before Acre, demanding pork with an invalid's persistence. His attendants are in despair, because pork is not easily procured in a Mohammedan country. A crafty old knight hits upon a perfect substitute. He kills a plump young Saracen, and Lionheart finds it excellent "pork." With a refinement of hospitality he tries the new dish on his Saracen prisoners, and bids them to a state banquet, where each man's plate is garnished with the head of a particular friend. Richard himself presides

---

[1] Stanley Lane-Poole, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, G.P. Putnam's Sons, New York- London, 1898, PP. 377- 378.

at this Pelopeian feast, and gpracefully carves a Saracen's head by way of encouragement." Friends!" he exclaims, seeing a not unnatural hesitation among the convives:

Frendes, be nought squojrmous!
This is the maner of my hons,
To be servyd ferst, God it wot,
With Sarezynes hedes abouten al hot".

وجاء فى كتاب الشهاب الحجرى المسمى: "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، وتم تأليفه فى أوائل القرن السابع عشر، أنه قد طالع كتابا أجنبيا لبدرو طشابر ذكر فيه مؤلفه أنه ركب البحر من بلاد البرتغال متجها إلى الغرب نحو بلاد الهنود الحمر ودار حول الكرة الأرضية، وأنه قد مر بجزيرة كبيرة من جزر المشرق دخل الإسلام فيها قبل وصوله إليها بنحو مائة وثلاثين عاما، وتسمى بـ"جاوش"[١]، فصار أهلها مسلمين، وأنهم كانوا قبل إسلامهم يأكلون "لحم آدم" بنص تعبيره، والمراد أنهم كانوا يطعمون اللحم البشرى، أى كانوا من أكلة لحوم البشر[٢].

وفى موقع "الموسوعة المسيحية العربية"، وتحت عنوان "أكل لحوم البشر"، نطالع شيئا غريبا مزعجا يبلبل العقل والقلب والضمير هو أن فى أمريكا شركة تبيع اللحم البشرى لمن يريد، وتتفاخر بأنها تقدم دائما الأجود.

---

[1] أَلَعَلَّها جاوة؟

[2] انظر الشهاب الحجرى/ رحلة أفوقاى أو مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب/ تحرير د. محمد رزوق/ دار السويدى بأبو ظبى والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت/ ٢٠٠٤م/ ١٠٠.

جاء فى المقال: "شركة أمريكية تبيع لحوم البشر على موقع إنترنت! ثمة من لا يزال يأكل لحوم البشر ويتلذذ بها، ليس فى مجاهل أفريقيا أو غابات الأمازون، بل فى الولايات المتحدة الأمريكية البلد الذى يُوسَم بأنه منبع الحضارة الحديثة، وحامى حقوق الإنسان. تعالَوْا معنا نستعرض أحد المواقع التى تقدم لحوم بشر على شبكة الإنترنت بكل وقاحة وبشاعة.

اسم الموقع: "manbeef"، وهو موقع تابع لشركة مختصة بتقديم لحوم البشر أنشئت منذ عام ١٩٨٢ فى الولايات المتحدة الأمريكية لها ثلاثة فروع فى كل من نيويورك وتكساس وكاليفورنيا، وتتباهى فى مساحات الإعلان الخاصة بها بأنها الأفضل بين شركات تقديم لحوم البشر من حيث الجودة، وتَعِد العملاء دائما بتطوير مستمر وخدمات مميزة.

طبق اليوم: ستجد فى الموقع قسما خاصا لطبق اليوم، أو ما يسمى بـ"الوصفة اليومية". ويستعرض هذا القسم طريقة تحضير لحوم البشر مع الشوربة مثلا أو شَىٍ أو . . . إلخ. ومن أجل سهولة اختيارك للجزء الذى تريد فقد تم تصميم صورة بواسطة برنامج "فلاش" لجسم الإنسان من خلاله تستطيع التعرف على أجزاء الجسم وميزة كل جزء على حدة من ناحية اللذة والمذاق.

وقد عممت الشركة هذه الخدمة على كافة أنحاء العالم مؤخرا، وهى تعد بأن توصل لك وجبتك إلى باب منزلك. وتقدم الشركة هدايا مع الوجبات

مثل قبعات خاصة بالشركة وقمصان وغيرها تحمل شعار الشركة وكلمة "تناول لحم البشر" !" .

وقد دفعنى الاستغراب والانزعاج والتشكك إلى البحث عن هذا الموقع، فقرأت أن الأمر مجرد خدعة أو مقلب (a hoax)، وأن صاحبه إنما أراد أن يروج بضاعة له أخرى، فقاده تفكيره إلى اختراع هذه الكذبة. هكذا قالوا، وإن كانت تقاليع الأمريكان لا تنتهى، كما أن حماقتهم وجنونهم يدفعانهم إلى ما لا يمكن تصوره أحيانا . بل ربما كان الأمر جدا، ثم لما شمت خبره الشرطة وتحركت الدولة قيل إنه مجرد مقلب. من يدرى؟ ثم أضاف المقال أن الموقع قد بيع لناس آخرين يستخدمونه لنشر المواد الإباحية الجنسية. وهذا نص الكلام كاملا بالإنجليزية:

"According to some ancient authors Lycaon made Zeus very angry because he sacrificed on the god's altar a boy in honor to Zeus himself. Other writers said that he invited Zeus to a banquet and offered him a meal, containing meat from a roasted human being. Finally, there is also a story about the sons of Lycaon, who cooked soup from the entrails of a sheep and a goat, together with the entrails of their brother Nictimos. They presented this meal to Zeus, who was visiting them as a simple traveler. Due to any of these reasons Zeus transformed Lycaon and his sons into wolves (in Greek lykos means "wolf") and also he sent a thunderbolt which struck Lycaon's house.

Pausanias noted that someone else was transformed into a wolf as well (in the same manner as

Lycaon) during a sacrifice to Zeus Lycaeus. People believed that a person who became a wolf could be again changed into a man if he did not eat any human meat during ten years, otherwise he had to stay in the shape of a wolf for the rest of his life.

According to the myths, the story about Lycaon from Lycosoura and his sons happened before the great Flood, in the period when Cecrops was the Athenian king. Cecrops put on the sacrificial altar only pelanoi (home made cakes). They said that the primitive manners used by the Pelasgian tribes -- like human sacrifices -- were one of the reasons why Zeus decided to exterminate mankind by a Flood. Nevertheless, the people in Arcadia survived and gave raise to other mythical stories later on".

وفى "خريف البطريرك" لجابرييل جارسيا ماركيز نرى الدكتاتور الدموى الأمى الجاهل يقتل وزير دفاعه، إذ كان ينوى أن يقوم بانقلاب عليه، فما كان منه إلا أن أعدمه وأمر بشَيّه وتقديمه طعاما للضباط الذين اشتركوا معه فى تلك المؤامرة، مجبرا إياهم على أن يأكلوا لحمه المشوى: "فُتِحَت الستائر، وتم دخول جنرال الفرقة العسكرية رودريغو دى أغيلار العتيد علَى طبق من فضة ممددا بكامل طوله على زينة من القنَّبيط والرَّنْد منقوعا بالتوابل، مذهَّبا بالفرن، متبَّلا ببزّته ذات اللوزات الذهبية الخمس العائدة إلى المناسبات الكبرى وضفائر الشجاعة غير المحدودة على كمَّيْه المشمَّرَيْن عن ذراعيه الشبيهتين بجناحى طائر الطرسوح البحرى، سبعة كيلوغرامات من الميداليات على بطنه وعذق بقدونس فى فمه، جاهزا لأن يقدَّم طعاما فى وليمة الأصدقاء من قبَل القصابين الرسميين أمامنا، نحن جميع المدعوين المتحجرين من الهول، وقد حضرْنا متقطعى الأنفاس الاحتفالَ الشهىَّ بالتقطيع والتوزيع. وعندما تم وضع قطعة من وزير

الدفاع المحشو بالصنوبر والبقول فى كل صحن أعطى الأمر بالشروع: كلوا هنيئا سادتى !"[1].

ويمكن أن نورد هنا ما ذكره د. إمام عبد الفتاح إمام فى كتابه: "الطاغية" من رواية تقول إن فلاريس، طاغية أجريجنتم من أعمال صقلية فى منتصف سبعينات القرن السادس قبل الميلاد، كان يشوى المساجين من أعدائه فى مملكته بأن يضعهم داخل ثور نحاسى ضخم ثم يوقد تحته نارا هادئة بعد أن توضع قصبتان تشبهان المزمار فى منخرى الثور بطريقة تتحول بها أنات المساجين وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه إلى نغمات وألحان موسيقية شجية. إلا أن الرواية التى أوردها الأستاذ الدكتور لم تذكر لنا هل كان هناك من يأكل هذا الشواء أم هل كان كل هم الطاغية هو شَىّ أولئك المساكين فحسب[2].

واليوم، الأربعاء ٢٥ مارس ٢٠١٥م، قرأت على المشباك فى موقع "العين الثالثة" تحت عنوان "صينى يطبخ والديه مع الأرز" الخبر التالى: "أقدم شاب صينى على قتل والديه وتقطيع جسديهما إلى أجزاء صغيرة وضع بعضها فى الثلاجة، بينما تم طبخ الأجزاء الأخرى مع الأرز بحسب تقرير صحيفة "ساوث تشاينا مورنينج بوسط" الصينية. وكان قد تم اكتشاف الضحايا فى مارس عام ٢٠١٣ عندما عثرت الشرطة على بقايا الزوجين فى ظروف مروعة حيث تم تخزين رؤوسهما

---

[1] غابرييل غارسيا ماركيز/ خريف البطريرك/ ترجمة محمد على اليوسفى/ ط٣/ دار المدى للثقافة والنشر/ بيروت/ ٢٠٠٨م/ ١٤٠– ١٤١.

[2] انظر د. إمام عبد الفتاح إمام/ الطاغية/ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت/ سلسلة"أعلام العرب"/ العدد ١٨٣/ مارس ١٩٩٤م/ ١٢٩/ هـ٤٢.

وأعضائهما فى الثلاجة، فى حين تم تقطيع أجزاء أخرى وطبخها مع الأرز. أدانت هيئة المحلفين بالمحكمة العليا فى هونغ كونغ بالاجماع الشاب، وقال مايكل ستيوارت مور القاضى الذى ترأس المحاكمة إن هنرى تشاو "فاشل بشكل كامل فى الحياة والروح" وإنه "رجل خطير للغاية "، مشيرا إلى أنه لا يعانى من أى أمراض نفسية، وسوف يتم إصدار الحكم على هذا الأساس. وعلى الرغم من أنه تم تأجيل الحكم على تشاو إلا أن مور أشار إلى أنه يمكن توقع عقوبة قاسية نظرا للطبيعة البشعة للجريمة، والأدلة التى تم العثور عليها والتى تثبت أنه قتل والديه بدون سبب" .

ومن هذا يتضح أن أكل لحوم البشر كان ولا يزال معروفا عند مختلف الشعوب وليس أمرا خاصا ببعض الزنوج، وأنه كان موجودا طوال التاريخ فى الواقع وفى الأساطير. بل إن بعض المفكرين الأوربيين قد حملوا على أبناء جنسهم واتهموهم بظلم الجنس الزنجى مؤكدين أن ما أنزله الغربيون على الشعوب الأخرى من مظالم بشعة يفوق وحشية أكل اللحم البشرى.

متفرقات فى "روبنسون كروسو"

سندرس فى هذا الفصل القضايا التى لم نتعرض لها فى الفصول السابقة لأنها لم تقع تحت أى من عناوينها ، فحشدتها كلها فى فصل واحد لأن أيا منها لا تستطيع أن تقوم بفصل خاص بها . وأولى القضايا المتفرقة التى أحب أن أعرض لها هنا المستوى الحضارى والثقافى الذى كانت عليه بلاد الزنوج إِبَّانَ الهجمة الاستعمارية الغربية على بلادهم. ففى ص٢٨ مثلا يتحدث البطل عن وقع صوت الرصاص الذى أطلقه من بندقيته والنار التى خرجت من ماسورتها على نفوس الزنوج الذين قابلهم على شاطئ المحيط الأطلسى جنوب بلاد المغرب، فقال إنهم كادوا يموتون من الرعب، وغُشِىَ على بعضهم بسببه. وهذا يعطينا فكرة عن مدى التخلف الذى كان يفصل أهالى تلك البلاد عن بقية العالم. وللعلم لم يكن الأوربيون قد تفوقوا علينا نحن المسلمين، إذ لم تكن نهضتهم قد استحكمت أو استحصدت بعد . والدليل على ذلك أن البحر المتوسط كان يدين بالسيادة للمغاربة فى ذلك الوقت، مما كان من ثمرته أَسْرُهم البحارةَ والجنودَ الأوربيين الذين يدخلون معهم فى معارك على مياهه، ومنهم بطل الرواية، الذى وقع أسيرا فى يد أحد المغاربة وقضى فى العبودية عنده زمنا غير قصير.

ومعروف أن الأوربيين قد استغلوا هذا الفارق الحضارى العلمى فى مواجهاتهم مع الشعوب المتخلفة أبشع استغلال، إذ كانوا مثلا يضحكون على الأفارقة وأشباههم، وكانوا عراة أو أشباه عراة يعيشون عيشا أقرب إلى عيش الوحوش، فيعطونهم كِسَر الزجاج الملون ويأخذون منهم فى مقابله الألماس والذهب وما أشبه. ولكى يأخذ القارئ فكرة عن عقلية القوم أشير إلى تصرف الشاب الهندى الذى كان فى سبيله إلى أن يلتهمه أمثالُه من الهنود ممن انتصروا على قومه وأسروه هو وبعض أفراد منهم وأَتَوْا بهم إلى الجزيرة المهجورة كى يتخذوا منهم وليمة بعد ذبحهم وسلخهم وتقطيعهم وشَيِّهم، لكنه استطاع الإفلات منهم والنجاة من المصير الحالك الذى كان ينتظره، إذ ظهر بطل الرواية فى تلك اللحظة وأطلق عليهم الرصاص وقتل عددا منهم، ففر الباقون. ذلك أن الشاب الناجى حين شاهد سقوط عَدُوَّيه إلى الأرض خاف جدا من نار البندقية وصوتها ووقف جامدا كأنه حجر فلم يتقدم أو يتأخر. وكان، لهذا السبب، يؤثر الفرار من كروسو على الإتيان إليه حتى إنه، بعد أن شجعه كروسو وطمأنه، ظل مشدوها لا يفهم كيف استطاع كروسو أن يقتل بعض أولئك القوم وهو بعيد عنهم لم يشتبك معهم بيديه (ص٢٠١- ٢٠٣).

وكان الشاب المسكين يظن أن فى البندقية مبدأ للموت قادرا على إماتة الإنسان والحيوان والطير قريبا كان أو بعيدا. وكان يرهبها ولا يريد أن يلمسها،

لكنه كان يتكلم معها كلما انفرد بها طالبا منها ألا تقتله. وقد أخذ الأمر منه وقتا قبل أن يفهم الوضع على حقيقته. وقد بلغ من استغرابه أن يقول كروسو إنه لو كان قد طلب منه أن يعبده ويعبد بندقيته معه لَلَبّى طلبه عن طواعية تامة (ص٢٠٩– ٢١١) .

كذلك تنبغى الإشارة إلى ما كان يظنه بعض البرابرة الآخرين فى بطل الرواية حين رَأَوْه يطلق عليهم النار من بندقيته، إذ تصوروا أنه روح سماوى أو إله انتقام نزل من السماء ليهلكهم. لقد حسبوا أن النار والفرقعة اللتين صدرتا عن البندقية إنما هما الرعد والبرق، فلم يكن بمستطاعهم تخيل أن الإنسان يمكن أن يُخْرِج من جسمه نارا، ويتكلم رعدا، ويقتل عن بعد من دون أن يرفع يديه كما حدث منه تجاه زملائهم الذين قتلهم بالرصاص. وكانت النتيجة أنهم هم وأهليهم لم يفكروا فى المجىء مرة أخرى إلى الجزيرة جَرَّاءَ هذا الاعتقاد وما شعروا به من رعب، إذ كانوا يظنون أن كل من يذهب إلى تلك الجزيرة المسحورة تهلكه نار الآلهة (٢٣٥– ٢٣٦) .

كما تدلنا الرواية على الغنى الهائل الذى كان بمستطاع الأوربى أن يحرزه متى وصل إلى أمريكا الجنوبية، التى كانت بالنسبة للعالم القديم أرضا بكرا واعدة بالآمال الكِبَار العِرَاض. ومن بين ما أذكره بهذه المناسبة أن الأفارقة، حسبما قرأتُ أو سمعتُ ذات مرة، كانوا يتهيبون الرجل الأوربى حين يَرَوْنه يضع

الغليون فى فمه فتتوهج النار فى تبغه عند شده نَفَسه، أو حين يضع يديه فى جيبه ثم يخرجهما دون أن يصاب بأذى، ظنا منهم أنه إنما يغرزهما فى جنبيه ويدخلها بطنه ثم يستلهما ببراعة فتخرجان نظيفتين لم تلوثا بالدم. وكان الأوربيون يستغلون هذا الموقف أيما استغلال فيسرقون منهم أغلى ثرواتهم الطبيعية لقاء بعض ما لا قيمة له البتة مما رَأَوْا أنه يعجب أولئك المساكين ويبهرهم.

وأنا هنا لا أعيب الأفارقة وأشباههم، بل أنبه فقط إلى خطورة التخلف العلمى، وما أكثر ألوان التخلف وأفظعها ! وقد سجل الجبرتى فى تاريخه عن الحملة الفرنسية مثلا رد فعل المشايخ الأزهريين حين أخذهم قواد الحملة الفرنسية إلى بعض مختبراتهم العلمية وأَجْرَوْا أمامهم بعض التجارب التى أثارت دهشتهم وفزعهم. هذا، ومصر ليست أفريقيا، فهى دولة ذات تاريخ فى الحضارة طويل ربما كان الأطول فى تاريخ الدول، كما أنها كانت قبل ذلك بقليل من أكبر دول العالم الإسلامى صاحب الحضارة والعلوم الذى كانت مدنه تضج بالعلم والعلماء، ويأتى الأوربيون ليقعدوا عند أقدامهم يتعلمون عليهم ويترجمون عنهم ويتباهَوْن بذلك.

وهذا ما قاله الجبرتى، وقد أورده فى حوادث شهر رجب عام ١٢١٣هـ، والكلام عن الفرنسيين: "وأفردوا مكانًا فى بيت حسن كاشف

جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى. ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المقيَّدين لذلك أخذ مرة شيئًا قليلا جدا من غبار أبيض وضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلهما فى الماء، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا مسك علقاتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئًا من ثيابه أو شيئًا متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا" . وواضح أن الكلام فى النص هو عن البارود

والكهرباء . فهل ترى فرقا حاسما بين رد فعل المشايخ عند سماعهم فرقعة البارود وبين رد فعل الزنوج عند سماعهم إياها ؟

ومن هنا ترانى لا أكف عن استفزاز الطلاب بكل وسيلة إلى أن يذهبوا إلى المكتبات ويقرأوا ويفكروا ولا يضيعوا أوقاتهم فيما لا يفيد ويبتعدوا عن الملخصات السقيمة التى لا تربى ذهنا ولا تشبع عقلا سليما والتى يستعيضون بقراءتها قبل الامتحان بأيام معدودات عن قراءة الكتب التى يضعها كبار العلماء والمؤلفين، معرفةً منى أن العلم ركن خطير من أركان الحضارة لا يمكن أن تستغنى مسيرة أية مجموعة بشرية عنه، وإلا حاق بهم التخلف والذلة والمهانة والفقر وطمعت فيهم الدول القوية، ونهبت أموالهم وأكلتهم أكلا. وهو ما فصلت فيه القول تفصيلا فى كتابى: "الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ" .

* * *

ومما ينبغى الالتفات إليه ولفت نظر الآخرين له أيضا ما ورد بالرواية (ص٢٩ من الترجمة) من أن الزنوج فيها كانوا يأكلون لحم النمور. تقول الرواية على لسان بطلها: "ثم لاح لى أن أولئك السودان كانوا يريدون أن يأكلوا لحم ذلك النمر، فأكرمت عليهم به معروفا منى إليهم، فقبلوه بالشكر الجزيل والفرح، وأخذوا فى الحال يشتغلون فيه. وإذ لم يكن معهم سكين سلخوه بقطعة

خشب حادة بأوفر سرعة وسهولة مما يمكننا أن نعمله نحن بسكين. ولما انتهَوْا من سلخه وأخذوا فى تقطيعه عرضوا علىَّ قطعة من اللحم، فأبيت قبولها متظاهرا بأنى أريد أن أوفرها لهم. إلا أنى أشرت إليهم بأنى أريد الجلد، فأعطَوْنى إياه حالا بكل رضا وقبول. ثم أعطَوْنى معه كثيرا من زادهم، فقبلته منهم شاكرا، إلا أنى لم أكن أعلم ما هو".

ومن المعروف أن الشعوب والأمم وأصحاب الأديان المختلفة يختلفون فى مسألة ما يأكلونه من لحوم الحيوان وما لا يأكلونه. وفى العهد القديم نص واضح لا مِرْيَة فيه بالحيوانات والطيور التى يحرم على اليهودى أكلها، وهى كثيرة. وكنت، وأنا طالب أزهرى صغير، قد درست موضوع "الذبائح" فى الفقه الشافعى، وكان علينا أن نحفظ أصناف الحيوانات التى تَحْرُم على المسلم وأسماءها حسب ذلك المذهب، وكانت متشعبة. ثم صنفتُ قبل نحو عشرين سنة كتابا عن سورة "المائدة"، وفيه باب عن الموضوعات التى تناولتها السورة، ومنها الذبائح، فاتسعت فى القراءة عن تلك المسألة غير متقيد بما يقوله الشافعية أو غيرهم، فوجدت أبا الأعلى المودودى مثلا، بعد أن استقصى الأمر فى تفسيره للقرآن المجيد استقصاء شديدا، يذكر أن الأصناف التى أجمع على تحريمها فقهاء المسلمين هى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله ليس غير، وما عداها أمور خلافية. أى أن أولئك الزنوج، لو كانوا مسلمين، لكان

لهم باب ووجه فيما أكلوه من لحم النمر. ترى هل يفعلها شيخ مصرى فيفتى بحلية الحيوانات والطيور التى لم يجمع على تحريمها الفقهاء فيحل مشكلة اللحم فى أرض الكنانة وتهبط أسعارها، وربما لا تجد من يشتريها، فيعيش الناس فى ثبات ونبات دون أن يحملوا هما لتدبير الطعام واللحومات؟ لا أقصد أنى أحبذ هذا رغم أننا صرنا نسمع من الفتاوى ما تتضاءل تماما أمامه فتوانا هذه، التى تعد شيئًا ملائكيا بالقياس إليها، لكنى أحاول أن أترك لخيالى العنان لأرى ماذا يمكن أن يحدث.

وقد قرأت منذ عدة عقود فى بعض الصحف أن الحكومة الصينية، مواجهةً منها لمشكلة توفير الطعام لأكثر كثيرا من مليار صينى، دعت الشعب إلى ألا يترك شيئًا يمكن أكله دون أن يأكله، بما فى ذلك الديدان وأوراق الشجر. كما تذكرت الآن كيف نصح الشيخ الغزالى، فى كتابه: "مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه؟"، من يذهب مثلا إلى كوريا للدعوة إلى الإسلام ألا ينكر على أهلها إذا رآهم يأكلون لحوم الكلاب على اعتبار أن حرمة لحم الكلب غير مُجْمَعٍ عليها. وفى كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" للجزيرى عن المالكية: "لهم فى الكلب قولان: قول بالكراهية، وقول بالتحريم، والثانى هو المشهور. ولم يقل بحِلّ أكله أحد. وقالوا: يؤدَّب من نَسَبَ حِلَّه إلى مالك". وهذا نص كلام الغزالى: "أُوصِى الدعاة الذين يذهبون إلى كوريا ألا

يُفْتُوا بتحريم لحم الكلاب، فالقوم يأكلونها، وليس لدينا نص يفيد الحرمة، ولا نريد أن نضع عوائق أمام كلمة التوحيد وأصول الإسلام" . وهناك من يخالف الشيخ فى هذا كالدكتور سلمان العودة (فى كتابه: "حوار هادئ مع محمد الغزالى)، وهناك من يوافقه (كنجدت لاطة فى مقال له بعنوان "مشكلة الموسيقى مع الفتاوى المعاصرة" منشور فى مجلة "رابطة أدباء الشام" الضوئية) . وأذكر الآن أيضا ما حكاه لى فى أوائل ثمانينات القرن الماضى مصرى فى لندن كان يشتغل مع بعض الكوريين والصينيين من أن واحدا منهم يعرفه كان، إذا أراد أن يأكل كلبا أخذه وجَرَّاه فى الشقة دون هوادة حتى تتقطع أنفاسه، ثم يمسك به وهو مرهق فيغطه فى ماء البانيو حتى يختنق دون مقاومة تذكر، ثم يقوم بسلخه وطبخه وأكله . وفى مادة "Taboo food and drink" بـ"الويكيبيديا" أن أكل لحوم الكلاب كان منتشرا فى ألمانيا أوائل القرن العشرين، وأن المكسيك كانوا فى يوم من الأيام يأكلون لحم ضرب من الكلاب ليس له شعر . وبعض الشعوب تأكل لحم القرود، وبعضها يأكل الأفاعى، والفرنسيون وغيرهم يأكلون الضفادع ويستلذونها . وكنت، عقب عودتى من بريطانيا فى أوائل ثمانينات القرن الفائت، أرى صبيان القرية يصطادون الضفادع ليلا من المصرف المار بها، وأخبرونى أنهم يوردونها للفنادق الفاخرة فى القاهرة لتقديمها لنزلائها الفرنسيين الذين يحبونها . وبعض الجماعات لا تأكل السمك . وكتب ابن فضلان أن بعض

من مر بهم فى رحلته السّفَارّية إلى ملك البلغار فى أوائل القرن الرابع الهجرى بتكليف من المقتدر بالله الخليفة العباسى، شاهد ناسا يأكلون القمل ويستطعمونه. ثم إن للمصريين غراما وولعا بالفسيخ، وما أدراك ما الفسيخ ونتانته وطريقة صنعه التى تقلب المعدة، وكذلك الجبن القديم وما فيه من مش، ولا أزيد !

ثم ها هو ذا بطل الرواية يذكر (ص٧٣) أنه، حين كان يعيش وحده بالجزيرة المهجورة، قد اصطاد ذات يوم قطا وصف جلده بالنعومة، ثم أعقب هذا بقوله: "إلا أن لحمه كان رديئا لا يؤكل". وهو ما قد يعنى أنه كان ينوى أن يأكله، لكن طعمه كان منفرا. كما اصطاد فى يوم آخر طائرا أكله، فكان طيب المذاق، دون أن يعرف أى طائر هو، مما يدل على أنه لم يكن يراعى عوائد قومه فى الطعام، وإلا لتوقف حتى يعرف نوع هذا الطائر، وهل هو مما يأكله البريطانيون أو لا. كذلك نراه يأكل بيض السلاحف، وبقشره أيضا، دون أى تردد أو تململ أو تفكير (ص٩١، ٩٤)[1]، بل ويأكل السلاحف ذاتها (ص١٠٣)،

---

[1] وقد أشار كروسو إلى أن الهنود (الحمر) يصنعون خبزهم من نبات الشرس (ص٩٨). ومع أنى لا أعرف ما نبات الشرس هذا (بل لم أجد شيئا عنه فى"محيط المحيط" للبستانى نفسه رغم وجود مادة "شرس" بل رغم وجود الكلمة ذاتها، لكن بمعان أخرى غير ذلك النبات) فالعبرة أنهم لا يصنعونه من الذرة أو القمح كما نفعل فى مصر مثلا، بل من نبات آخر. وهكذا تختلف الأمم والشعوب فى أطعمتها: مادةً وطريقةً. كذلك قال كروسو إن

وإن كان يمكن القول بأن كروسو كان مضطرا، و"المضطر يركب الصعب" كما يقال. وفى القرآن: "فمن اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم". لكن الطعام المعتاد، فى الواقع، كان متاحا له من حيوان وطير فى تلك الجزيرة، التى كانت ألوان الخيرات فيها موجودة بوفرة، والحصول عليها بالغ السهولة. وقد ذكر أيضا أن الجزيرة كانت مملوءة بالأرانب والثعالب (ص١٠٨)، إلا أنه لم يفكر فى أكلها لأن المعزى واليمام والسلاحف كَفَتْه التطلع إلى ذلك. أى أنه كان يمكن أن يأكل لحم الثعلب لولا أن عنده البديل الكافى. ولنلاحظ أنه سَوَّى فى ذلك بين الأرانب واليمام والثعالب دون أى فرق.

وكان العرب فى الجاهلية يأكلون الدم المسفوح والميتة، فحرمهما الإسلام. وربما كانوا يأكلون الخنزير أيضا، وقد حرمه الإسلام كذلك. ومن العجيب أن يعزو عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه: "محمد رسول الحرية" ذلك التحريم إلى أن اليهود كانوا يربونه ويتاجرون فيه ويبيعونه للمسلمين، فأراد الرسول أن يحاربهم اقتصاديا فحرّمه. وواضح أن هذا التحليل والتعليل ذو نكهة ماركسية. وعجيب أيضا أن يقول الشرقاوى ذلك، واليهود لايطيقون الخنزير، ويتشددون فى التورع عنه تشددا هائلا كما نعرف جميعا، إذ هو محرم فى ديانتهم أفظع

كثيرا من الأسارى الإنجليز فى بلاد البربر كانوا يموتون جراء الإكثار من أكل العنب، إذ كان يصيبهم بالإسهال والحُمَّيَات التى لا يبرأون منها (ص٩٩).

تحريم حسبما هو معروف لكل الناس إلا للشرقاوى. ومن أعجب العجب أن يتجاهل الشرقاوى بتعليله الغريب لتحريم لحم الخنزير فى الإسلام أن هذا التحريم قد تقرَّر فى القرآن قبل أن يهاجر الرسول عليه السلام إلى المدينة ويصطبح بخلقة اليهود، إن كان اليهود يتاجرون فى الخنزير حقا، وهو ما لم يقله التاريخ فى أى كتاب. ثم إذا كان الأمر كذلك فلم يا ترى لم يَدْعُ الرسول أتباعه إلى مقاطعة اليهود اقتصاديا ؟ أو لماذا يا ترى لم يأمر رجاله بأن يقوموا هم بالتجارة فى الخنزير بدلا من اليهود فيغتنوا منها بدلا من هذا الحل السلبى ما دام الأمر أمر اقتصاد ومكاسب مالية كما تقول التحليلات ذات النكهة الماركسية؟ ثم من هم أولئك اليهود الذين كانوا يتاجرون فيه فى المدينة يا ترى؟

ومن طرائف سلوكيات الشعوب أن الهنود مثلا، رغم فقرهم المدقع، لا يأكلون لحم البقرة لأنهم يقدسونها تقديسا . وكم ثارت بينهم وبين المسلمين فى الهند المعارك الطاحنة لأن المسلمين يذبحونها ويأكلونها . وقرأت الليلة خبرا عن البقرة فى الهند يقول عنوانه: "بالفيديو: ٥٠٠٠ هندى يحضرون زفاف البقرة جانجا" . وفى الهند أيضا من يمتنعون عن اللحوم تماما، ويُسَمَّوْن بـ"النباتيين" . وفى العالم من لا يقرب اللحم ويكتفى بالسمك، وهم السمكيون. والأمريكان، حسبما جاء فى مادة "Taboo Food and Drink" من موسوعة

"الويكيبيديا"، لا يأكلون القطط ولا الكلاب ولا الخيل باعتبارها حيوانات تعمل وتخدم الإنسان أو صديقة له. كذلك لا يأكل الأمريكان الحوت لأنه ذكى، فهو قريب إذن من الإنسان، وأكله يذكّر بأكل لحوم البشر، وهو ما يثير لديهم الاشمئزاز والفزع. وكل ذلك مصداق لقوله عز شأنه عن البشر: "ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربُك، ولذلك خَلَقَهم". وهو اختلاف لا يقتصر على العقائد والشرائع فحسب، بل يتعداها إلى كل شىء. كما أنه ليس منحصرا فى البشر، بل يتجاوزهم إلى جميع المخلوقات من جماد وحيوان ومعان وغير ذلك. إنه ثراء الحياة، وضعه الله عز وجل فى أصل الخلق.

وما دمنا فى الطعام وسيرته ينبغى أن أشير إلى أن كروسو قد رأى فى الجزيرة المقفرة العنب والبطيخ وقصب السكر وجوز الهند والبرتقال (ويسميه البستانى: "البردقان"[1]) والليمون والأترج والتبغ والشعير والأَرُزّ ونبات الشَّرِس

---

[1] وفى معجم "محيط المحيط" للبستانى أنه "البرتقان"، أما "البردقان" فهى الصيغة العامية. وليس لـ"البرتقال" وجود فى ذلك المعجم. وقد علل البستانى هذه التسمية بأن أهل مملكة "البرتوغال" أول من استنبته، فسمى باسم تلك المملكة. ولكن لم ترك البستانى الصيغة الفصحى إلى العامية، وهو اللغوى المعروف؟ بالمناسبة فنحن فى مصر ننطقه بالنون لا باللام مع قلب القاف همزة أو جيما حسب المنطقة السكانية. وفى معجم "الرائد" لجبران مسعود تقابلنا "البرتقال" و"البرتقان" كلتاهما، ولا وجود لـ"البردقان". وفى"المعجم الوسيط" لا نجد سوى"البرتقال"، وهو ما لا نعرف غيره فى الفصحى. وفى"معجم اللغة

وشجر الأَرْز وغير ذلك من النباتات والأعشاب والأشجار التى لم يكن يعرف اسمها، وطَعِمَ من هذه الأشياء. وهناك أكلة لحوم البشر، وهذا موضوع وحده قد عالجناه فى فصل مستقل من هذا الكتاب.

* * *

ومما رصدته الرواية فى المجتمعات البدائية عُرْى الرجال والنساء. وفى ص٢٩ من الترجمة، حين هرب البطل بقارب سيده المغربى ومعه غلام آخر لذلك المولى، قابلهما على شاطئ إحدى الجزر فى المحيط الأطلسى جماعة من السودان (أى الزنوج) عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم. يستوى فى ذلك الرجال والنساء: "وكانت النساء عريانات بالكلية كما كانت الرجال". وفى موضع آخر (ص١٨٢) يذكر بطل الرواية أنه، شاهد من بعيد من خلال منظاره المقرِّب جماعة من آكلى لحوم البشر وهم يرقصون عراة على شاطئ الجزيرة المهجورة

العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر "البرتقال"، وفيه إشارة إلى أن مهده الصين، ولا حديث عن البرتغال. ولا وجود فيه لـ"البرتقان" أو"البردقان". والطريف أنه فى الوقت الذى لا توجد فيه فى المعاجم العربية القديمة كلمة "البرتقال" أو "البرتقان" نجد فى كتب التراث أن "برتقال" (بدون ألف ولام، وهو الغالب، أو بـ"أل"، وهو الأقل) هى ما نطلق عليها الآن "البرتغال" وبدون واو كما نستعملها اليوم. ليس ذلك فقط بل إن الشعراء الثلاثة الذين قابلت عندهم كلمة "البرتقال" (باللام)، وهو المفتى فتح الله ورشيد مصوبع وخليل مطران، كلهم لبنانيون. وأولهم سابق على البستانى. فلم قال مترجمنا إذن: "البرتقان" فى معجمه، و"البردقان" فى ترجمته، ولم يقل: "البرتقال"؟

التى كان يعيش وحده عليها . وهذا تعبيره حرفيا : "وكانوا عراة بالكلية كما خلقهم ربهم" . كما قال عن بربرى أوقعته الأقدار فى أيدى هؤلاء المتوحشين لكنه استطاع الإفلات منهم وكتب الله له النجاة على يد بطل الرواية: "كان عريانا بالكلية" (ص٢٠٥)[1] . ومع هذا ذكرت الرواية أن أحدهم، وهو الشاب جمعة، الذى أنقذ البطلُ حياتَه من أكلة اللحم البشرى، حين صنع له كروسو ثيابا كان مبتهجا بها ، وسرعان ما تعوَّد عليها واستراح إليها بعد أن كانت تضايقه فى البداية وتَحُدّ من حركته، وبخاصة أن بعض أجزائها كان ضيقا عليه كالكمين مثلا (ص٢٠٦) .

وهذا نص الكلام: "رجعنا معا إلى القلعة، وأخذتُ أشتغل له بعض ملابس. وأول كل شىء أعطيته لباسا من كتان كنت قد أخرجته من صندوق الطِّبْجِىّ الذى خلّصته من ذلك المركب. . . وبعد أن غيرته قليلا كان يلائمه جيدا . ثم اصطنعت له جبة من جلود المعزى، وذلك بحسب معرفتى لأنى كنت قد صرت خياطا لا بأس به. ثم أعطيته قبعا اصطنعته من جلود الأرانب، وكان مفيدا ولطيفا . وهكذا كسوته بقدر الإمكان، فسُرَّ مبتهجا حين رأى نفسه مكتسيا جيدا نظير مُعَلِّمه تقريبا . إلا أنه كان لا يمشى بالراحة فى أول الأمر فى تلك الملابس، فإن لبس اللباس كان صعبا عليه، وكُمَّا الجبة

---

[1] فى الفلم الذى تم تصويره عن الرواية عام ١٩٥٤م كان جمعة وآكلو اللحم البشرى يغطون سوآتهم من خلف ومن قدام بسيور من الصوف أو شىء يشبه الصوف.

كانا ضيقين يتعبان كتفه وإبطه. ولكن بعد أن وسّعتهما قليلا، ولبس الجبة مدةً، تعود عليها، ووجدها هينة نافعة" . ويرى كروسو أن لجمعة وأمثاله من البرابرة المتوحشين نفس المواهب والاستعدادات التى للمتمدنين، وأن هذه النعم إذا حجبتها الظروف المعاكسة فإنها سرعان ما تتفتح وتنتعش وتعمل متى تغيرت تلك الظروف، وحينئذ لا يعود هناك فرق بينهم وبين المتحضرين، بل قد يتفوقون عليهم (ص٢٠٧) .

وقبل أن أعلق على العرى بما يكشف عن قبحه ومخالفته لما أمرتنا الأديان السماوية بستره أود أن أشير إلى أن فى المجتمعات الغربية، التى ينظر إليها الآن كثير من الناس على أنها قمة التحضر، ومن ثم المثال الذى ينبغى احتذاؤه فى السلوك والأخلاق، مَنْ ينادون بالعودة إلى اطراح الملابس والتمسك بالعُرْى وعدم الخجل من كشف العورات من خلف ومن قدام.

وقد صارت هذه الدعوة مذهبا اجتماعيا وسياسيا له أنصاره الذين يدافعون عنه ويعملون على نشره بين الناس مناصرين بكل قواهم للعرى التام، ومدافعين عن حق من يريد ممارسته فى المواضع العامة. وهناك أماكن حول العالم يمارس فيها أمثال هؤلاء هوايتهم: "أندية العراة ومستعمرات العراة وشواطئ العراة"[1] . وصارت الأفلام العريانة أمرا اعتياديا فى عصرنا هذا . وهناك المواقع

[1] تحت عنوان "إقبال متزايد على شواطئ العراة في أوروبا" قرأت فى موقع "أخبار مصرية"، يوم الأحد ١٥ يونيه ٢٠١٤م، التقرير التالى: "تحظى شواطئ العراة في أوروبا

المشباكية الإباحية التى لا تتحرج من عرض أى شىء فى هذا المجال مهما يكن شذوذه وخروجه على الدين والصحة والذوق والسلوك المستقيم بحجة الحرية

بإقبال متزايد من قبل الأوربيين والسياح الأجانب، ما جعل هذا النوع من الشواطئ ينتشر في معظم دول القارة. ورغم أن بلدانا مثل جمهورية التشيك لا تملك حدودا بحرية، إلا أن الزائر يجد أكثر من ١٠٠ شاطئ مخصص للعراة قرب السدود والبحيرات ويتردد عليها كل عاشر مواطني التشيك. وتؤكد شركة تشيبفلايتز أن شعبية شواطئ العراة في ارتفاع، مؤكدة أن نحو خمس الذين يترددون على المنتجعات السياحية في الدول الأوربية يزورون الشواطئ المخصصة للعراة، مشيرة إلى وجود نوعين من هذه الشواطئ: الأول يمكن مشاهدة العراة فيه فقط ولا يسمح لغير العراة بالدخول إليه، في حين يوجد نوع آخر يعتبر أكثر تسامحا، ويناسب الناس الذين يريدون التجسس ومشاهدة العراة عن قرب لأن التعري في هذه الشواطئ مسموح به، لكنه ليس إجباريا .

وتشير الشركة إلى أن أكثر شواطئ العراة شهرة هو بلايا ال ماغو الموجود في جزيرة مالوركا الإسبانية، وشواطئ غليكانيرا في جزيرة كريت باليونان، وشاطئ "فالاتا" في كرواتيا . أما أكثر الأوربيين شغفا بالتردد إلى شواطئ العراة فهم الألمان والفرنسيون والهولنديون والتشيك. ويشدد أصحاب هذه الهواية أنهم لا يقومون بذلك رغبة في الاستعراض أو لخلل في طبيعتهم وأمزجتهم وأنهم يفهمون التعري بأنه أسلوب حياتي وعودة إلى أحضان الطبيعية. غير أن المعارضين لهم يرون في فعلهم عملا يخلو من الأخلاق ويخدش الحياء العام. يذكر أن الألمان كانوا الرواد في ظاهرة انتشار التعرى، إذ يعود تأسيس أول ناد للعراة إلى عام ١٩٠٣ في مدينة هامبورغ، ومنها انتشرت إلى مختلف المدن الكبيرة، ومن ثم إلى خارج ألمانيا، ولاسيما في أوروبا، أما في الولايات المتحدة فساهمت حركة الهيبيز في انتشارها هناك" (http://akhbarmasryah.com/content/إقبال-متزايد-على-شواطئ-العراة-في-أوروبا) .

والتحرر. ومن بين المؤسسات التى تدعم العرى وتتحدث باسم معتنقيه وتدافع عنـهم المؤســسة المـسماة بــ" La Fédération naturiste internationale". وفى أمريكا مؤسسة أخرى تؤدى نفس الغرض، ولكن داخل الولايات المتحدة وحدها، هى " The American League of Physical Culture"، وفى كندا تقابلنا مؤسسة " Canada's national nudist organization". . . وهكذا.

وفى مادة "Nudism" بـ"الموسوعة البريطانية" (ط٢٠١٢م) أن ألمانيا هى موطن أول حركة تُنَاصِر العُرْى والمتعرّين، وكان ذلك فى ١٩٠٦م، وإن كان نظام هتلر قد عمل جميع ما يستطيع للقضاء على كل شىء من هذا القبيل خشيةً على مصير ألمانيا والجنس الجرمانى من الانحلال، إلى أن بدأت الأمور فى آخر العهد النازى تلين كما هو معروف، وأن مثل هذا اللون من الأندية قد انتشر فى الغرب عقب الحرب العالمية الأولى. وتحت ذات العنوان بموسوعة "إنكارتا" (النسخة الإنجليزية/ ط٢٠٠٦م) نقرأ أن تعرية الجسد للشمس كانت معروفة عند البابليين والآشوريين والإغريق والرومان. كما يشير بعضهم إلى الديانة الجينيسية الهندية واعتمادها، ضمن ما تعتمد، على التجرد من الملابس، الذى يُنْظَر إليه بوصفه تعبيرا عن الزهد فى الحياة وما فيها من

ممتلكات وأموال وملابس كما ورد فى النسخة الفرنسية من "ويكبيديا" (ط٢٠٠٩م) خلال مادة "Naturisme" .

ومعروف أن بعض رجال العرب ونسائهم فى الجاهلية كانوا، لدوافع دينية خاطئة، يطوفون حول الكعبة عرايا أو شبه عرايا . وكان بعض المتدروشين والنصابين والمجانين الذين يعتقد الناس فيهم الصلاح والقرب من الله أيام تخلف المسلمين فى العصور التى سبقت عصرنا هذا الحديث يسيرون فى الشارع عراة أو أشباه عراة دون أى نكير عليهم تصورا ممن يعرفهم أو يراهم أنهم مباركون من الله، وأن لمسهم يأتى بالخير. وقد يعتدى بعضهم على أعراض النساء فى الطريق العام، فيتركهم الناس دون التعرض لهم بحجة أن فيهم بركة، ولا حرج عليهم، وأنه لا تكليف لهم لأن نقاء صحيفتهم قد رفع عنهم المسؤولية.

وفى "رحلة ابن فضلان" نقرأ عن زوجة واحد من كبار القوم فى بعض البلاد التى مر الكاتب ورفاقه بها كانت جالسة مع رجال الوفد فى معية زوجها، وعرت سوأتها، فستر المسلمون وجوههم خجلا واستغفروا الله، فما كان من زوجها إلا أن استغرب منهم ذلك[1] . ومر الوفد على موضع كان رجاله

---

[1] رسالة ابن فضلان/ تحقيق سامى الدهان/ مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق/ ١٩٦٠م/ ٩٢.

ونساؤه يستحمون فى نهره عراة معا دون خجل أو تحرج. وقد حاول ابن فضلان أن يَكُفَّهم عن هذا الصنيع، فما أفلح[1].

وفى حديثه عن مملكة مالى يحكى ابن بطوطة بعض ما شاهده فى رحلته الشهيرة قائلا: "واتفق فى يوم إقامتى بمالى أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا، ومعنى "قاسا" عندهم: الملكة. وهى شريكته فى الملك على عادة السودان، ويُذْكَر اسمها مع اسمه على المنبر، وسَجَنها عند بعض الفرارية، وولى فى مكانها زوجته الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك، فأكثر الناس الكلام فى ذلك، وأنكروا فعله، ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة، فجعلن الرماد على أذرعهن، ولم يُتَرِّبن رؤوسهن. ثم إن السلطان سَرَّح قاسا من ثقافها، فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسَّرَاح، وتَرَّبن على العادة، فشكت بنجو إلى السلطان بذلك. فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفا عنهن، واستدعاهن. وعادتهن إذا دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضى عنهن، وصرن يأتين باب السلطان غُدُوًّا وعَشِيًّا مدة سبعة أيام. وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان. وصارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها، وعلى رؤوسهم التراب، وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها. وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها، فجمعهم السلطان فى المشور وقال لهم دوغا على لسانه: إنكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا، وإنها أذنبت ذنبا كبيرا . . .

---

[1] المرجع السابق/ ١٣٤.

ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات. ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة. فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه، وهن عرايا. ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعرِّى بناته. ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر".

ومن كلامه عن مملكة "بنجالة": "ورجالهم على مثل صورنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب. وأما نساؤهم فلسن كذلك، ولهن جمال بارع. ورجالهم عرايا لا يستترون. إلا أن الواحد يجعل. . . فى جعبة من القصب منقوشة معلقة فى بطنه. وتستتر نساؤهم بأوراق الشجر. ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون فى حارة على حدة أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم، لا يستترون بذلك".

وكان بيكاسو الرسام التكعيبى الشهير فى بيته يخلع ملابسه كلهاحسبما أتذكر أنى قرأت فى بعض الصحف منذ بضعة عقود. وفى كتاب "الإنسان الأوربى فى الجد واللعب" لعبد الستار الطويلة أنه كان فى الحى اللاتينى ذات ليلة فى ستينات القرن الماضى فيما أذكر، فأبصر حسناء فى معطف فخم رائع

من الفراء تسير فى دلال وسط الشارع، وبعد كل عدة أمتار تترك المعطف ينزلق من فوق كتفيها إلى الأرض كأنه سقط من تلقاء نفسه، فإذا بها عريانة كما ولدتها أمها، ثم تلتقطه وتعيده إلى موضعه ليتكرر المشهد كل عدة أمتار، والمارة والموجودون يتفرجون على المشهد العجيب. وكنت أشاهد ذات سبت من السبوت مباراة كرة قدم بين فريقين إنجليزيين فى التلفاز البريطانى أواخر سبعينات القرن البائد، وحدث أن سجل أحد الفريقين هدفا جميلا، ففوجِئتُ بفتاة جميلة بضة فارعة تترك مقعدها بين المتفرجين وتقترب من خط التماس محاولة الدخول إلى أرض الملعب تعبيرا عن فرحتها بإحراز فريقها هدفا فى مرمى خصمه، وقد خلعت بلوزتها، فظهر صدرها، وبعض رجال الشرطة يحاولون الإمساك بها وإعادتها إلى مكانها فى المدرجات. ولا أدرى هل فى القانون البريطانى تجريم لمثل ذلك التصرف أو لا.

وواضح أن العرى إنما يشيع غالبا بين الهمج فى المجتمعات الوثنية المتخلفة التى لا تعرف معنى الكرامة الإنسانية ولا الحياء والاحترام، أو فى الطبقات العليا من المجتمعات المتحضرة التى بدأ التفسخ والانحلال ينتشران فيها، فلم يعد أهلها يبالون بقيم العفة والاحترام، ثم سرعان ما يأخذ أهل الطبقات الأخرى إخذهم، فيتحلل المجتمع ويصيبه الدمار بعدما يفقد مقومات البقاء. وعادة ما يبررون ذلك بأسباب صحية ونفسية قائلين إن الجسد بحاجة

إلى أن يتعرض للشمس والهواء دون حجاب حتى ينمو نموا صحيحا ، وإن العرى يشفى الإنسان من العقد النفسية والنفاق ويتيح له الفرصة للتنفس فى جو أخلاقى نقى، وإنه عودة إلى الفطرة وتشبه بالإنسان المتوحش الطيب الذى لم تشبه شوائب المدنية. . . إلى آخر هذا الهراء الذى يجده الإنسان فى مادة "Naturisme" فى النسخة الفرنسية من موسوعة "ويكيبيديا" مثلا. وهناك من يتشددون فى الاتجاه المضاد فيحرصون ويحرص نساؤهم على أن يغطين كل مليمتر فى أجسادهن خوفا من الفتنة وإثارة الشهوات ومنعا لصاحب كل عينين أن يتطلع إلى غير زوجته.

وللإسلام كلمة مختلفة تماما عن هؤلاء وأولئك، فهو يدعو إلى التستر والاحتشام وعدم عرض ما يثير الشهوات من الجسد أو الصوت أو السلوك البشرى، لكنه يكره الإعنات فى ذات الوقت. ومن آيات القرآن الكريم نقرأ: "يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِى آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ

كُلِّ مَسْجِد وَادْعُوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّه وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * يَا بَنِى آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (الأعراف/ ٢٦– ٣١) .

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آَتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (النور/ ٣٠– ٣٣) .

"يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ وَالَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّات مِنْ قَبْلِ صَلاة الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَة وَمِنْ بَعْد صَلاة الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَات لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاته وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاَّتِى لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَات بِزِينَة وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (النور/ ٥٨– ٦٠) . وهذا غير الأحاديث النبوية الشريفة، وهى أكثر من ذلك وأشد تفصيلا .

والطريف بعد ذلك كله أن بطل الرواية كان ينفر من العرى رغم أنه كان وحده على الجزيرة فليس فى تعريه من ثم ما يبعث على الخجل . قال: "ومع أنه كان يمكننى أن أستغنى عن الثياب بالكلية لشدة الحر هناك لم أستطع أن أكون عريانا بالكلية ولا كنت أطيق الفكر أن أكون كذلك مع أنى كنت أرى نفسى مائلا إليه، ولم يكن هناك من يعيبنى أو أخجل منه . ومما جعلنى لا أريد أن أكون عريانا بالكلية عدم اقتدارى على احتمال حرارة الشمس فى حالة العرى كاقتدارى على احتمالها وأنا مكتسٍ لأن الحر كان قد أحرق جلدى مرارا كثيرة، لأنى إذا كنت لابسا قميصا كنت أشعر برطوبة بخلاف ما إذا كنت

عريانا ، وذلك لأن الهواء كان يتحرك قليلا ويتلاعب متنسما داخل القميص فيدفع الحرارة، ولا كنت أقدر أن أقنع نفسى بالخروج فى الشمس وقت الحر من دون أن يكون على رأسى قُبَعٌ أو قلنسوة لأن شدة حرارة الشمس فى ذلك الموضع كانت تحدث ألما قويا فى رأسى إذا كان مجردا . وذلك أن أشعتها كانت ترشقنى على خط مستقيم كأنها نِبَالٌ حادةٌ لا تطاق. إلا أن القبع كان يدفع قوتها ، ويحمى رأسى من رشقاتها" (ص١٣٣) .

ولكى يقدر القارئ ما قاله كروسو حق قدره أذكر له أننا ، عند اشتداد الحر قليلا فى بريطانيا ، كنا نشاهد سائقى عربات النقل وبعض البياعين فى السوق الأسبوعى يتجردون من ملابسهم العليا الخارجية والداخلية جميعا ، ويستغنون عن سراويلاتهم مكتفين بالشورت، فكنا نشاهد أجسادهم وقد احمرت كأنها مدهونة بعصير الفراولة. ولا ننس حادثة دنشواى، التى هلك فيها عدد من خنازير الاحتلال البريطانى لمصر، فقد كان سبب موتهم ارتفاع درجة الحرارة فى الصيف، فلم يتحملوا العَدْو فيه هربا من فلاحى دنشواى بعد أن قتلوا بعضهم برصاصهم الذى كانوا يصطادون به حمامهم بوقاحة ما بعدها وقاحة، وبعد أن اشتعلت أجرانهم جراء ما وقع فيها من نيران البنادق. كما أذكر أننى، عقب عودتى من بريطانيا ، قد التهب ساعداى التهابا شديدا سبب لى إزعاجا وضيقا بسبب الألم واللون الأحمر القانى، وأن ذلك استمر صيفين

متتالين، ثم من الله علىَّ بالشفاء . وقد عزوت ذلك وقتئذ إلى أن جلدى كان قد تعوَّد، طوال السنين الست التى قضيتها فى بلاد جون بُلْ، على الجو البارد، فلم أتحمل شدة الحر التى لاقتنى أول عودتى إلى أرض الوطن .

* * *

كذلك لفت نظرى قول البطل عن نفسه، حين كان حديث عهد بالجزيرة المهجورة التى ساقته الأقدار إليها وألقته على شاطئها ليعيش وحده عليها ردحا من الزمن قبل أن يصل إليه جمعة الزنجى، إنه كان عليه أن يصنع كل شىء لنفسه بنفسه، وبخاصة الكرسى والطاولة كى يأكل عليهما ويكتب وما إلى ذلك (ص٦٧) . والذى لفت نظرى فى هذا الكلام هو أنه لو كان كروسو عربيا من عرب ذلك الزمان ما فكر فى الحصول على كرسى وطاولة بل كان يأكل ويكتب على الأرض[1] . ومعروف أن كثيرا من المصريين، بعدما هجروا الجلوس على

---

[1] كنت قد كتبت هذه الملاحظة اعتمادا على ما أعرفه من أسلوب الحياة عند العرب فى تلك الأزمان. ثم قرأت بعد ذلك المقدمة التى كتبها د . فارناند برودال لكتاب لوى كارداياك: "الموريسكيون المسلمون والمسيحيون"، فألفيته يشير إلى ما عاير به الكاتب الأسبانى برناندو باريس دى شنشون، آخر الثلث الأول من القرن السادس عشر الميلادى، العرب فى الأندلس فى مؤلفه: "ضد القرآن" قائلا: "إننا نحن المسيحيين نجلس على كراسى عالية، وليس على الأرض كالسوائم" . ثم يعقب فارناند برودال بقوله: "والسوائم هنا هم، ولا شك، الموريسكيون" (انظر د . لوى كارداياك/ الموريسكيون المسلمون والمسيحيون/ ترجمة د . عبد الجليل التميمى/ تونس/ ١٩٨٣م/ ١٦) . ليس هذا فحسب،

الأرض فى البيوت، عادوا فى الفترة الأخيرة، تأثرا منهم بأسلوب عيش أهل الخليج، الذين عاشروهم فى بلادهم أيام عملهم فيها ، إلى الجلوس على الأرض كرة أخرى وصار كثير منهم يحرص على أن يكون فى بيته مجلس عربى إلى جانب الصالون أو الأنتريه أو بديلا عنهما .

وكنا نحن التلاميذ والطلاب الريفيين نستذكر فى صغرنا دروسنا جالسين على الحصير فى البيت أو فى المسجد أو على شطوط الأنهار فى الحقول لا نجد فى ذلك غرابة ولا صعوبة بل لا يشغل الأمر نفوسنا بشىء، إذ هو طبيعى جدا ، وإن كان الأمر الآن قد اختلف بالنسبة لى، إذ لم أعد أفعل ذلك بعدما كنت إلى وقت قريب أقرأ وأكتب على السرير واضعا خلف ظهرى مخدة أو مخدتين لأستند إلى شىء لين لا يضايقنى. ولم يكن علماؤنا وفلاسفتنا ومفكرونا وأدباؤنا وكتابنا وشعراؤنا القدماء يعرفون المكاتب والكراسى فى القراءة والكتابة، بل كانوا يقتعدون الأرض على السجاجيد والأبسطة والحصير.

بل إن أحد الموركسيين قد حُوِّل إلى محكمة التفتيش الرهيبة فى أسبانيا فى القرن السادس عشر لمجرد أنه يجلس على الأَرض ولا يتناول طعامه على مائدة، بما يعنى أنه لا يزال متمسكا بتقاليد المسلمين رغم إعلانه (الظاهرى طبعا) اعتناق النصرانية (المرجع السابق/ ٢٦) . وبالمناسبة فاليابانيون، أو قطاع كبير جدا منهم، لا يزالون ينامون ويأكلون فى بيوتهم على الأرض حتى الآن.

وحين ذهبت إلى الطائف عام ١٩٨٩م معارا من الجامعة إلى فرع جامعة أم القرى هناك قصدت المنطقة التعليمية لأقدم أوراق ابنتى للالتحاق بالمدرسة، ففوجئت بالموظف يترك مكتبه وكرسيه ويدخل إلى حجرة الأرشيف، وكانت منظمة ونظيفة وواسعة مريحة، ليسحب بعض الملفات من أحد الأرفف ويجلس بكل بساطة وتلقائية على الموكيت فى الأرض يقلب فيها ويعالج موضوعى، وأنا معه جالس مثله متربعا على الموكيت حتى انتهى من الأمر، فشكرته وانصرفت. وكنا فى المآدب العامة التى تصنعها الجامعة أو التى نُدْعَى إليها فى البيوت السعودية نجلس ونأكل على الأرض، فيتناول الآكلون منهم الطعام بأيديهم، لكنهم كانوا حريصين على توفير الملاعق والشوك والسكاكين البلاستيكية مراعاة لظروفنا نحن وأمثالنا. وكنا نحن الريفيين نأكل بأيدينا فى قريتنا إِبَّان الصِّغَر الرز واللحم. وما زلت حتى الآن أوثر الإقلال من استعمال أدوات السفرة بقدر ما أستطيع حتى إنى فى العادة لا أستخدم سوى الملعقة فى كل شىء حتى فى تقطيع اللحم بدلا من الشوكة والسكين. وأنا، حين أقارن بين أسلوب الغربيين وأسلوب العرب فى هذه النقطة، لا أريد أن أنتصر لطرف على حساب الآخر، بل أشير فقط إلى اختلاف أساليب ممارسة الحياة تبعا لاختلاف المجتمعات والحضارات ليس إلا.

* * *

كذلك ذكّرتنى العربة التى تحدث عنها كروسو فى بعض مواضع الرواية عند قوله إنه كان يحتاج إلى ثلاثة أشياء لإنجاز عملية الحفر: المِعْوَل والمجرفة والعربة (ص٧٣) بعربة الرش التى رآها رفاعة رافع الطهطاوى فى باريس فى عشرينات القرن التاسع عشر، فلفتت انتباهه ووقف أمامها بوصفها شيئًا غريبا لم يشاهد مثله من قبل، وأشار إلى ميزاتها التى تتفوق بها على الأداء البشرى فى الرش، إذ تختصر التعب والوقت والمال. لقد وصف رفاعة الشوارع ونظافتها متوقفا عند العربات التى ترشها فى أوقات الحر فى أسرع وقت ممكن وبأقل جهد وتكلفة. وقد جاء وقت كانت فيه عربة رش الشوارع فى مصر من الأمور العادية التى لا تثير عندنا أدنى دهشة، وإن كانت قد اختفت منذ عقود بعدما كنت أشاهدها، وأنا صبى صغير فى أواخر خمسينات القرن الماضى وأوائل ستيناته عند الظهيرة فى طنطا، وهى تدور فى الشوارع تبخ ماءها لتخفف من وقدة اللهيب الصاعد من الأسفلت. ولا أستطيع، فى هذا السياق، أن أنسى تشبيه إبراهيم المازنى لنفسه بعربة الرش، إذ لا يمكنه، كما يقول، أن يكتب شيئًا إلا بعد أن يذهب فيقرأ ويملأ مخه بالمادة التى سوف يستمد منها ما يريد أن يقوله، تماما مثل عربة الرش، التى لا يستطيع سائقها أن يستعملها إلا بعد أن يملأ خزانها بالماء، ثم بعد هذا يفتح صنابيرها، فترش الشوارع مخففة من لظى الحر. وقد عاد المصريون الآن يستعملون أيديهم وكيزانهم أو خراطيمهم لرش الأرصفة أمام محلاتهم وبيوتهم. أما بالنسبة لرفاعة

فقد كانت تلك العربة شيئًا باهرا: "فإن أهل باريس مثلا سهلٌ عندهم رشُّ ميدان متسع من الأرض وقت الحر، فإنهم يصنعون دَنًّا عظيما ذا عجلات ويُمَشّون العجلة بالخيل. ولهذا الدَّنّ عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع، فلا تزال ماشية، والبزابيز مفتوحة، حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة، ولهم غير ذلك من الحيل. فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها"[١].

* * *

ومن الموضوعات التى تضمها الرواية كذلك الحيوانات التى رآها بطل الرواية فيما زاره أو أقام به أو عمل فيه من بلاد عبر رحلته الطويلة. فمن ذلك الحيوان الصغير الذى اصطاده كسار حين أرسى مع كروسو على شاطئ بعض البلاد المتوحشة، فنزل كسار ثم عاد بعد قليل، وفى يده حيوان يشبه الأرنب، إلا أن ساقيه أطول من ساقى الأرنب. وكان طعم لحمه لذيذا. فما ذلك الحيوان؟ لم يقف البطل عند هذه النقطة أطول من ذلك، ولم يحاول أن يسد هذه الثغرة. وكنت، لما سافرت إلى جامبيا جنوب موريتانيا وغرب السنغال على المحيط الأطلسى صيف ١٩٨٦م، قد ألفيت الفراش والبوم هناك أضخم

---

[1] من "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" ضمن "الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى"/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ٢/ ١٩٧٣م/ ٧٢.

كثيرا من نظيريهما فى مصر . وقد سجلت ذلك فى كتاب لى وضعته عن هذه الرحلة، وإن كان لم ينشر بعد .

كذلك نعلم أن التماسيح ليست كلها مثلا شيئًا واحدا حتى إننى أعرف أنه، إلى جانب التمساح الذى نعرفه كلنا ، وهو ما يسمى بالإنجليزية: "crocodile"، هناك ضرب آخر من التماسيح اسمه "allegator" هو التمساح الأمريكى رغم أننى لا أستطيع التمييز بينهما إلا إذا رجعت إلى المعاجم والموسوعات، فعندئذ أستطيع ذلك، على الأقل: نظريا . وأول مرة سمعت بالتمساح الأمريكى وعرفت اسمه كانت فى أوكسفورد منذ عشرات السنين، إذ قابلتنى، فى بعض ما كنت أقرأ من كتبٍ لتعلم تلك اللغة، الكلمة المذكورة، ففهمت أنه تمساح لكنه يختلف عن التمساح الذى نعرفه نحن المصريين. كذلك هناك الأرنب: "rabbit"، وهذا هو أرنب البيت، إلا أن هناك أيضا الأرنب البرى: "hare" . ولا أظننى أقدر على التفرقة بين الأرنبين، وبخاصة بعد أن رأينا الأرانب البلجيكية الضخمة المكتنزة الشرسة، التى صرفتنى، بشكلها القبيح، عن استطعام لحم الأرانب بعد أن كنت أحبه.

وهناك الجِدَاء، التى كان يعيش روبنسون كروسو على لحمها فى كثير من الأيام، والتى كان يطاردها كى يمسكها ويحملها إلى البيت لتربيتها وذبحها عند الحاجة. وهناك أيضا الفئران، التى أزعجته أيما إزعاج، فاضطر إلى

استئناس القطط للتخلص منها، فصارت بدورها مزعجة. لكن لم نشاهد هناك حمارا ولا حصانا ولا جملا ولا بقرة ولا جاموسة، بل ولا خنزيرا. كما لم نر تمساحا أو حوتا، ربما لأن بطل الرواية كان محصورا داخل الجزيرة لا ينزل البحر أو النهر إلا للضرورة القصوى، ودون أن يتلبث فى الماء. وهناك النمر، الذى قتله البطل ورفيقه كسار بالبارودة، أى البندقية كما يسميها إخواننا فى الشام وفلسطين، وأخذا جلده وتركا لحمه يأكله الهمج. وليس فى الأمر ما ينبغى أن يستوقفنا أطول من هذا، اللهم إلا أن النمور لم تكن منعزلة عن البشر كما فى الدول المتحضرة حيث لا يمكن أن يقابل الإنسان نمرا لا فى الشارع ولا فى الحقل، بل فى السيرك مثلا أو فى حديقة الحيوان المفتوحة كتلك التى زرناها ذات مرة فى بريطانيا وكنا نجوس خلالها بالسيارة وقد أغلقنا على أنفسنا البيبان والنوافذ، والقرود تتقافز فوق السيارة وعلى الزجاج الأمامى، والأسود تتبختر حولنا وقد استعد لها بعض الحراس بالبنادق فى أيديهم تحسبا لما يمكن أن يصيبها من هياج فتهجم على الزوار وتؤذيهم وتحطم سياراتهم.

المقارنة بين قصة سلكيرك ورواية روبنسون كروسو

ثمة اعتقاد متداول بين كثير من الباحثين مؤداه أن ديفو قد اعتمد فى روايته: "روبنسون كروسو" على حادثة حقيقية مشهورة وقعت قبلها بوقت غير طويل لبحار أسكتلندى يدعى: ألكسندر[1] سلكيرك. بل لقد اتُّخِذ هذا الاعتقاد فرصة لتوجيه اتهام لديفو بالسطو على ما كتبه ذلك البحار الأسكتلندى الذى وقع له مثل ما وقع لبطل ديفو. وفى هذا السياق ينبغى الإشارة إلى مقال للدكتور نجم عبد الكريم بعنوان "روبنسون كروسو: سرقة أدبية فى سياق المغامرة!" نشرته صحيفة "الشرق الأوسط" العربية اللندنية بتاريخ الاثنين ١١ أكتوبر ٢٠٠٤م جاء فيه: "ينسب الكثير من النقاد العرب أن رائعة الكاتب الإنجليزى دانييل ديفو: "مغامرات روبنسون كروسو" إنما هى مأخوذة من تراث عربى، واعتبروها عبارة عن سطوٍ أدبى على قصة ابن طفيل: "حى بن يقظان". وهناك من يقارن بين أحداثها وبين رحلات السندباد. وفيهم من نسب مغامرات روبنسون كروسو إلى تأثرها ببعض الرحالة من العرب! ومما لا شك فيه أن الأعمال الأدبية العظيمة لا تنبع من فراغ،

---

[1] النطق الإنجليزى لهذا الاسم هو "ألكزاندر"، وليس "ألكسندر" كما كتبتُها أعلاه جريا على ما تعودنا عليه رغم مخالفته لنطق أصحاب اللغة بل رغم مخالفته لنطقى أنا له. ومعروف أن تعريبه هو "إسكندر" لا "ألكسندر" أو "ألكزاندر". وليسامحنى القارئ فيما صنعته هنا.

ولا يلزم أن يخوض الكاتب تجربة أبطال روايته أو مسرحيته، فهناك دائما مؤثرات خارجية تدفع بالعمل الإبداعى إلى البروز وفقا لمدى قدرات وإبداعات ذلك الكاتب فى تصويرها .

لكن السيدة سلكيرك التى التقيتها مصادفة فى مناسبة اجتماعية بمدينة مارلو الإنجليزية تزعم بعكس ذلك تماما . فهى ترى أن دانييل ديفو مؤلف رواية "مغامرات روبنسون كروسو" ما هو إلا كاتب أفّاق وسارق لأفكار غيره، وكان جزاؤه أن مات فقيرا عندما دُفِن فى مقابر الفقراء . وتزعم السيدة سلكيرك أنها تحتفظ بالأدلة الأكيدة على حقيقة شخصية روبنسون كروسو لأنه جدها الرابع، واسمه "ألكسندر سلكيرك" . والسيدة سلكيرك هذه قد تجاوزت العقد الثامن عمرها، لكنها تتمتع بذهنية متوقدة، وتتحدث بحماس عن جدها، الذى تعتبره الأب الحقيقى لرواية "مغامرات روبنسون كروسو" .

عندما علمتْ بأننى من المهتمين بالكتابة والنقد وجهت إلى سؤالا عما هو مضمون رواية "مغامرات روبنسون كروسو"، فأجبتها أنها تروى عن ملاح بريطانى (روبنسون كروسو) تحطمت السفينة التى كان يعمل عليها فى وسط المحيط الهادى، لكنه تمكن من التشبث بقطعة كبيرة من الخشب ليتخذ منها طوّافة تقيه الغرق، إلى أن تقذف به الأمواج على شواطئ جزيرة لم تطأها مِنْ قَبْلُ قدمي[1] إنسان، فيجد نفسه مضطرا للتعايش مع الحياة الجديدة فى تلك الجزيرة مع الحيوانات

---

[1] الصواب: "قَدَمَا" .

والطيور. وتمر الأيام، ويجد كروسو نفسه ما إن يخرج من مغامرة مثيرة حتى يدخل فى مغامرة أكثر منها إثارة. وقد اتخذ لنفسه عددًا من الأصدقاء هم عبارة عن ببغاء وقرد وعنزة. وقد صوّر ديفو حياة كروسو فى تلك الجزيرة بشكل رائع وشيّق[1]، إلى أن تنقذه سفينة عابرة وتعيده إلى المدينة.

بعد أن لخصتُ رواية "مغامرات روبنسون كروسو" للسيدة سلكيرك أضفتُ أن هذه الرواية ضربت رقما قياسيا فى الترجمة عن الإنجليزية إلى اللغات الأخرى. فأنا مثلا قرأتها باللغة العربية، كما قرأها الملايين من الناس بلغاتهم المختلفة. قالت السيدة سلكيرك: ليس هذا فحسب، بل إنها تفوقت على أشهر كتابين ظهرا فى العصر الذى كُتِبَتْ فيه وهما: "ألف ليلة وليلة" المقبلة إلينا منكم يا عرب، و"دون كيشوت"، التى تُرْجِمَتْ إلى الإنجليزية عن الأسبانية، وهى لسيرفانتس. فأجبتها: ولعلمك، إنك لست الوحيدة ممن يزعمون بسَطْو دانييل ديفو على أحداث روبنسون كروسو. والبعض منهم لديه مقارنات يدلل بها على ذلك السطو، فما هو دليلك على أن مؤلف روبنسون كروسو قد سطا على تراث جدك ألكسندر سلكيرك، الذى لم يسمع به أحد من قبل؟

ظهر الانزعاج على ملامح السيدة، وقالت بعصبية: "جدى وُلد فى قرية لارجو الأسكتلندية عام ١٦٧٦[2]، وهو يعرف ديفو، وكانا يلتقيان فى حانة واحدة فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر. وكان جميع الناس يعرفون تلك المغامرة

---

[1] الصواب: "شائق". أما "شيِّق" فمعناها: "مشتاق".

[2] الصواب أنه ولد عام ١٦٧٦م. ولا أدرى غلطة من هذه: أهى غلطة الحفيدة العجوز أم غلطة الكاتب؟

والتجربة التى مرّ بها جدى سلكيرك. وكان ديفو يسمعها منه لعدة أشهر ويدوّن بعض أحداثها . ولكنه قد زيّف الكثير مما جاء فيها من أحداث" . ثم أخذت تروى قصة جدها ، الذى كان يعمل بحارا فى سفينة تجارية كان ربانها شديد القسوة على بحارته . وقد بلغت قسوته أن قام بشنق ثلاثة من الرجال أمام زملائهم فى وسط البحر، وألقى بجثثهم فى المياه فى أثناء رحلة لأميركا الجنوبية . ولم يكن أمام البحارة، وهم يقاسون من عذابات الربان، سوى التمرد والثورة التى دفعت بهم إلى الفتك بالربان ومساعديه، وفروا بالسفينة يجوبون بحار الجنوب، بينما كانت السفن البريطانية تطاردهم. فاتفق ألكسندر سلكيرك (الجد الرابع للسيدة التى تروى الحكاية) مع زميل له على الفرار من السفينة، ونفذا خطتهما فى جوف الليل بعد أن قاما بسرقة قارب صغير انطلقا به على غير اتجاه إلى أن قذفت بهما الأمواج على شواطئ جزيرةٍ ذات طبيعة أخاذة مليئة بالطيور والحيوانات الأليفة، لأنها (أى الحيوانات) كانت تقف أمامهما ولا تنطلق هاربة خائفة منهما ، وهذا يدل على أن الجزيرة لم تطأها أقدام بشرية من قبل !

وفى اليوم الثانى لوجودهما فى الجزيرة مات زميل ألكسندر سلكيرك لأنه تناول فراولة مسمومة. وظل ألكسندر يعيش فى الجزيرة بمفرده بعد أن هيأ لنفسه أجواء تسمح له بالعيش فيها طيلة حياته. ومما عُثِر عليه فى أوراقه عن وصفه لتلك الجزيرة، كما تقول حفيدته، أنها "جنة الله فى الأرض، فكافة أنواع الفواكه والأطعمة موفورة فيها بكثرة، ومياه غدرانها عذبة كالشهد . وكنت أصطاد فيها الغزلان والدِّيَكة البرية، وإذا رغبتُ فى شرب شىء من اللبن فما ألذه من ضَرْعَى

ماري، تلك العنزة التى كانت تتبعنى أينما أذهب" . وقد بنى سلكيرك كوخا من عيدان الخيزران وأوراق الشجر العريضة[1] .

وقد استرسلت السيدة فى وصف تلك الجزيرة على ضوء قراءتها للأوراق التى خلّفها لها جدها . ومن أطرف ما قالت فى هذا الصدد: إن القطط والكلاب لم تكن بينها تلك العداوة التى نعرفها عنها فى معيشتها بين ظَهْرَانَيْنا ! فالحيوانات فى تلك الجزيرة الساحرة كانت تعيش فى سلام ومحبة (والكلام ما زال للسيدة سلكيرك): ومما ذكره جدّى فى أوراقه: "كنت أشاهد الحيوانات كيف تقضى وقتها باللعب معا: فالفئران كانت تركب على ظهر القطط، والقطط تتسابق مع الكلاب، وكثيرا ما كنت أجدها تنظف جلود بعضها البعض بألسنتها . ولم يحدث أن وجدت عداء بين أى من الحيوانات التى تعيش على يابسة تلك الجزيرة" .

ولكن الذى حفز ألكسندر سلكيرك للعودة إلى المدينة هو عثوره على مجرى للتبر أخذ يجمع منه ما يستطيع جمعه، وعبّأه بأكياس جلدية صنعها من جلود

---

[1] ذكر هاول (John Howell, The Life and Adventures of Alexander Selkirk containing the real incidents upon which the romance of Robinson Crusoe is founded, Oliver & Boyd and Geo. B. Whittaker, Edinburgh, P. 69) أن سلكيرك بنى كوخين عند اقتراب الشتاء حتى يحمى نفسه من الجو، وبخاصة أن الثلج ينزل أحيانا فى الليل ويبقى على سطح الأرض فى الصباح رغم أن المناخ فى تلك المناطق هو بوجه عام مناخ لطيف. وبناء الكوخين يذكرنا بما قرأناه فى رواية ديفو من أن كروسو هو أيضا قد بنى كوخين لنفسه.

الحيوانات. وحَزَرَ أن هذه الثروة ستمكنه من العيش برغد فى حالة عودته إلى العالم المتحضر، فصار يجمع الحطب والأخشاب بكميات كبيرة، ويُضْرِم فيها النار ليتصاعد منها الدخان الذى يلفت إليه انتباه السفن البعيدة. وبعد محاولات متعددة أثمرت خطته أن سفينة ديوك قد اقتربت من تلك الجزيرة. وكان ذلك فى عام ١٦٥٩. وما إن تمكن من الصعود إليها حتى علم من البحارة أن الملكة اليزابيث قد أصدرت عفوا شاملا عن جميع البحارة الملاحَقين من الانجليز احتفالا بانتصار بريطانيا على الأسطول الأسباني. فوصل ألكسندر سلكيرك حاملا أكياس التبر التى كوّن منها ثروة طائلة.

وقد وعدتنى السيدة سلكيرك بأن تزودنى بنسخ من الصور الأصلية للأوراق التى كتبها جدها ألكسندر سلكيرك، الذى توفى عام ١٧٢٣ من دون أن يعرفه أحد، بينما دوت شهرة دانييل ديفو فى كافة أنحاء العالم، و"أصبح من أشهر المؤلفين فى التاريخ، بينما هو ليس سوى سارق لقصة جدي" على حد تعبير السيدة، التى راجَعْتُ معها تفاصيل ما أوردته من معلومات فى هذه المقالة، فوافقتْ على ما جاء فيها، مع بعض التعديلات التى أشارت إلى بها. ولكن أين هى الحقيقة؟! الحقيقة أن مغامرات كروسو صارت أكبر من كل الادعاءات!".

وفى كتاب " The Life and Adventures of Alexander Selkirk Containing the Real Incidents upon Which the

"Romance of Robinson Crusoe Is Founded..."[1] لجون هاول (John Howell) نجده فى السطور الأولى من المقدمة يقرر أن روبنسون كروسو هو ثمرة خيال كاتب مبدع أعاد تقديم ما وقع لأحد البحارة البريطانيين فى جزيرة خوان فرنانديز، التى عاش عليها وحيدا لأكثر من أربع سنوات، بعد أن زوّق تلك الأحداث. والعنوان ذاته يقول هذا بعبارة صريحة لا تحتمل لبسا ولا تأويلا. بل إننا لنقرأ بعيد ذلك أنه قد أعيد تقديم سلكيرك باسم روبنسن كروسو، ذلك الاسم الذى استولى على اهتمام الناس[2]. وقد عاد هاول بعد عدة صفحات إلى تأكيد هذا الأمر قائلا إن دانييل ديفو قد استوحى الفكرة من سلكيرك، إلا أن تفاصيل الأحداث والأوصاف من إبداعه هو. كما مضى فدفع عنه الاتهام الذى وجهه البعض ضده بأنه إنما سرق ما كتبه سلكيرك، مستشهدا على ذلك بأحد المؤلفين الذين كتبوا عن ديفو وبينوا أنه كاتب مبدع، وليس لصا استولى على إنجازات الآخرين[3]. بل لقد تطرق إلى حديث الكابتن إدوارد كوك فى أحد كتبه عن البحار الأسكتلندى وإشارته فى اشمئزاز إلى أن بعض الناس يخلطون الحقائق بالخيالات

---

[1] John Howell, The Life and Adventures of Alexander Selkirk containing the real incidents upon which the romance of Robinson Crusoe is founded, PP.1- 2.

وأرجو أن أنبه القراء من الآن إلى أن أرقام الصفحات اللاتينية التى أُورِدها بالهوامش فى هذا الفصل دون إشارة إلى المرجع إنما يُقْصَد بها صفحات الكتاب المذكور فى هذا الهامش.

[2] P. 3.

[3] P. 10.

ويمكنهم أن يفتنوا عقول القراء العوام بتلك التفاهات، وتأكيده أنه سوف يلتزم بما وقع فعلا لسلكيرك دون أن يضيف إليه أى شىء من عنده. وفى أثناء ذلك نرى كوك يقلل من شأن سلكيرك، ملمحا إلى أن كل همه كان ينحصر فى مجرد البقاء على قيد الحياة فوق الجزيرة وأنه ما من أحد كان يمكنه التحدث إليه هناك غير الجِدَاء، وأن ديفو لم يكتب روايته إلا بعد مرور سبع سنوات كاملات على حديث الصحافة عن سلكيرك ومغامرته، وأنه لا يمكن توجيه أى اتهام له بالخداع وعدم الشرف[1]. يريد أن يقول إن ما تركه سلكيرك عن تلك المغامرة لا قيمة له من الناحية الفكرية أو الأدبية وأن ديفو ليس مدينا لسلكيرك بروايته عن روبنسون كروسو، وهو ما رأينا حفيدته البعيدة تقول عكسه تماما، إذ تتهم ديفو بسرقة ما قاله جدها البعيد الذى تذكر فى حزن وألم كيف أنه مات مجهولا فى حين صار ديفو أشهر من نار على علم.

وقبل الدخول فى المقارنة بين الحكايتين نذكر نبذة عن سلكيرك وعن الجزيرة التى عاش فيها على مدى عشرات الشهور وحيدا دون أنيس من بنى الإنسان، فنقول إن ألكسندر سلكيرك (١٦٧٦– ١٧٢١م) رجل أسكتلندى عاش وحيدا بجزيرة معزولة من جزر شيلى بأمريكا الجنوبية كانت له فيها تجربة مثيرة. فعندما كان يعبر البحار الجنوبية عام ١٧٠٤م فى حملة للقرصنة البحرية تشاجر مع قبطان

---

[1] PP. 13- 14

السفينة، وبناءً على طلبه تُركِ فى إحدى جزر خوان فرنانديز على بعد حوالى ٦٤٠ كم غرب تشيلى حيث عاش وحيدًا لمدة ٥٢ شهرًا إلى أن أنقذه القبطان وودز روجرز. وقد سجل القبطان تجارب سلكيرك فى كتابه: "رحلة ممتعة حول العالم"، كما وصفها القبطان إدوارد كوك فى كتابيه: "رحلة إلى البحار الجنوبية" و"حول العالم". أما اسم رواية ديفو فمأخوذ من اسم إحدى الجزر التابعة لأرخبيل خوان فرنانديز، الذى يتبع دولة تشيلى، وهى: روبنسون كروسو، وسانتا كلارا، وأليجاندرو سلكيرك. ويعيش نحو ٤٠٠ نسمة من المتحدثين بالأسبانية فى جزيرة كروسو، التى اشتهرت باعتبارها الجزيرة التى عاش فيها المنبوذ ألكسندر سلكيرك وحيدًا لأكثر من أربع سنوات (١٧٠٤ – ١٧٠٩م). وكان الرحالة الأسبانى خوان فرنانديز أول من اكتشف هذه الجزر عام ١٥٦٣م.

وفى المقارنة بين القصتين نقول إن روبنسون كروسو، حسبما جاء فى رواية دانييل ديفو عام ١٦٣٢م، قد ولد فى مدينة يورك الإنجليزية لأب تاجر ثرى ذى مال ومن أسرة ذات شأن (ترجمة البستانى لـ"روبنسون كروسو"/ ص١)، بينما ولد سلكيرك عام ١٦٧٦م فى مدينة لارجو الأسكتلندية لأبٍ حذّاء صابغِ جلود. وكان السابع بين إخوته، على حين كان كروسو ثالث أبناء والديه، وكان له أخوان وأختان. وفى الوقت الذى كان سلوك سلكيرك

عدوانيا شرسا داخل البيت وخارجه[1] كان كروسو شابا عاديا لا يثير المشاكل فى علاقته بالآخرين، وإن كان ناشف الدماغ فلم يستمع لنصائح والديه ولا رغبتهما فى أن يظل قريبا منهما ينعم بالرزق المضمون فى بلاده وبيته بعيدا عن الأخطار ومشاكل الحياة وغدرات البحار. بل لقد رُفِعَتْ دعوى ضد سلكيرك، لكنه وقت نظرها فى المحكمة كان على متن إحدى السفن يجوب البحار بعيدا عن بلاده. أما كروسو فقد ترك البلاد وركب إحدى السفن ركوب أى إنسان آخر لا توجد دعاوى ضده فى المحاكم.

كذلك فأُمُّ ألسكندر سلكيرك هى التى كانت تشجعه على تجريب حظه فى البحر وتغريه بالبحث عن رزقه عن طريق العمل بحّارا، متنبئة بأن أحداثا عظيمة سوف تقع له (PP. 7- 8)[2] على العكس من أبيه، الذى كان يريده أن يبقى معه ليرث عنه مهنته مثل إخوته الكبار والذى هدده بأنه إذا لم يُصغِ لنصيحته فسوف يحرمه من الميراث[3]، بينما وقفت أم روبنسون كروسو، وأبوه

---

[1] فى هامش ص٢٥– ٢٨ من كتاب هاول (Howell) ذكرٌ لبعض المشاكل والمعارك التى كان يثيرها فى بيت والديه واستدعاءات الكنيسة له لتعنيفه أمام الجمهور على رعونته وحماقته وتمرده.

[2] أرجو التنبيه إلى أن أرقام الصفحات اللاتينية التى أُوردها فى النص فوق دون ذكر المرجع إنما تشير إلى كتاب "Selkirk and Starboard"، الذى يحكى، فى القسم الأول منه، مغامرات ألسكندر سلكيرك بوصفه روبنسون كروسو الحقيقى كما جاء فى عنوان الكتاب الكامل (ط. نيويورك عام ١٨٤١م، دون اسم المؤلف).

[3] Howell, PP. 21- 22.

أيضا، ضد فكرة تركه البلاد أصلا. وقد نصحه أبوه كثيرا، ولما لم ينتصح توقع له، إن لم نقل: تنبأ، بأنه سوف يواجه المتاعب والمصائب. بل إن كروسو، فى كل مرة يقع فى مصيبة، كان يتذكر على الفور نصائح أبيه ويتندم على أنه لم يستجب لتلك النصائح ويبق فى بلده حيث يعمل ويجتهد ويعيش عيشة مرتاحة آمنة مطمئنة دون أن يقاسى ما قاساه مما لم يمر به إنسان تقريبا، وهو العيش وحيدا أكثر من ثمانية وعشرين عاما فى جزيرة مهجورة لا يؤنس وحشته فيها أحد من بنى الإنسان، إلى أن كتبت له المقادير النجاة من هذا المصير العجيب (ترجمة البستانى/ ١ وما بعدها). وبدأت عودته فى ١٩ ديسمبر عام ١٦٨٦م، ووصل إلى لندن فى ١٦٨٧م بعد أن غاب عنها خمسا وستين سنة. أما سلكيرك فلم يقض فوق جزيرته المهجورة سوى أربع سنوات وأربعة أشهر تقريبا.

وهنا أحب أن أشير إلى ما كتبه الكابتن إدوارد كوك من أن سلكيرك ليس هو أول شخص يعيش وحيدا فوق جزيرة فردينانديز، بل سبقه إلى ذلك شخصان آخران، لكنهما لم يفكرا فى كتابة شىء عن تجربتهما هناك على عكس سلكيرك رغم أن ظروفهما كانت أصعب كثيرا ورغم أنهما لم يُبْتَلَيَا بالعيش فوق الجزيرة المشار إليها مرة واحدة بل عدة مرات[١]. بل لقد كانت تجربة هذين الرجلين فى العيش وحيدين على جزيرة خوان فرنانديز المقفرة كما قصاها على زملائهما، ومنهم سلكيرك، سببا من أسباب اتخاذه قراره بمغادرة زملائه والبقاء وحيدا فى تلك الجزيرة[٢]. ليس ذلك فقط، بل نرى هاول يشير

---

[1] John Howell, P. 12.
[2] PP. 62- 63.

إلى أن سلكيرك لم يكن لديه شيء خاص يمكن أن يقصه على ديفو إن صح أنه قص عليه شيئا بالمرة، إذ كانت الصحف قد نشرت كل ما قاله سلكيرك عن مغامرته قبل ذلك بوقت طويل، وصار ملكية عامة يمكن أى شخص أن يستعملها[1]. وهذا، كما هو واضح، يناقض ما قالته حفيدةُ سلكيرك العجوز للدكتور نجم عبد الكريم حسبما تقدم[2].

كذلك فإن سلكيرك هو الذى قرر، بناء على نزاعه مع رئيس مركبه وحلمه بأن سفينته التى كان يعمل عليها سوف تتحطم ويبتلعها اليَمُّ، أن يترك السفينة لاجئا إلى جزيرة مهجورة بملء حريته وإرادته، أما كروسو فقد غرقت

---

[1] PP. 15- 16.

[2] وضعتنى الأقدار قبل سنوات فى موضع الحَكَم فى دعوى كان صحفى قد رفعها ضد أحد السينارستات متهما إياه بأنه سطا على قصة قصيرة له وصنع منها فلمًا دون استئذانه أو الإشارة إليه، فانتدبتنى المحكمة لتقديم رأيى فى هذه القضية. وقد كتبت تقريرا مطولا بينت فيه أن التشابه بين العملين تشابه عام جدا، وفوق ذلك فهو تشابه جد بعيد. والعبرة بالمعالجة والتفصيلات ووضع الفكرة فى صورة عمل أدبى أو فنى، وهو ما فعله السينارست. وهذا إن كان قد اطلع أصلا على تلك القصة القصيرة التى كانت منشورة بمجلة إقليمية لا يعرفها أحد خارج المدينة التى تصدر فيها. قلت ذلك رغم أنى كنت أقرب إلى التعاطف مع القصاص، الذى لم أكن أعرفه ولا أستطيع الآن تذكر اسمه، وأنفر من السينارست ومن توجهه الفكرى والسياسى ولا أستلطف ظله، علاوة على أن محاميه قد تلفظ بما لم أستطع أن ألتقطه أمام منصة القاضى وفهمت من رد ذلك عليه أنه غير راض عن قيام أستاذ نقد أدبى بتلك المهمة. لكن الحق أحق أن يتبع، فقد نحيت مشاعرى جانبا وكتبت ما أرى أنه الصواب وما سوف يحاسبنى ربى عليه.

السفينة التى كان يستقلها هو وزملاؤه وغرق بعدها القارب الذين أنزلوه منها وركبوه وسط الأمواج الهائلة المتلاطمة التى قلبته وقلبت منه ركابه جميعا ليغرقوا كلهم ما عدا كروسو، الذى كتبت له وحده النجاة حين حمله الموج، بعد معاناة لا تصدَّق وإشراف على الهلاك محقَّق، إلى جزيرة مقفرة قُدِّر له، بل عليه، أن يعيش فوقها سنوات وسنوات فى المحيط الأطلسى قريبا من البرازيل وجيانا (ترجمة البستانى/ ٣٩- ٤٥) .

ولم يكن سلكيرك عبدا عند أحد بخلاف كروسو، الذى كان رقيقا يملكه رجل مسلم من المغرب، إذ كان قد أُسِر فى معركة بين سفينته وسفينة ذلك المغربى واقتيد إثرها إلى ميناء سلى المغربى حيث قضى بضع سنوات يخدم ذلك المغربى، إلى أن هرب منه فى قارب من قواربه هو وغلام آخر، وإن كانت الظروف قد فرقت بينهما بعد ذلك، إذ باعه كروسو فى الطريق لربان إنجليزى بستين جنيها، ليشتغل كروسو، بعد حوادث متنوعة، على سفينة غرقت بمن عليها، وقُدِّر له هو وحده النجاة والوصول إلى تلك الجزيرة الموحشة (ص١٥ وما يليها) .

وبينما نعرف اسم الجزيرة التى لجأ إليها سلكيرك، وهى خوان فرنانديز، التى تقع فى المحيط الأطلسى قريبا من شيلى، فإن الجزيرة التى قضى كروسو على أرضها سنوات طويلة من حياته غير معروفة الاسم لا له ولا لأحد آخر

طبقا للرواية التى ألفها دانييل ديفو. كذلك فإن سلكيرك قد شعر بالندم فور أن سمع ضربات مجاديف القارب الذى استقله زملاؤه مخلّفيه وحده بالجزيرة، فى حين لم يكن هناك ندم من جانب كروسو على شىء مثل هذا إذ لم يختر البقاء فى الجزيرة وحيدا، بل على أنه لم يُصغِ إلى نصائح أبويه بالبقاء آمنا فى بلده والاشتغال بعمل هناك بدل عيشة الملاحين المفعمة بالأخطار والمتاعب.

ليس هذا فحسب، بل سرعان ما عدا سلكيرك إلى الماء خائضا فيه جراء ما شعر به من رعب حين تبين له، بعد لحظات الفرح الأولى بالحرية الموهومة والانعتاق من تحكم رئيسه، أن مصيرا رهيبا ينتظره فى تلك الجزيرة التى لا يسكنها بشر، مناديا زملاءه فى استعطاف حارّ أن يعودوا أدراجهم ليأخذوه معهم، بَيْدَ أنهم قد أعاروه آذانا صماء ساخرين منه ومن رعبه، ومَضَوْا فى طريقهم مبتعدين عنه تاركيه لقَدَره التعيس وقراره الذى اتخذه بنفسه حرا تام الحرية، وواعيا تام الوعى. بل لقد ظل وقتا يظن أنهم سوف يرجعون لأخذه معهم ولن تسمح ضمائرهم وعواطفهم بتركه وحيدا فوق الجزيرة الموحشة. كما ظل أياما لا يشعر باشتهاء الطعام ولا يفكر فى تناول شىء إلا حين يقرصه الجوع ويشعر أنه لا يمكنه الاستمرار فى إهمال الأكل (PP. 11-13).

وكانت النتيجة أنه، رغم ما كانت الطبيعة تكتسى به فى فصل الربيع من ثياب فاتنة وترسله من أنفاس عاطرة رائعة، لم يكن يلتفت إلى شىء من جمالها الآسر الفتان لما كان ينغص قلبه من الشعور بالوحشة والندم واليأس والبؤس (P. 14) . ورغم اعتدال الجو فى تلك الجزيرة كان الثلج يسقط أحيانا فى الشتاء، وقد تكتسى الأرض بطبقة من الجليد (P. 15)، على عكس جزيرة كروسو، التى لم تكن تعرف الثلوج ولا جاء ذكرها على لسانه قط هناك، مع وجود الجو المعتدل نفسه رغم هطول الأمطار خلال فصلين من فصول السنة الأربعة. وقد ظل سلكيرك بلا مأوى إلى أن حل الشتاء ففكر عند ذاك فى بناء كوخ يلجأ إليه، فبنى كوخين من خشب أشجار الغابة وسقَّفهما بقَشٍّ حصل عليه من بعض النباتات: أحدهما للنوم والعبادة، والآخر للطبخ والطعام. وقد استعمل أولا الملابس التى كانت معه حين تخلف عن رفاقه إلى أن بليت، فصنع لنفسه ملابس من جلود المعز. وقد أخذ الأمر منه ثمانية عشر شهرا قبل أن يشعر قلبه بنعمة العزاء والسكينة. وكان يؤدى طقوس دينه الأسبوعية فى كوخه. كما استطاع أن يميز الأيام والتواريخ مثلما جعل ديفو روبنسون كروسو يفعل. وفى الوقت الذى كان على كروسو أن يصنع شموعه من شحم الجداء كان سلكيرك يتخذ شموعه من خشب إحدى الأشجار هناك بسبب صلابته وقوة النور الذى يصدر عنه حين يشتعل وصفائه، فضلا عن العطر

الذى كان يسطع منه حينئذ . كما كان يأكل طعامه بدون ملح رغم أنه لم يسترح إلى ذلك فى البداية ثم تعود عليه وصار يستسيغ الطعام غير المملح (PP. 15-16) . وقد أشار هاول أيضا إلى موضوع الملح ونفوره من الطعام أول الأمر لخلوه منه ثم تعوده عليه فيما بعد[١] .

أما كروسو فقد وفق إلى الحصول على الملح من البحر، وكان يضيفه دائما إلى طعامه، ثم لما أتت الأقدار إليه بجمعة الشاب الهندى وأصبح يأكل معه لم يستسغ ذلك الشاب الملح على الرغم من محاولة كروسو تغيير ذوقه وعاداته الطعامية. وفى الوقت الذى أصر كروسو على صنع الخبز ونجح فى صنعه بعد أن استنفد ما كان معه منه مما حصل عليه من السفينة المحطمة بعد مرور بعض الوقت، وجدنا سلكيرك يستغنى عنه بأوراق بعض الأشجار التى تؤكل، كما أكل الفجل والجرجير اللذين وجدهما هناك على شطوط الجداول المائية. أما اللحم فكان لحم الجداء والأسماك (P. 19) . كما ذكر هاول أنه فى البداية كان، إذا قرصه الجوع، يأكل المحار الذى يجده وهو يتمشى على الشاطئ، وكذلك الفُقَم[٢]، على حين كان كروسو فى رواية ديفو يأكل فى بدء أمره السلاحف وبيضها . أما فى حكاية سلكيرك فنسمع به وبرفاقه من القراصنة يصطادون السلاحف من الجزر التى يركنون إليها ويتخذونها طعاما شهيا[٣] .

---

[1] P. 66.
[2] Howell, P. 65.
[3] ذكر هاول ذلك مرارا فى صفحات كتابه، ومنها ص١١٢ على سبيل المثال.

وقد ذكر هاول أن سلكيرك فى البداية قد فكر مرارا أن يضع نهاية لشقائه ويأسه عن طريق الانتحار[1]، لكنه سرعان ما استعان بالعكوف على الكتاب المقدس يقرؤه ويتأمل نصوصه مثلما كان يصنع كروسو أيضا، مما أراحه نفسيا وخفف من قلقه ويأسه[2]، وبخاصة أن جو الجزيرة كان صافيا بوجه عام، وصحته ممتازة، إلى جانب ما يشيع فى أرجاء المكان من خضرة ونسيم وعطور . لكن كانت هناك مشكلة الفيران، التى لم يذكر عنها كروسو فى روايته شيئًا ، تلك الفيران التى كانت تعض قدمى سلكيرك وغير قدميه أثناء نومه، فاستطاع أن يستأنس بعض القطط الوحشية بعد جهد مرهق كى تقف لها بالمرصاد، بل ونجح فى تعليمها الرقص وغيره من المهارات التى كان يتسلى بها وهى تؤديها أمامه فى أوقات فراغه الطويلة، وإن تحولت مع الأيام إلى سبب للقلق، إذ أخذ يفكر فيما سوف يحدث له حين يموت، فكان يتخيل القطط التى رباها واتخذ منها صديقا مؤنسا وهى تلتهم جثته جراء قلة الطعام بعد موته (PP. 20- 23) . ولم تكن القطط هى وحدها التى عَلَّمَها الرقص، بل عَلَّمَه الجداءَ الصغارَ أيضا واتخذها كالقطط مسلاة له، إلى جانب حصوله منها على ما يحتاجه من ألبان ولحوم (P. 24) . وقد ذكر هاول أن سلكيرك كان يصطاد عددا من الجداء الصغيرة ويربيها فى بيته حتى تكون له ذخرا حين يصعب

---

[1] نفس المرجع والصفحة.

[2] PP. 68, 88.

عليه، بسبب المرض مثلا، اصطياد غيرها . إلى هنا ولا يوجد اختلاف بينه وبين كروسو، لكن هاول يضيف إلى هذا أنه كان يعقرها تبطئة منه لسرعتها، مع حرصه فى ذات الوقت ألا يكون العقر من الشدة بحيث يضر بصحتها[1] .

أما فى حالة كروسو فقد استحال عدد كبير من القطط التى رباها فى بيته بالجزيرة شيئًا مزعجا اضطره أن يطردها عنه بل ويقتلها حين كانت تأتى فتهاجم زراعته . كما كانت مسلاته الوحيدة هى طائر الببغاء، الذى أمسك به هناك وعلمه على مدى سنوات كيف ينطق اسمه ويردد العبارات التى يتلفظ بها أمامه فيقول مثلا: أين أنت يا روبنسون كروسو؟ مسكين أنت يا روبنسون كروسو!

وكان سلكيرك فى بداية أمره يحصل على الجداء بالبندقية، ثم لما نَفِدَ منه الرصاص اعتمد على العَدْو وراء أى جدى صغير نظرا لقلة سرعته، وسرعان ما يمسك به ويحمله إلى البيت، ثم استطاع مع الأيام اللحاق بالجداء الكبيرة الشديدة السرعة أيضا (P. 23) . أما كروسو فكان يعتمد على البندقية، التى لم تَشْكُ طوال إقامته بالجزيرة نقصا فى طلقات الرصاص التى حصل على المزيد منها من سفينة جنحت ذات يوم قريبا من الجزيرة واستطاع الوصول إليها ووجد فيها ملابس وبنادق ومسدسات وصناديق وبعض الأطعمة

[1] PP. 71- 72

والعملات المعدنية، كما اعتمد على حفر الحُفَر وتغطيتها أحيانا كى تكون مصايد لتلك الحيوانات.

أما الأشجار الموجودة فوق التلال فكانت غير غائصة الجذور لأن التربة كانت رقيقة، ومن ثم سرعان ما كانت تتخلع أو تنقلب، مما كان سببا فى أن مات بعض من كانوا يتسلقون تلك التلال ويمسكون بها لتساعدهم فى الصعود، أو يستندون إليها وهم جالسون فوق قمة التل، إذ كانت تتخلع فى أيديهم أو تخونهم وتأخذهم إلى الوادى حيث يتحطمون ويموتون. بل كاد سلكيرك نفسه أن يفقد حياته لنفس السبب ذات يوم حين كان يطارد جديا فوق تل منها، لكن الله سلم فلم يمت بل أصيب بالرضوض والخدوش وأغمى عليه فقط لدن وقوعه من قمة التل فوق الجدى، الذى مات، فحماه جسمه اللين تحته من الهلاك. ولما أفاق بعد فترة قال بعضهم إنها يوم، وقال آخر إنها ثلاثة أيام، زحف على يديه ورجليه حتى وصل إلى كهفه الذى كان يبعد نحو ميل (PP. 24- 28) . وبالمناسبة كانت هذه هى الحادثة الوحيدة التى وقعت له وأسقطته مريضا، على عكس روبنسون كروسو، الذى لم يذكر عند سرده أحداث حياته فى الجزيرة شيئًا من هذا النوع، واقتصر كلامه على أنه أصيب مرة بالحمى بسبب الأمطار والبرد، وهو ما كان سببا فى أن يتوخى الحذر بعد ذلك فى أيام المطر فيلزم بيته إلى أن تكف السماء عن الهطول. أما أشجار

جزيرة كروسو فكانت راسخة، فلم نسمعه يشكو شيئًا كهذا، بل بالعكس كان يضطر أحيانا إلى أن يقطع ما كان قد زرعه من شجر حين يجده قد تكاثف واستطال وصار عبئًا عليه وعلى المكان، كما كان يجد عنتا بالغا فى قطع ما يريد قطعه منها سواء للتخلص منه أو لصنع آلة يستخدمها فى أشغاله.

ولا شك أن اختفاء المرض من حياة كروسو على هذا النحو هو وضع غير طبيعى، إذ لا أتصور أن يعيش الإنسان ما يقرب من ثلاثين عاما، وفوق جزيرة مهجورة لا يساكنه فيها إنسان، دون أن يصاب بصداع أو إسهال أو إمساك أو تُرَضّ قدمه أو تجرح يده أو تؤلمه أسنانه أو تلتهب عيناه. . . إلخ إن كان للأمراض والأوجاع والآلام من آخر. وقد قرأت، وأنا بسبيل إعداد هذه الدراسة، عدة نصائح للخبير البريطانى بول هارت لمن تسوقهم أقدارهم إلى العيش على جزيرة مهجورة، إذ أول ما يجب أن يعيه الشخص فى هذه الحالة هو تجنبُ الإصابة ومعالجتُها إذا حدثت بأسرع الطرق الممكنة، ثم التأكد من تفادى أية إصابة أخرى مهما كانت بسيطة إذا ما استمرت محنة البقاء فى هذه الجزيرة[1]. ولكن هل هذا ممكن؟ لا أظن. إنها، إن حدثت، لمعجزة تستعصى على التصديق.

---

[1] من مقال منشور على موقع "الجزيرة" المشباكى تحت العنوان التالى: "نصائح للبقاء حيا على جزيرة مهجورة": http://www.aljazeera.net/news/pages/45fbf589-5df0-467c-97d6-690655828a36

كذلك حفر سلكيرك على جذوع الأشجار تاريخ مجيئه إلى الجزيرة والفترة التى قضاها حتى يوم الكتابة (P. 29)، وهو ما كان يفعله كروسو، ولكن على نحو أكثر انتظاما ومنهجية، إذ كان يحزّ كل يوم حزًّا فى جذع شجرة، ثم يحسب كل أسبوع وشهر وعام يمر عليه هناك، وإن جاءت عليه بعض أيام قليلة فاته بسبب المرض المذكور أن يقوم أثناءها بهذا العمل. وإذا كان كروسو قد دون يومياته على مدار عدة سنوات بالقلم على الورق إلى أن نَفِدَ منه الحبر والورق فإن سلكيرك لم يكن معه أى شىء يمكنه الكتابة عليه، ومن ثم لم يترك وراءه من المذكرات سوى ما كان يخطر له أن يحفره بطريقة بدائية وعابرة على جذوع الأشجار أملا منه فى أن يمر بالجزيرة يوما بحار فيعرف أنه كان ها هنا فوق الجزيرة شخص اسمه ألكسندر سلكيرك عاش وحده أعوما ثم مات ودفن فيها دون أن يبالى به أحد، وإن لم يبق من هذه الخربشات شىء بعد تركه الجزيرة (P. 29).

وهناك نقطة جديرة بالتوقف قليلا إزاءها، ألا وهى أن رواية روبنسون كروسو، وكذلك الفلم الذى قام عليها، لا يشيران إلى أن كروسو قد واجهته أية صعوبة فى الكلام عندما جاءه بعض البشر وتحدث معهم، وهو ما استغربتُه، إذ بدا لى الأمر غير واقعى، لأن من ينعزل فى مكان وحده طوال تلك السنين يفقد تدريجيا مقدرته على الكلام، على الأقل: الكلام السريع الواضح. وظلت

هذه عندى نقطة ضعف فى رواية ديفو. ثم أكدها ما قاله بعض الباحثين من أن سلكيرك فى مثل تلك الظروف كان يجد فى بداية عودته إلى المجتمع البشرى صعوبة فى نطق الحروف كاملة أو بالسرعة المعتادة، وإن كان قد استعاد قدرته على الحديث العادى مع الأيام (PP. 28- 29) رغم قصر المدة التى قضاها وحيدا فوق جزيرة خوان فرنانديز بالنسبة إلى السنوات الطويلة التى أمضاها كروسو منعزلا عن البشر، ورغم أنه كان حريصا على أن يقرأ الكتاب المقدس بصوت عال حتى لا يفقد القدرة على الكلام[1]. ذلك أن الكلام ممارسة، ومن لا يمارس الكلام فترة طويلة يصعب عليه استعادته عند الحاجة إليه. وأذكر أننى شاهدت فى بريطانيا حلقة عن رجل إنجليزى أقام فى فييتنام بعيدا عن أى شخص بريطانى أو حتى أوربى سنوات طوالا، فلما عاد إلى بريطانيا بعد كل تلك الأعوام كان نطقه صعبا وبطيئا رغم أنه لم يكن يعيش طوال الوقت منعزلا

---

[1] Howell, P. 70. وقد ذكر هاول سببا إضافيا لحرص سلكيرك على قراءة الكتاب المقدس بصوت مسموع هو أن الإنسان يستأنس بالصوت الإنسانى حتى لو كان صوتَه هو نفسه. وقد نبهنى هذا إلى وجاهة حرص المسلمين على قراءة القرآن بصوت مسموع، بالإضافة إلى أن الصوت يثبّت المعانى فى العقل والقلب. وأذكر أننى فى صباى وشبابى كنت، ككثير من الطلاب، أَستذكر دروسى بصوت عال، ولا أستطيع أن أفكر مجرد تفكير فى طريقة أخرى. وحين كبرت صرت أقرأ ما أريد استذكاره فى صمت. والغريب أننى فى وقت استذكارى بصوت مسموع لم أكن أرفع صوتى حين أطالع كتابا خارج المقرر.

عن الناس. فما بالنا إذا كانت حالته كحالة روبنسون كروسو؟ ومثله الرقيب الأمريكى بوى برجدال، الذى أسرته طالبان فى أفغانستان سنة ٢٠٠٥م وظل فى حوزتها خمس سنوات، إذ حين أطلق سراحه بعد صفقة عقدتها أمريكا مع طالبان أفرجت بموجبها عن خمسة من معتقليها بجوانتانامو كان يعانى من صعوبة فى النطق بالإنجليزية. وقد ذكر أحدهم أن سلكيرك كان قد فقد المقدرة على النطق حين عُثِر عليه بعد الاثنين والخمسين شهرا التى قضاها هناك، لكنه قد استعاد تلك المقدرة مع الزمن[1].

كذلك لم أر كروسو يأتى على ذكر المرأة بتاتا وكأنه كان مجردا من الغريزة الجنسية. والعجيب أننى لم ألتفت إلى هذه النقطة حين قرأت الرواية فى أصلها الإنجليزى قبل نحو عشرين عاما ولا حينما عدت إليها هذه الأيام أطالعها فى ترجمة البستانى وأعيد النظر فى أصلها الإنجليزى كرة أخرى، اللهم إلا منذ عدة أيام حين أشرق الموضوع فى خاطرى بغتة وكأنه إلهام. ولا أدرى السبب فى هذا رغم أننى أعرف لتلك الغريزة أهميتها وخطورتها ووضعها من النفس والجسد البشريين. فكيف غفل عن معالجتها ديفو، وبخاصة أن بطل روايته قد أنفق من حياته كذا وعشرين سنة دون امرأة وهو فى عز الشباب والرجولة؟ ولا ينبغى أن يقال: ربما لم يكن لكروسو أرب فى النساء، إذ تذكر الرواية فى نهايتها أنه، حين رجع إلى وطنه، تزوج وأنجب، وكان موفقا فى حياته

---

[1] Howell, P. 80.

الزوجية. وبالمثل لا ينبغى أن يحتج أحد بأن المرأة كانت غائبة عن حياته فى الجزيرة، وبالتالى كان من الطبيعى ألا تخطر بباله. ذلك أن الغريزة النسائية ليست شيئًا واردا من خارج، بل هى نبتة مغروسة فى أعماق النفس الإنسانية، فسواء كانت هناك امرأة أو لم تكن فإن الانشغال بها موجود فى كل حال.

إن الغريزة الجنسية، وإن لم تكن بالصورة التى صورها فرويد بحيث جعلها تقريبا كل شىء فى حياة البشر حتى فى فترة الرضاعة، لمن أعتى الغرائز وأعصاها على الترويض، وبخاصة عند الحرمان من الجنس الآخر وفقدان الأمل فى قضاء الوطر منه. ولا أستطيع أبدا أن أنسى قصة "مسحوق الهمس" (من مجموعة "النداهة") ليوسف إدريس وبطلها السجين الذى كان يظن أن الزنزانة التى انتقل إليها ملاصقة لمثلها فى سجن النساء، فكان يدق بيديه ثم بقدميه ثم بالدلو على الجدار الملاصق كى تسمعه النساء على الناحية الأخرى من الحائط مجرد سماع، فيشعر أنه قد نال شيئًا منهن ولو فى الخيال. ولقد وصل الأمر معه إلى الحد الذى أخذ يستعمل كسرولة يضعها من ناحية قعرها على الحائط ثم يضع أذنه عند فتحتها متصورا أن هناك من تخاطبه على الناحية الأخرى وتبثه لواعجها ولهفتها وغرامها المتلظى من خلال الكسرولة هى أيضا، فيرد عليها بنفس اللهفة والاشتعال مستعملا الكسرولة لإرسال عواطفه مثلما يستقبل بها عواطف المرأة التى فى الزنزانة الملاصقة. وظل

هكذا مخبولا بهذا الأمر أو يكاد حتى تبين له عند الإفراج عنه فى نهاية المطاف الطويل أنه لا زنزانة نسائية هناك على الناحية الأخرى ولا يحزنون.

ومما قاله بطل رواية إدريس فى هذا السياق مما يعطينا فكرة عن النار التى كانت تتلظى بأعماقه وتحرمه السكينة فور علمه بأن زنزانته ملاصقة لزنزانة نسائية بنفس السجن وأن أحد المساجين قبله قد استطاع يوما أن يثقب الزنزانة ويتسلل منها إلى هناك وينال كل ما يريد من جميع السجينات ومعهن الرقيبة المشرفة عليهن فوق البيعة، وهو ما دعا إدارة السجن أن تضاعف الجدار الفاصل بين العالمين وتبنيه من مادة لا يمكن اختراقها، وإن لم يكن لهذا أى تأثير عليه، إذ وضع فى عزمه أنه سوف يقدر على النفوذ من الجدار بوسيلة أو بأخرى: "أحسست وكأنما أرى بعينى الحياة تتدفق لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة فى ذهنى. غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد الذى أُلْتُ إليه بجسدى وأفكارى وأحلامى وانفعالاتى... ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفى فى جسدى تتفجر كالنهر الغاضب فى فيضانه يكتسح... كان باستطاعتى أن أثقب الجدران أو أهدها أو أحطم المعبد. قوًى لم أعد أقوى على السيطرة عليها، فأصحبتْ حرة تستطيع أن تفعل ما تشاء: تُقْدِم على القتل أو تقتل حارس الليل...

لقد عرفتُ الحب أكثر من مرة، الحب المحموم المجنون الذى ينهش الصدر ويعتصر الروح، الحب الذى ينسيك مَنْ تكون وما كُنْتَه وما يجىء به الغد، الحب الذى مِنْ طينته خرجت قصص الغرام الكبرى، وجُنَّ قيس، وانتحر فرتر، وماتت جولييت. بعد الحديث القصير الذى تم بالأيدى (يقصد الدَّقّ الذى كان يبعث به، والدَّقّ الذى كان يخَيَّل إليه أن امرأة على الناحية الأخرى من الجدار تبعث به إليه) أحسست وكأننى عثرت على سيدة عمرى، أحسست أن حبى الثالث، ذلك الذى لا يقاس بجواره أول أو ثان، ذلك الذى طالما حلمت به وخشيته، وطالما هفوت إليه وأرعبنى مجرد التفكير فيه، عرفت أنه، هكذا ودون كلمة أخرى، قد بدأ . . .

ومن همسها المسحوق راحت تتجسد لى، وكما يستطيعون فى الطب الشرعى أن يعيدوا صنع الإنسان بأكمله إذا عثروا على إصبع من أصابعه. . . استطعت من همسها المسحوق أن أراها وأقربها . . . إذ هى أقل منى طولا، وعيناها سوداوان غامقتا السواد، وعلى جانبى وجهها المستطيل ينهدل شعرها الأسود الناعم. . . اسمها حتما فردوس، وفى عروقها دم بدوى، وعلى ذقنها بالضبط فوق الغمازة وشم لا يتعدى ثلاث نقاط رمادية باهتة، وفمها ليس صغيرا كفم البنات، ولكنه ممتلئ مقلوب الشفة العليا، لا تملك لحافتها المشرعة إلى أعلى مقاومةً. . ." . فهذه غريزة الجنس، فكيف تجاهلها كل من

سلكيرك وكروسو عند حديثه عن حياته فوق الجزيرة كل تلك المدة، وكان كل منهما فى ذلك الحين شابا قويا مملوءا حيويةً وعُرَامًا وطاقةً، وكان فارغ البال من هموم تدبير المعيشة، إذ كان كل شىء من طعام وتسلية وراحة متاحا إلى حد بعيد، وبوفرة لا يعرفها أى أحد آخر؟

كما كان كلاهما يقضى بعض وقته فى قراءة الكتاب المقدس، وفيه قصص جنسية تشير إلى مدى عتو هذه الغريزة وسلطانها الجبار حتى على الأنبياء وأهل بيتهم كما فى قصة لوط وبنتيه، وكقصة يهوذا بن يعقوب وزناه بثامار زوجة ابنه، وكقصة داود وزناه ببتشبع زوجة قائده المخلص أوريا الحثى، وكقصة أمنون بن داود وزناه بأخته، وكـ"نشيد الإنشاد" المملوء باللواعج[1]. ولعله لهذا السبب أعاد أناتول فرانس صياغة مايقال عن تاييس المصرية، التى كانت فى بدء أمرها عاهرة، من أن الراهب بافنوس قد أخذ بيدها وساعدها على التوبة ثم صارت قديسة، فأتى فرانس وجعل الراهب، بعدما تابت تاييس، يقع فى هواها ويصير فريسة شبق مسعور، ويموت ضالا فاسقا بلا عقل ولا دين. ولعجز الإنسان عن معاندة الغريزة الجنسية قرر الإسلام أنه "لا رهبانية فى الإسلام"، إذ هى تُدَابِر الفطرة، وتقود إلى معاطب

[1] غنى عن القول أننا نحن المسلمين لا نؤمن بهذا، مع معرفتنا بسلطان الغريزة الجنسية، ولكن مع معرفتنا أيضا بأن الإنسان يستطيع أن يستعفّ إذا أراد وأصر على النظافة، وأن الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن يتورطوا فى الزنا بل ولا فى أى شىء يتعلق به بتاتا.

ومصائب جمة. وفى ذات الوقت يحرص الإسلام على العفة والطهارة الجنسية، ولا يقبل بوجود علاقة بين الرجل والمرأة إلا فى نطاق الزواج. فالإسلام بذلك يجمع بين المثالية والواقعية. إنه يريد من الإنسان أن يتطلع إلى السماء العالية مع عدم الغفلة فى ذات الوقت عن مواضع قدميه على الأرض. ومن ثم نجح الإسلام فى إضعاف عوامل الزلل والسقوط فى الآثام.

ومع هذا فقد قرأت فى بحث على المشباك (الإنترنت) حول الأطفال المتوحشين، أى الذين تَرَبَّوْا مع الحيوانات فى الغابة، أو قيل إنهم ترَبَّوْا معها، ما لاحظه جميع من كتبوا فى هذا الموضوع من اللامبالاة الجنسية لدى الإنسان المتوحش، إذ أظهر أغلب هؤلاء المتوحشين شعورهم بالتقزز أمام الإغراءات الجنسية. كما أبدى أحدهم برودة جنسية قصوى. وأدرك شخصٌ ثانٍ سِنَّ الشيخوخة دون أن تظهر عنده رغبة جنسية واضحة. ولم يُبْدِ ثلاثة آخرون، بعد ثلاث سنوات من الحياة الاجتماعية، إلا بعض الدوافع الجنسية المبهمة. ولا فائدة من الإشارة إلى أن الشعور بالحياء لدى بعضهم قد ظهر تدريجيا بشكل متناسب مع درجة تكيفهم. وهكذا كان الأمر بالنسبة لواحد منهم، إذ لم يكن يشعر فى البداية بالحرج عندما يخلع ثيابه قبيل الاستحمام، لكنه تميز بعد ذلك بخجل وتعفف شديدين. وهذا ما لوحظ أيضا عند فتاة صغيرة برازيلية عاشت عارية مدة سنوات طويلة، لكنها تطورت بحيث صار

من الصعب فيما بعد إقناعها، مع شيء من التهديد، بالتعري ثانية حتى يتمكن أحد الرسامين من رسمها[1].

هذا فعلا ما قرأته، لكنى أستغربه استغرابا شديدا، إذ الشهوة الجنسية غريزة فطرية لا علاقة لها بتوحش أو تأنس. وهل الحيوانات فى الغابة التى نشأ بينها هؤلاء الأطفال المتوحشون أو قيل إنهم نشأوا بينها واتبعوا سبيلها فى سلوكهم ولم يبتعدوا عنها كثيرا فى نموهم العقلى والذوقى والوجدانى لا تعرف الشهوة الجنسية؟ الجواب هو أنها تعرف تلك الشهوة، وإلا فكيف تحافظ على نوعها؟ وإذا كان الأطفال الذين تَرَبَّوْا بين حيوانات الغابة قد صاروا مثلها فى سائر حياتهم، فكيف تعطل هذا الجانب بالذات عندهم، وهو لا يتعطل عند الحيوانات متوحشة كانت أو إنسية؟ بل كيف نتصور أن سلكيرك وكروسو، وقد كتبت عليهما العزلة فى جزيرة منفردة غير مأهولة بالناس بعد أن كبرا ونضجت غرائزهما، يمكن أن تتعطل عندهما مثل تلك الغريزة؟ إن سلكيرك ما إن عاد إلى بلاده حتى وقع فى حب فتاة وتزوجها، وهو ما يدل على عدم صحة ما قيل عن لامبالاة الأشخاص المتوحشين بالناحية الجنسية. وبالمثل

---

[1] انظر د. على أسعد وطفة/ الأطفال المتوحشون: حقائق تاريخية ومعطيات تربوية/ منشور على المشباك (الإنترنت) بموقع "مركز الرافدين للبحوث والدراسات الإستراتيجية": http://www.alrafedein.com/news.php?action=view&id=5740

رأينا كروسو أيضا يتزوج ويشعر بالسكينة والرضا جراء إشباع هذا الجانب من شخصيته.

هذا عن الجنس، أما بالنسبة للملابس فكان كروسو، أثناء عيشه على الجزيرة المهجورة، يستعمل ملابس عادية كلما كان ذلك متاحا له، وإلا صنع ملابس وأحذية من جلود الجداء. وأما سلكيرك فمنذ بَلِيَ حذاؤه الذى كان يلبسه حينما غُودِر فى الجزيرة وحيدا لم يُعَنِّ نفسه بصنع بديل له، بل كان يمشى حافيا لا يبالى[1]. وهناك لحيته، التى لم يقترب منها منذ هبط الجزيرة إلى أن غادرها (PP. 28- 29) بخلاف كروسو، الذى كان يأخذ منها بين الحين والآخر.

ورغم أن كروسو قد ترك لنا فى رواية ديفو وصفا للجزيرة وما فيها من أشجار ونباتات فإنه لم يتحدث مثلا، كما تحدث سلكيرك، عن الانحدارات الحادة لبعض تلالها والأودية التى كانت تقطعها ومجارى المياه التى بلغت من النقاء حدا لا يُطَال والتى كانت تهبط من أعالى التلال قافزة من صخرة إلى صخرة على هيئة شلالات صغيرة إلى أن تصل إلى قاع الوادى، دعك من

---

[1] ويذكر هاول (هامش ص٨٠– ٨١) أن الأطفال الأسكتلنديين فى تلك الفترة كانوا يمشون دون أحذية، ولا يلبسون شيئًا منها قبل أن يصبحوا رجالا. كما أن الآباء فى كثير من مناطق المرتفعات الأسكتلندية كانوا، حتى عصر المؤلف، يَعُدّون الأحذية ترفا لا يفكرون فى توفيره لأبنائهم.

الروائح المعطرة الساطعة فى هذه التلال والظلال والجمال والجلال، مما لا يمكن بسهولة أن يقابله الإنسان فى أى مكان آخر من العالم، بل ولا تستطيع تصورات الخيال أن تضاهيه. وليس معنى ذلك أن كروسو لم يتحدث عن أى مظاهر للجمال فى الجزيرة، بل المقصود أنه لم يتعرض لتلك التفصيلات بالذات، بل لأشياء أخرى. كما أنه سرعان ما تأقلم مع وضعه الجديد على خلاف سلكيرك، الذى اقتضاه هذا التأقلم وقتا طويلا قبل أن يتغلب على مشاعر اليأس والسخط وتشرع عيناه فى الالتفات إلى هذا الجمال المبذول دون حدود[1].

شىء آخر يميز تجربة سلكيرك عن نظيره روبنسون كروسو، وهو أن كروسو، حينما التفت إلى الكتاب المقدس وشرع يقرأ فيه نشدانا للعزاء وبثا للطمأنينة فى روحه، كان عقله يشتغل دائما ويقلب كل فكرة تخطر له وكل شىء يصيبه أو يشاهده أو يتذكره كأنه مفكر عميق. كما كان يشعر دائما بقوة قوية أن يد الله حاضرة باستمرار وأن حكمته تتجلى فى كل شىء وفى كل أمر، ومن ثم كان يعمل باطراد على أن يستنبط من أى حدث يقع له وجه الحكمة والقدرة والإبداع الإلهى فيه، ويستخلص الدروس والعبر التى يشتمل عليها. ويجد القارئ هذا الأمر مبثوثا فى كثير جدا من صفحات رواية ديفو. أما سلكيرك فكل ما نعرفه أنه كان يقرأ كتابه المقدس ويجد فيه السلوى عن

---

[1] Howell, PP. 87, 88.

الوحدة والتعاسة التى كان يحس بها إحساسا عنيفا فى الجزيرة خلال الشهور الأولى من حياته هناك، ثم خَفَّتْ إلى حد ما فيما بعد .

ومن الغريب أن تمر بعض السفن قريبا من الجزيرة، لكن سلكيرك، بدلا من الاستنجاد ببحارتها، كان يتحرى أن يكون بنجوة عن أنظارهم بحيث لا يَرَوْنه، إذ كان يعيش مع قططه وجدائه ويرقص معهم ويستمتع بهم بغاية السعادة، على عكس ما كان يتمناه كروسو، وإن كان هذا الأخير حين عرف أن بعض البشر قد جاس خلال الجزيرة ورأى آثار قدمه على الرمال اعتراه رعب فائق خوفا من أن يكون واحد من أكلة لحوم البشر هو صاحب تلك الآثار. أما حين أتيحت له فرصة مرور سفينة بالجزيرة فقد عض عليها بالنواجذ وخَطَّط للرحيل على متنها رغم أن ظروف بحارتها لم تكن مما يبعث على الاطمئنان. وهو فرق هام جدا بين الرجلين وتصرفاتهما . وفى المرة الوحيدة التى غلب سلكيركَ الفضولُ لمعرفة جنسية السفينة اقترب منها حتى بَصُرَ به بحارتها، وكانوا من الأسبان، أى من الأعداء، فشرعوا يطاردونه، وهو يعدو بعيدا عنهم، ورصاصهم ينهمر فى اتجاهه بغية قتله، لكن دون أن تصيبه رصاصة واحدة، إلى أن نجح فى تسلق شجرة واختبأ بين غصونها دون أن يتنبه إلى مكان اختفائه أحد من مطارديه (PP. 30- 33) . وعلى ذكر تسلق

سلكيرك الشجرة خوفا من الأسبان نام كروسو أول مقدمه الجزيرة فوق شجرة خوفا من الوحوش، ونام مرة أخرى على هذا النحو بعد ذلك.

وهذه النقطة الأخيرة الخاصة بالجنسية الأسبانية للسفينة تذكرنا بما قاله كروسو من أنه يفضل أن يقع فى أيدى البرابرة آكلى لحوم البشر على أن يقع فى يد الأسبان فى أمريكا الجنوبية حين يكتب له ترك الجزيرة إلى تلك القارة، فيرسله القساوسة إلى محكمة التفتيش حيث يذوق الويل ويُقْتَل قتْلَةً شنيعة. وهنا أيضا نرى سلكيرك يُؤْثِر أن يموت وحيدا فى الجزيرة وتأكل القطط جثته على أن يقع فى أيدى الأسبان، الذين كانوا حريصين أشد الحرص على ألا يعود أى إنجليزى يعرف شيئًا عن الملاحة فى تلك البحار إلى بلاده. ومن ثم كان سلكيرك يعلم تمام العلم أنه لو كان وقع فى أيديهم لكان مصيره القتل الوَحِىّ أو قضاء بقية حياته يعمل فى السخرة فى إحدى مستعمراتهم بأمريكا اللاتينية أو على متن إحدى سفنهم التى تجوب تلك المناطق أو التحول إلى الكاثوليكية (P. 33).

وبعد مرور أربعة أعوام وأربعة أشهر كانت تمر بالقرب من الجزيرة سفنية إنجليزية، فأنفق سلكيرك ليله كله يوقد نارا كى يلفت أنظار ركابها إليه، مما كانت ثمرته أن أرسلوا قاربا إلى الشاطئ فشاهده من فيه وقد رفع قطعة قماش بيضاء علامة السلم والتسليم. وحين وقعت أنظارهم عليه وهو عارى الساقين

والقدمين ويغطى وسطه بجلد المعز، وقد استطالت لحيته على نحو شنيع، أصابهم الخرس من هول المفاجأة، إذ بدا لهم واحدا من المتوحشين[1]، وبخاصة أنه لم يكن يستطيع الكلام آنذاك جراء الفرح الغامر. وقد قدم لهم سلكيرك الطعام وساعدهم على إصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح فى السفن التى كانوا يستقلونها. وحين دَعَوْه إلى الصعود على سطح القارب رفض الاستجابة لطلبهم قبل أن يطمئنوه إلى أن دامبييه، القائد الذى تمرد عليه وترك السفينة إلى الجزيرة بسببه، لم يعد يتولى القيادة. والطريف أن دامبييه ما إن رآه حتى شهد له بالبراعة والتفوق، وهو ما حرك كل ما لديه من نشاط وحيوية فساعدهم فى إصلاح سفنهم بكل ما لديه من قوة ومهارة (PP. 40- 44).

أما فى رواية "روبنسون كروسو" فإن السفينة التى غادر بطلها الجزيرة على متنها كانت تقل عددا من البحارة الإنجليز الذين تمرد بعض الأشقياء منهم على قائدهم وقيدوه واثنين من زملائهم المخلصين له وأرادوا تركهم وحدهم فى الجزيرة المهجورة لولا أن العناية الإلهية قد قيضت للقائد أن ينقذه كروسو وأن يعيد بعضَ البحارة غير الأشرار إلى صوابهم بعد أن كان الأشقياء قد أكرهوهم على الانحياز إليهم، وأن يرجع القائد إلى موضعه من قيادة السفينة ويعاقب

---

[1] وقد نص هاول نصا على أن سلكيرك لم يقترب من لحيته طوال السنوات الأربع وأربعة الشهور التى قضاها فى الجزيرة (P. 82).

المتمردين بتركهم على الجزيرة الموحشة، وإن كان قد علمهم طرائق العيش فيها وزودهم بما أضحى فى غنى عنه من الملابس والسلاح وما إليه.

كذلك من الفروق بين حكاية سلكيرك ورواية روبنسون كروسو أن سلكيرك، حين ترك الجزيرة راجعا مع البحارة الإنجليز، لم يكن يطيق لفترة طويلة أن يأكل شيئا فيه ملح لأنه تعود على الطعام الخالى منه نزولا على حكم الضرورة كما أشرنا قبلا، أو يشرب خمرا لأنه لم يكن يجدها على الجزيرة وصار ينفر منها، وبخاصة أن مشاعره الدينية كانت قد استيقظت داخله فى تلك الفترة التى عاش فيها وحيدا فى الجزيرة وأخذ يمارس العبادة والقراءة فى الكتاب المقدس. ولهذا لم يكن يأكل أو يشرب على متن السفينة التى تحمله سوى البسكويت والماء. ليس ذلك فحسب، بل غلبه فى البداية ما تعود عليه من الصمت وعدم وجود من يتواصل معه من البشر، فلهذا لم يكن يكثر من الكلام مع البحارة الذين أنقذوه، وظل متنائيا أطول مما كان متوقعا حتى بعد عودته إلى إنجلترا. كما أخذ الأمر منه وقتا حتى عاد إلى استعمال الحذاء دون حدوث ثآليل فى قدميه أو شعوره بالتقييد والضيق (P. 44). أما كروسو فكان يملّح طعامه كما قلنا، وكان يشرب الروم دائما مما حمله من القارب الذى تحطم قريبا من الجزيرة وكان هو الناجى الوحيد من بحارته، أو مما وجده بعد ذلك فى سفينة تحطمت قريبا من الجزيرة. كما أن الكلام، حين التقى بجمعة، لم

يسبب له أية مشكلة، وكأنه لم ينقطع يوما عنه رغم انفراده بنفسه فى جزيرته الموحشة قبل ذلك. أما عند مغادرته الجزيرة فكان بصحبته جمعة طوال الوقت يتحدث معه، وإن كانت اللغة التى يستعملها جمعة لغة بدائية مكسرة تؤدى المعنى الأساسى، والسلام. ولكن كنت أتوقع أن تكون لغة كروسو فى تلك الحالة قد انحدرت وفسدت جراء اختلاطه طول الوقت بجمعة كما يحدث فى مثل تلك الحالة. ولم تشر الرواية إلى أى شىء يتعلق بانتعال الأحذية، لأنه لم يهجرها يوما.

وبالنسبة لسلكيرك فقد عاد بعد مدة إلى مهنته كبحار، ولكن دون الموبقات التى كان يرتكبها قبلا حتى إنه لم يعد يسب أو يحلف كعادة البحارة، فى حين عاد كروسو إلى التجارة فى الوقت الذى أقبل فيه على عمل الخير لأصدقائه وأقاربه، وبخاصة من أخلصوا له فى وقت انعزاله بالجزيرة. وانتهى الأمر بسلكيرك إلى التزوج بفتاة راعية رآها فى واد منعزل كان مغرما بالانفراد وقضاء وقته فى التأمل بين أحضانه امتدادا لما كان قد تعوده فى الجزيرة المعزولة التى لا يسكنها بشر. وقد أعجبه فى تلك الفتاة، التى كان يراقبها بالساعات دون أن تشعر، هدوؤها وبراءتها وصوتها العذب الجميل الذى كانت تردد به أغانيها الرعوية. وقد تزوجها بعد أن اتفق معها على الهروب بعيدا عن بلدهما تجنبا لما يمكن أن يجره عليه هذا الزواج من سخرية من يعرفونه بعدما كان يبدى

نفورا من مخالطة الناس. ثم بعد عدة سنوات مات وهو يمارس عمله على متن إحدى السفن الأميرية سنة ١٧٢٣م (P. 49- 50) .

أما روبنسون كروسو فلم يعان شيئا من هذا، بل انخرط منذ الوهلة الأولى فى المجتمع، مع أخذنا فى الاعتبار أنه فى السنوات الأخيرة من حياته بالجزيرة كان يعيش معه طوال الوقت جمعة الشاب الذى أنقذه كروسو من القتل والالتهام، والذى علمه الإنجليزية والنصرانية والزرع والقلع والعجن والخبز والنجارة وارتداء الملابس واستعمال البندقية والمسدس وأكل لحم الجداء بدلا من أكل البشر . . . إلخ. أى أنه قد عرف قبل ذلك بفترة غير قصيرة الاختلاط بالناس، وإن كان فى دائرة ضيقة بالغة الضيق.

ومن الفوارق الهامة جدا بين القصتين أن فى قصة كروسو أكلة لحوم بشر يقومون بدور خطير فيها، وكان لهم تأثير عنيف على حياة كروسو فوق الجزيرة. بل إن ظهورهم فى حياته هو الذى أدى فى النهاية، بعد سلسلة طويلة من الأحداث استغرقت عددا من الأعوام، إلى مغادرة الجزيرة والعودة إلى بلاده والانغماس فى المجتمع الإنسانى الكبير كَرَّةً أخرى. وليس لشىء من هذا أى وجود فى قصة سلكيرك.

كما أن سلكيرك، أثناء عودته من الجزيرة، قد اشتغل بحارا قرصانا، بل تولى قيادة إحدى السفن التى انتهبها هو وزملاؤه القراصنة من أصحابها

وحولوها بدورها إلى سفينة قرصان[1]. وهناك وصف كثير فى كتاب هاول لعمليات القرصنة التى قام بها مع البحارة الآخرين سواء للسفن التى كانت تصادفهم فى المحيط أو للمدن الساحلية التى كانوا يمرون بها فى طريقهم. ويجد القارئ كثيرا من هذه القرصنات بدءا من الصفحة السابعة والتسعين فصاعدا[2]. أما كروسو فكان قبل وصوله إلى الجزيرة تاجرا، وعاد إلى ممارسة تجارته بعد مغادرتها.

---

[1] Howell, 97- 98.

[2] مما يبعث على القهقهة أن هاول (ص١٠٢– ١٠٣)، بعد أن ذكر كيف اقتحم سلكيرك وبعض البحارة الآخرين بيتا من البيوت فى إحدى القرى التى سَطَوْا عليها وسلبوا كل الحلى والأقراط الذهبية التى كانت الفتيات الأسبانيات الجميلات الموجودات فيه يتحلين بها، قد عقب قائلا إن القراصنة المجرمين كانوا مهذبين معهن مما جعل الأسبانيات الجميلات يقدمن لهن الطعام والخمر المعتقة لا فى هذه المرة فقط، بل فى طريق عودتهم من نهب القرية. أصيلات والله أيتها الفتيات! لكن هل بعد الكفر من ذنب؟ وهذا إن صح ما قاله عن التهذيب، إذ لا أظن القراصنة المتوحشين الذين لا يخشَوْن ربا ولا يحترمون قانونا ولا يشعرون بشىء من الأحاسيس الإنسانية الراقية، وبخاصة بعد أن شعشعت الخمر فى رؤوسهم النجسة، قد أفلتوا هؤلاء الفتيات دون اغتصاب، وبخاصة أنهم كانوا محرومين من النساء منذ وقت طويل، ومن هنا لا أحسبهم أبدا كانوا يعرفون شيئا اسمه التهذيب. وهل يمكن أن نصدق هذا الزعم مع ما كتبه هاول ذاته من أن أولئك الأجلاف لم يكتفوا بسلب ما ظهر من الحلى على أجساد الفتيات، بل مدوا أيديهم وكشفوا عن مناطق حساسة فى أجسادهن واستولوا على الحلى السميكة التى كن يضعنها فيها. ولا شك أن قول هاول إن تصرف سلكيرك المهذب فى هذه المناسبة، باعتباره قائد المجموعة، إنما يرجع إلى أثر

وقد نُشِرَتْ مغامرات سلكيرك بصورة مختصرة إثر عودته إلى بريطانيا بعد غياب ما يقرب من ثمانى سنوات قضى منها أربع سنوات وأربعة أشهر فوق جزيرة خوان فرنانديز وحيدا دون مؤنس من البشر، والباقى جائبًا البحار والمحيطات قرصانا مع قراصنة بلاده ومارًّا بكثير من البلاد فى أمريكا وأفريقيا وآسيا فأثارت تلك المغامرات اهتمام الناس إثارة شديدة، وتحدثت عن صاحبها الصحف الإنجليزية، فقال عنه مثلا السير ريتشارد ستيل فى أحد أعداد صحيفة "The Englishman" فى ١٧١٣م، حينما التقاه فى أيامه الأولى عقب عودته من رحلته ومغامراته الطويلة، إنه رجل عاقل، ويبدو من

التدين فى نفسه، هو كلام يفطّس من الضحك. لو صح هذا الذى يقوله هاول، ولا يمكن أن يصح، لكان التعليق الوحيد المناسب عليه هو: يا ليتها ما زنت ولا تصدقت! على أن ذلك ليس دفاعا عن الأسبان، فإنهم لم يكونوا يقلون توحشا ولا همجية ولا بربرية عن أعدائهم البريطان، فكلهم فى الهوا سوا. وأذكر أننى أنا وزوجتى قد جمعتنا منذ عدة عقود مصادفةٌ، فى الشارع الذى كان يقع فيه سمرتاون هاوس حيث كنا نقطن، بامرأة أسبانية تعيش فى أكسفورد، ودار بيننا الحديث على باب بيتها، فأخذت الأسبانية السمينة بعض الشىء تنهال على الإنجليز بالأوصاف المنتقاة وتفيض فى الحديث عن قرصنتهم القديمة فى البحار وترسم صورا مضحكة لبحارتهم اللصوص. وهو ما أثار ضحكنا، واستغرابنا فى ذات الوقت لمعرفتنا أن الأسبان ليسوا ملائكة أخيارا ولا كانوا آنذاك دعاة حقوق إنسان يدافعون عن الهنود الحمر ويعملون على حمايتهم من البطش والترويع والإبادة، ودعنا الآن مما صنعوه بالمسلمين قبل ذلك فى الأندلس. يستوى فى ذلك مسلمو العرب والبربر، والمسلمون الأسبان أنفسهم، وهم الأغلبية الساحقة الماحقة.

حركاته ومظهره أنه كان منعزلا عن المجتمع فترة طويلة من حياته، وإنه لا يبالى كثيرا بما يقع حوله من الأمور العادية كما لو كان غارقا فى التفكير، وإنه كثيرا ما كان يترحم على أيام عزلته فى الجزيرة القفر بما فيها من هدوء وسكينة، وإن كان قد تغير فيما بعد حين اختلط بالناس وزالت عنه مشاعر الاستيحاش الأولى[1]. وكان فى الفترة المبكرة من عودته إلى قريته بأسكتلندا يترك المنزل منذ الصباح ومعه ما يحتاجه من طعام وشراب وغيره ويظل وحده فى أحد الأودية القريبة بين أحضان الطبيعة الحنون يتمشى ويتأمل وهو صامت، مستعيدا ذكريات إقامته فى خوان فرنانديز بالمحيط الأطلسى إلى أن يحل المساء فيرجع حينئذ إلى المنزل ضائق الصدر لينفرد بنفسه فى الطابق الأعلى مع قطتين علمهما الرقص وغيره من الحركات الظريفة كما صنع مع قططه فى الجزيرة المذكورة. وكان أقرباؤه كثيرا ما يفاجئونه وهو يبكى. كما بنى لنفسه كوخا قريبا من منزل أبيه يطل على منظر طبيعى خلاب كان يلجأ إليه كثيرا، وبخاصة عند هطول المطر، ويعبر عن حنينه إلى أيام عزلته فى الجزيرة المهجورة. ثم اشترى قاربا كان يتنزه فيه حين يسمح الجو بالنزهة، أو يصطاد من النهر. وظل هكذا حزينا منطويا على نفسه معظم الوقت إلى أن وقع نظره على فتاة راعية بريئة اسمها صوفيا فى بعض تلك النواحى تشغل نفسها، أثناء الرعى، بجمع الأزهار البرية والترنم ببعض الأغانى، فأُغْرِم بها وتزوجها بعد أن هربا معا إلى لندن، ثم تزوج امرأة أخرى بعد موتها دون أن ينجب من أيتهما. وكان يشتغل

---

[1] Howell, PP. 125- 126.

أثناء ذلك على إحدى السفن الملكية[1] . وهو ما لم نر شيئًا منه فى رواية "روبنسون كروسو" .

والآن بعدما عقدنا مقارنة بين حكاية سلكيرك ورواية "روبنسون كروسو" ماذا يمكننا أن نقول؟ لقد اجتمع كثير من الكتاب من البريطانيين وغير البريطانيين على أن رواية دانييل ديفو إنما اعتمدت على ما وقع لألكسندر سلكيرك . وقد ذكر هاول صراحة، كما بينا فى هذا الفصل، أنه لا يوجد أدنى ريب فى هذا، وإن كان الرجل قد حصر ذلك فى الفكرة العامة، وهو ما نوافقه عليه وما أتصور أن المقارنة بين القصتين قد أوضحتهما بما لا يحتمل شكا . فالتفاصيل تختلف كثيرا جدا: سواء فى وصف الجزيرة أو فى تصرفات البطلين أو فى أحداث القصتين أو فى الأشخاص الذين ظهروا فى الحكايتين أو فى بدايتهما ونهايتهما . وهذا أمر يحسب لديفو.

كذلك من الصعب جدا أن يكتب أى مؤلف رواية ناجحة يلتزم فيها ما وقع فعلا فى الحياة دون أدنى حيدة عنه، لأن الحياة لا تؤلِّف إلا نادرا ونادرا جدا، بل ربما لا تؤلف أبدا، رواية محبوكة الأطراف لا تحتاج إلى تدخل من خيال المؤلف وعقله ومشاعره ووجهة نظره. وبالتالى ما كان دانييل ديفو بمستطيع أن يبدع روايته لو كان التزم بما قاله سلكيرك، وبالذات لأن ما قاله سلكيرك جد قليل، بينما تفيض "روبنسون كروسو" بالأحداث والمواقف

---

[1] PP. 129- 130.

والأشخاص والأوصاف والتصرفات والأفكار والتأملات والمخاوف والشكوك والمطامح، علاوة على كثير مما لم يأت له ذكر فى حكاية سلكيرك ولا خطر له ببال كأكلة لحوم البشر بغض الطرف عما إذا كان الأمر صحيحا أصلا كما يؤكد كثير من الأوربيين أو كان ادعاء لا ظل له من الواقع كما يقول آخرون حتى من بينهم، فهذه نقرة، وتلك نقرة.

ورغم هذا فلا شك أن رواية ديفو تعانى من بعض العيوب الفنية كسكوتها تماما عن المسألة الجنسية فى حياة بطلها كما وضحنا فى موضعه، وكتصويرها كروسو قادرا على الكلام بكل سهولة وبساطة بعد صمته تلك الأعوام الطوال التى قضاها وحيدا منعزلا فى جزيرته قبل أن يقابل جمعة ويجد رفيقا يمكنه أن يوجه إليه الحديث، وإن كان حديثا بدائيًّا وشَذْرِيًّا وغير منضبط على اعتبار أن جمعة لم يكن إنجليزيا، ومن ثم لم يكن من الممكن أن يدور بينهما كلام متسق بلغة جون بُلْ، على الأقل: فى البداية. ولقد ظل جمعة، حتى بعد أن صحب كروسو إلى بريطانيا، يستعمل إنجليزية مكسرة مضحكة لا تربطها بإنجليزية البريطان روابط محترمة.

ورغم أنى من أنصار الرأى القائل إن دانييل ديفو قد استوحى حكاية ألكسندر سلكيرك عند تأليف روايته، وإن لم يقف استيحاؤه عند مغامرات سلكيرك كما سوف نوضح فى موضع آخر من هذا الكتاب، فلست أوافق

حفيدة سلكيرك التى قابلت د . نجم عبد الكريم واتهمت ديفو بأنه لص سطا على عمل جدها البعيد واكتسب من ورائه الأموال الطائلة والصيت البعيد والشهرة المتناوحة بينما مات جدها مغمورا لم يحس بموته أحد . ذلك أن استيحاء هذا الحدث أو ذاك فى إبداع أدبى أمر معتاد ولا يمكن أن تستغنى عنه الحياة، بل ما من شىء فى الحياة يأتى من فراغ سواء كان إبداعا أدبيا أو صناعة يدوية أو تصرفا اعتياديا من تصرفات الحياة اليومية. ترى كيف نمشى؟ هل نبتدع المشى ابتداعا من الفراغ؟ أبدا، بل نتعلمه ممن حولنا ونقلدهم فيه ونرسم على منوالهم. وقل مثل ذلك فى اللبس والأكل والنوم والكتابة والقراءة والسفر وقيادة السيارات والقطارات والطائرات والجلوس على الأرض أو على المقاعد . . . إلخ إن كان لذلك من آخر .

ترى من أين أستمد ما أكتبه الآن؟ من آلاف الكتب التى قرأتها من قبل، وعلى رأسها المصادر والمراجع المباشرة التى رجعت إليها وأنا بصدد تأليف هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم، وكذلك من آلاف الأحاديث والدروس والمحاضرات والخطب والمناقشات التى استمعت إليها . أليس كذلك؟ ترى من أين يستمد مؤلفو الروايات والمسرحيات التاريخية أعمالهم؟ أليس من كتب التاريخ، التى يأخذون منها الإطار الزمنى والشخصيات والأحداث وربما الأقوال الرئيسية لتلك الأعمال؟ هل يحق إذن لهؤلاء المؤرخين

أو ذرياتهم أن يوجهوا اتهاما لأولئك المؤلفين بالسرقة والنصب والاحتيال؟ إن فى هذا لجَحْدًا لعبقرية أولئك الكتاب، تلك التى خلقت من الفسيخ شربات كما يقولُ العامةُ عندنا ؟ إن هذه المادة التاريخية موجودة طوال الوقت فى تلك الكتب، لكن دون أن يكون لها تلك القيمة الأدبية التى تكتب لها الخلود وتجعل منها شيئًا جديدا . وليس من العدل ولا من العقل تجاهل جهد أولئك الروائيين والمسرحيين، وإلا فلا قيمة لشكسبير مثلا أو فيكتور هيجو أو كريستوفر مارلو ولا لإبراهيم رمزى أو على الجارم أو توفيق الحكيم أو أحمد على باكثير أو نجيب محفوظ.

وتزداد الاتهامات شناعة إذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما فعله مثلا توفيق الحكيم وباكثير فى مسرحيتيهما عن أوديب، اللتين اعتمدا فيها على إعادة كتابة ما كتبه سوفوكليس، أو ما فعله برنارد شو فى مسرحيته عن بجماليون، التى صاغ فيها الأسطورة الإغريقية المعروفة صياغة عصرية وحولها إلى حكاية بريطانية واقعية تختلف عن الحكاية القديمة إلى حد بعيد رغم استيحائها إطار الأسطورة الضاربة فى أغوار الزمن. ترى من أين أتى نجيب محفوظ بروايته: "اللص والكلاب"؟ لقد استوحى إطارها العام من حكاية السفاح التى كانت تنشرها الجرائد فى تلك الأيام، ذلك السفاح الذى خانته زوجته، فاضطربت حياته وأخذ يرتكب الجرائم سخطا ومرارة إلى أن وقع فى يد الشرطة فقتلته

فى إحدى المغارات فى البحيرة فيما أتذكر الآن. إلا أن نجيب محفوظ قد أضفى على تلك الحكاية العادية أبعادا سياسية ودينية وفلسفية وأدخل فيها الشيوعية والتصوف والمسجد والمدينة الجامعية والصحافة والصحفيين الانتهازيين الكذابين الذين يلعبون بالثلاث ورقات. ودعنا من الأسلوب اللغوى والبناء الفنى وتصوير الشخصيات وإجراء الحوار ووصف الأماكن وسرد الوقائع. وأين هذا كله من حكاية السفاح المسكين؟[1]

لا بل ممَّ يتكون كل واحد من البشر أو من البقر، ولا فرق كبير أو صغير بين الاثنين فى أمرنا هذا؟ ألا يتكون من الأغذية التى تلقاها فى بطن أمه وتلك

[1] من طريف الأمر أننى رأيت ذات ليلة زوجة السفاح هى وأمها فى صحبة رجل من ميسورى الريف فى شارع سعد الدين بطنطا عند ورشة لحام يصلح شيئا فى سيارته القديمة. وكان ذلك بعد مقتل زوجها. ويبدو أنها كانت بسبيل الزواج من ذلك الرجل أو على الأقل: كان يوهمها بأنه يريد أن يتزوجها. وكنت فى ذلك الوقت صبيا فى الثانية عشرة من العمر، وكانت تلك أول سنة لى فى طنطا بالمعهد الأحمدى. ولا أدرى السبب الآن فى أنى كنت أقف معهما عند تلك الورشة. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر كما يقولون فقد كان العم إبراهيم أبو صيرة، أحد رجال القرية الظرفاء، يقول بكل يقين إن السفاح (وكان قطاعٌ كبيرٌ من الناس يتعاطفون معه ويَرَوْنه مظلوما وصاحب حق) قد عرض على جمال عبد الناصر أن يذهب (كيف؟ لا أدرى) إلى إسرائيل ويحضر له بن جوريون فى قفة، لكن عبد الناصر لم يعره التفاتا للأسف. فانظر، أيها القارئ، كيف أن الحدث الواحد يُفْهَم بأكثر من طريقة مثلما اختلف فى فهم مغامرات السفاح واستنباط العبرة منها كل من عمنا (كلنا) نجيب محفوظ وعمى (أنا وحدى) إبراهيم أبو صيرة!

التى تناولها بعد خروجه إلى الدنيا ؟ ومع هذا فشتان بين إنسان وآخر، وبين بقرة وأخرى. وإلا فمن حق بياعى البطاطا والخيار على عربات اليد فى منطقة الدراسة أن يتهموا نجيب محفوظ بأنه سرق منهم روايته: "أولاد حارتنا"، فما أكثر بياعى عربات اليد فى تلك الرواية! ولا ينبغى أن يتأخر عن مشاركتهم فى توجيه هذه التهمة للرجل تجار الصنف ومستهلكوه، فالرواية تعج بالحشيش والحشاشين. أليس كذلك؟

فلو افترضنا صحة ما قالته حفيدة سلكيرك للدكتور نجم عبد الكريم من أن جدها كان يقص كل ليلة على دانييل ديفو فى الحانة وقائع مغامراته على جزيرة خوان فرنانديز[1] لما كان على ديفو من تثريب، إذ لم يأخذ من البحار الأسكتلندى سوى الإطار العام لروايته، وليس هذا جوهر العمل الأدبى، بل مجرد مشجب يعلق عليه المبدع نظرته إلى الحياة، وفلسفته فى فهم الكون والمجتمع والبشر والتاريخ، وبناءه للرواية وصنعته فى تصوير شخصياتها وضَفْر حواراتها وسَلْسَلَة وقائعها ورسم أماكنها ومناظرها، ومقدرته فى التلاعب باللغة لإمتاع القارئ والاستيلاء على لبه وقلبه، بل على كيانه أجمع.

ثم ما الذى أوقعه ديفو على سلكيرك من ضرر بتأليفه روايته؟ هل ضيع عليه مالا؟ هل أفقده ميراثا كان سيؤول إليه؟ هل اختطف منه زوجته؟ هل سرق منه شهرته؟ أبدا لم يحدث شىء من ذلك، ففيم تضرُّر الحفيدة إذن

[1] حاولت أن أجد لتلك الدعوى أصلا، فلم أوفق.

وزمجرتها ؟ بالعكس لقد خلد ديفو ذكرى جدها بدلا من أن ينسى الناس قصته بعد قراءتها فى الصحف، التى سرعان ما ينسى الناس ما يطالعونه فيها، وصرنا كلما قرأنا "روبنسون كروسو" نتذكر جدها . وأنا خير مثال على ذلك، وهذه الدراسة التى يطالعها القراء مصداق لما أقول. لقد كانت "روبنسون كروسو" السبب فى بحثى عما كُتِب عن سلكيرك ومعرفة كل صغيرة وكبيرة فى مغامرته تلك، ولولا رواية ديفو ما خطر لى سلكيرك قط على بال.

كذلك لا يصح أن نهمل فى سياقنا هذا أن ديفو كان كاتبا غزير الإنتاج، إذ كتب مئات الكتب والروايات والدراسات والمنشورات ولم يقتصر على تلك الرواية التى تقول حفيدته إنه قد سطا عليها من جدها كما لو كان جدها هو الذى ألفها ثم أتى ديفو وسرقها حاذفا اسمه من فوق غلافها وواضعا اسمه هو عوضا عنه. فهذه هى السرقة لا أن يستمع إلى سلكيرك يحكى مغامرته على الجزيرة الموحشة فيخلق مما سمعه رواية بديعة تعيش مع الأجيال دون أن تفقد قدرتها على الإمتاع والجاذبية وإلهام العقول والقلوب. ومن الممكن أن نقول بنفس طريقة الحفيدة إن جدها ليس له فضل فى مغامراته بل الفضل كله للأقدار، فهو لم يؤلف شيئًا منها بل كان الشخصَ الذى وقعت له، فأى فضل فى هذا ؟

ترى أإذا مرض أحدنا نُسِب إليه الفضل فى أنه مرض؟ أم هل إذا صدمته سيارة قيل إنه هو صاحب الفضل فى تلك الصدمة وما ترتب عليها من كسور أو عاهات؟ ولا ننس أن ما وقع لسلكيرك قد نشرته الصحف وكتب عنه الكاتبون، فكان ينبغى إذن، حسب فهم تلك الحفيدة التى أجدنى أتعاطف معها رغم ذلك، أن يزعم الصحفيون والكتاب الذين تناولوا موضوع سلكيرك أن ديفو قد سرق منهم ما كتبوه وصنع منه رواية لا تستحق أن تنسب إليه. كذلك كان ينبغى، بناء على فهم حفيدة سلكيرك، أن يتهم سكان لندن دانييل ديفو بأنه استلهم العاصفة العظمى التى حطمت البيوت وقتلت الناس وشردت الجموع عام ١٧٠٣م فى تأليف كتابه: "العاصفة" بعد الحادثة بعام واحد. إننى لا أدافع عن ديفو، فديفو لا يعنينى فى شىء، بل أنا أدافع عن العقل والمنطق. وبمناسبة ما نحن فيه هناك كاتب أرجع رواية ديفو إلى مغامرات وقعت لشخص آخر غير سلكيرك هو الجراح البريطانى هنرى بتمان، الذى هرب من حكم صدر ضده لاشتراكه فى تمرد على الدولة وساقته الأقدار، كما ساقت كروسو، إلى جزيرة مهجورة... إلخ، ونشر كتابَه أبو الناشر الذى طبع رواية ديفو كما جاء فى المقالة المخصصة لديفو فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا". وهذا غير استيحائه قصة ابن الطفيل: "حى بن يقظان" كما يقول كثير من الدارسين، ومنهم صاحب مقالة "ويكبيديا" المشار

إليها آنفا . وهناك غير سلكيرك وبثمان أشخاص وقع لهم ما وقع لهذين الرجلين، ومن المحتمل أن يكون ديفو قد استلهم مغامراتهم جميعا .

وقد قلت إننى متعاطف مع الحفيدة، التى كانت سببا رئيسيا فى اهتمامى برواية "روبنسون كروسو" ومغامرات جدها مما كانت ثمرته الكتاب الذى ينظر فيه القارئ هذه اللحظة، إلا أن التعاطف شىء، وقول الحق شىء آخر. والحمد لله أن تلك السيدة لا بد أن تكون قد ماتت، وإلا رفعت علىَّ قضية فى المحاكم الدولية تتهمنى فيها بأنى استوحيتُ ما قالته للدكتور نجم عبد الكريم وصنعتُ منه كتابا فى الأدب المقارن. ولن تعدم السيدة المبجلة فى هذه القضية الدليل. ألم أقل بعظمة لسانى قبل بضعة أسطر إنها كانت سببا رئيسيا فى اهتمامى بالأمر ووضعى الكتاب الحالى؟ والاعتراف سيد الأدلة كما يقولون فى عالم القضاء!

وقد ذكرتِ السيدة سلكيرك، على سبيل الشماتة، ما معناه أن الله قد عاقب ديفو على سرقته أفكار جدها فمات فقيرا ودُفِن فى مقابر الصدقة. ولقد قرأت فى مادة "دانييل ديفو" فى الموسوعة البريطانية (ط١٩١٢م) أن حياة ديفو فى أيامه الأخيرة قد تعكرت بسبب ديون كانت عليه لم يستطع الوفاء بها وأنه مات مختفيا عن دائنيه، وإن لم تذكر الموسوعة شيئًا عن مقابر الصدقة هذه. إلا أننا نقرأ فى المقال الذى خصصته له النسخة الإنجليزية من موسوعة

"الويكيبيديا" أنه قد دفن فى مقابر بَنْهِل فيلدز بلندن، وهى، كما تقول تلك الموسوعة أيضا فى المادة الخاصة بـ"Bunhill Fields"، المقابر المخصصة للذين لا يتبعون الكنيسة الإنجليزية، ودفن فيها من مشاهير الأدباء إسحاق واطس وتوماس برينجل وجون بانيان ووليم بليك، وطوائف من مشاهير رجال السياسة والدين والفكر والطب والهندسة والحرب والوزارة والإدارة والصناعة وغيرهم ممن كانوا على غير مذهب الكنيسة الأنجليكانية، كما أقيم له نصب تذكارى هناك. وبالمناسبة فمنظر المقابر يشرح الصدر، ويفتح الشهية للموت اليوم قبل الغد، فهى نظيفة ومنسقة وجميلة وجليلة. وهذا كله يكذّب ما قالته السيدة سلكيرك. لكن هل كان سطوه على أفكار جدها هو السبب فى أنْ عاقبه الله بالموت مختفيا عن دائنيه، إذا كان لنا أن نتابعها فى أسلوب تفكيرها، ودعنا من حكاية مقابر الصدقة تلك؟ لا أظن، فالرجل كان مضطرب الحياة سياسيا وماليا وتأليفيا حتى لقد وُضِع فى تخشيبة الرقبة والذراعين (the pillory: المشهرة)، وطيف به فى الشوارع كى يهينه الغوغاء عقوبة له على كتابته شيئا لم يعجب الدولة، وهذا من قبل كتابته "روبنسون كروسو"، ولا أحسب أن حياته كان يمكن أن تكون أفضل لو لم يكتب تلك الرواية البديعة رغم ما فيها من العيوب شأن أى عمل بشرى.

ثم إن السيدة سلكيرك تشير إلى "أفكار" لجدها استولى عليها ديفو مع أنه لا أفكار هناك ولا يحزنون، إذ إن جدها لم يبتدع أفكارا، بل كل ما هنالك هو أنه قد حدثت له بعض الوقائع والمغامرات التى فرضتها الأقدار عليه فرضا . ولنفترض أنه صاحب أفكار أتى إليها ديفو وصنع منها "روبنسون كروسو"، التى رأينا كم تختلف عن سلكيرك وما وقع له فى كل شىء تقريبا سوى الإطار العام، فهل يجعل هذا من ديفو سارقا ؟ بطبيعة الحال لا ثُمَّ لا ثُمَّ لا .

أما قول السيدة المذكورة إن جميع الناس يعرفون مغامرة جدها فهو فخر لديفو، إذ إن أحدا من أولئك الناس الكثيرين لم يستطع أن يحولها إلى عمل روائى باق على مر العصور والأجيال سوى ديفو. وأما قولها إن ديفو قد زيف الكثير من أحداث المغامرات التى وقعت لجدها والتى تقول إن جدها ظل يحكيها لديفو على مدار عدة أشهر ويسجلها هذا عنه فليس لها حق فيه، لأن هذه هى طبيعة الأدب والإبداعات الأدبية كما نعرف جميعا ، بل هى طبيعة كل عمل فى الحياة حتى أعمال الحرفيين المادية. أليس عمل النجار يقوم على إحضار الخشب والمسامير والغراء ثم تحويل هذا كله إلى أثاث جميل يختلف تماما عن المواد الأولية التى صنعه منها ؟ أَوَيَصِحّ أن نتهم النجار فى هذه الحالة بأنه حوَّر تلك المواد ولم يُبْقِها على حالها ؟ إنه لو أبقاها على حالها ما كان هناك أثاث

بالمرة ولظلت الأمور على ما هى عليه دون جديد . لقد كنت أوافقها على ما تقول لو كان جدها قد ألف، مما وقع له من أحداث ومغامرات، "رواية"، ثم جاء ديفو فسطا على تلك الرواية ونسبها لنفسه كما هى أو مع بعض التغييرات الطفيفة التى لا تقدم ولا تؤخر ولا تضيف جديدا . أمّا، ودور جدها قد اقتصر على إمداد ديفو بالمادة الخام، تلك المادة التى تصرف فيها ديفو تصرفا واسعا كما شاهدنا، فليس لها الحق فى أن تقول ذلك. وهذا لو كان الأمر قد وقع على النحو التى تحكيه، إذ لم أر أحدا ممن كتب عن "روبنسون كروسو" أو ديفو أو سلكيرك يشير إلى لقاءات تلك الحانة التى ذكرتها السيدة، لا من المعاصرين لنا ولا من المعاصرين لجدها وديفو.

كذلك فالسيدة المذكورة تتحدث عن فرار جدها وزميل له من السفينة التى كانا يعملان عليها بقارب فى جوف الليل انطلقا به على غير هدى حتى قذفتهما الأمواج إلى شواطئ الجزيرة. لكن القصة، كما قرأناها فى المراجع التى تعرضت لها، تقول غير ذلك حسبما رأينا، إذ إن جدها هو الذى طلب من الربان والبحارة أن يتركوه وحيدا فى الجزيرة، لكنه سرعان ما انتابه الرعب والندم حين رآهم يبتعدون عنه فناداهم، وهو يخوض فى الماء بعد انطلاقهم بعيدا عنه، كى يعودوا فيأخذوه معهم ولا يتركوه وحده هناك، إلا أنهم لم يعيروه آذانا صاغية. وعلى هذا فلا وجه لما أضافته السيدة عقب ذلك من أن زميل

جدها قد تناول فى اليوم التالى فراولة مسمومة. ذلك أنه لم يكن هناك زميل للجد، بل كان الجد وحيدا منذ اللحظة الأولى. ثم إننا لم نسمع لا فى حكاية جدها كما قرأناها فى المراجع المختلفة ولا فى رواية "روبنسون كروسو" بأنه كان فى تلك الجزيرة أية فراولة على الإطلاق.

وبالمثل نختلف مع السيدة سلكيرك فى أن الجزيرة لم تطأها أقدام بشرية من قبل، فقد رأينا كيف أن بعض البحارة الإنجليز قد عاشوا على تلك الجزيرة قبل جدها. ونأتى إلى حكاية القطط والكلاب التى لم تكن بينها أية عداوة وكانت تلعب وتتسابق معا، وإلى حكاية الفئران التى كانت تركب ظهر القطط دون أى خوف. ولا أدرى ماذا يمكن أن أقول فى هذا. ترى هل يمكن أن تتغلب القطط والفئران على ما ركب الله فى فطرتها من عداوة متبادلة، وما وضعه فى قلب الفأر من رعب من السنانير، التى لا تعرف لها طعاما متى رأته سوى أن تلتهمه، ولا يستطيع هو عملا سوى أن يفر من أمامها فرارا ويدخل فى أقرب جحر؟ نعم لقد رأينا كيف علم جدها القطط والجداء الرقص، لكن لم نسمع بمسابقات الجرى تلك بين القطط والكلاب. ومما ينسف ما قالته عن صداقة القطط والفئران نسفا ما نقلتُه فى هذا الفصل عن مشكلة الفيران التى كانت تعض قدمى سلكيرك وغير قدميه أثناء نومه، فما كان منه إلا أن استأنس بعض القطط الوحشية كى تقف لها بالمرصاد. فأين إذن الصداقة

المدعاة بين السنانير والجرذان هناك؟ أما أن الجزيرة كان بها غزلان فلم نسمع بشىء من ذلك. وأما أن الحيوانات بها لم تكن تفر من جدها حين تراه فالذى نعرفه أنه كان عليه أن يطارد الجداء عَدْوًا كى يمسكها ليذبحها ويتخذ منها طعاما، ولم تكن تقف له مطمئنة إليه.

وهناك حكاية النيران التى كان يضرمها جدها باستمرار كى يلفت نظر السفن التى تمر من هناك حتى تأخذه من الجزيرة إلى بلاده. والذى قرأناه هو أنه كان حريصا على ألا تشعر به السفن المارة من هناك خوفا من أن تكون سفنا فرنسية أو أسبانية يكون مصيره على يد بحارتها أتعس من بقائه فى الجزيرة كما رأينا، وأنه لم يضرم النار سوى مرة واحدة بعد أربع سنوات وثلث حين تيقن أن السفينة المارة قرب الجزيرة هى سفينة إنجليزية. وهناك أيضا قصة التبر التى حقق منها سلكيرك، حسب رواية حفيدته، ثروة طائلة. وهى من الحكايات التى لم أسمع عنها فى المراجع شيئًا البتة. ولو كان هذا صحيحا فلم ظل سلكيرك، بعد مغادرته الجزيرة، يشتغل قرصانا مع القراصنة؟ ولماذا لم نره يعيش ثريا فى بلده عندما أخلد إليها فى نهاية المطاف؟ ثم هناك التاريخ الذى تقول السيدة سلكيرك إن جدها قد غادر فيه تلك الجزيرة، وهو عام ١٦٥٩م. والواقع أن هذا التاريخ غير صحيح بتاتا، إذ غادر جدها الجزيرة فى ١٧٠٩م، أى بعد ذلك التاريخ بخمسين عاما. بل إن سلكيرك لم يكن قد وُلِد بعد فى

ذلك الوقت، إذ رأى نور الدنيا عام ١٦٧٦م. ومعنى ذلك أن السيدة المذكورة لم تكن دقيقة فيما حكته لنا عن جدها وديفو، لأنها إذا كانت تخطئ فى مثل تلك الأمور المنضبطة فبالأحرى تخطئ فيما لا ينضبط ذلك الانضباط. إننى لست ساخطا على السيدة سلكيرك بل أنا معجب رغم ذلك بها، فأَنْ نجد سيدة ناهزت التسعين وتتحدث بكل تلك الحيوية، وفى أمور أدبية كهذه قد مرت عليها بضعة قرون، وتعتز بجدها البحار وتهاجم أديبا كبيرا مشهورا بهذه الحماسة، هو أمر يدعو إلى الإعجاب، وبخاصة فى ظل ما نعرفه عن افتقار الناس فى بلادنا، حتى بين طلبة الجامعات الذين يشكلون زبدة متعلمى الشعب، إلى الاهتمام بالثقافة والتاريخ حتى ليجهل كثير من طلابى متى عاش توفيق الحكيم مثلا، إذ أجابنى بعضهم بأنه كان يعيش فى العصر المملوكى، وبعضهم بأنه ينتمى إلى العصر الأيوبى. كما أجد كثيرا جدا منهم يخلع لقب الدكتور على أى كاتب أو أديب حتى فى العصور القديمة التى لم تسمع بتلك الكلمة، فأفاجأ بهم يقولون فى ورقة الإجابة: الدكتور الطبرى والدكتور ابن حزم والدكتور امرؤ القيس، وهلم جرا. ولله يا زمرى! ودعنا من سيداتنا العجائز، فهن لا يعرفن عندنا شيئا بالمرة، اللهم إلا إذا كانت الواحدة منهن أستاذة فى الجامعة، إن كانت هناك أستاذة جامعية مصرية تعيش حتى ذلك العمر. هل

عرف القارئ الآن السبب فى إعجابى بالسيدة سلكيرك رغم مخالفتى لكل ما قالته تقريبا ؟

حى بن يقظان وروبنسون كروسو

فى التراث العربى أكثر من قصة بعنوان "حى بن يقظان" تدور حوادثها حول شخص نشأ فى جزيرة منعزلة منقطعا عن عالم البشر، وتصور علاقته بالكون والدين. ويعد ابن سينا أول منشئ لقصة حى بن يقظان، ثم أعاد شهاب الدين السهروردي كتابتها، ليصوغها بعد ذلك الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل صياغة جديدة، ثم كان ابن النفيس آخر من قدمها على طريقته للقراء. وأشهر مؤلف بين هؤلاء الأربعة هو ابن طفيل. ويرى بعض العلماء والباحثين أن هناك قصصا غربية مثل "روبنسون كروسو" و"طرزان" قد نُسِجَتْ على نفس المنوال الذى نسجت عليه رسالة "حى بن يقظان" لابن طفيل. وقد خَصَّصْتُ هذا الفصل للمقارنة بين العملين سواء كان ديفو قد استفاد فعلا من رسالة ابن طفيل أو وضع روايته مستقلة عنها.

وتعرِّف مادة "حى بن يقظان" فى "الموسوعة العربية العالمية" برواية ابن طفيل فتقول: "حى بن يقظان: اسم قصة عربية أصيلة تمثل شكلا باكرًا من أشكال الفن القصصى عند العرب، وتبرز أنماط فهم الناس للدين، كما تظهر آراء صاحبها ومفهومه فى قضايا العقل والشريعة. كتبها فيلسوف غرناطة فى القرن السادس الهجرى أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى (توفى ٥٨١هـ– ١١٨٦م). ولم يبق لنا من أعماله، وهو مُقِلٌّ، غير هذه القصة. وقد

صبّ ابن طفيل فى هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة، أو بين الفلسفة والدين، فى قالب روائى قصصى. نشأ بطلُ القصة حى بنُ يقظان فى جزيرة معزولة، وكان قد أُلقِى فيها طفلا، أو نشأ بشكل طبيعى من مادتها وترابها . وبعد أن نما وترعرع تأمل الكون الذى حوله فوصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة. وينتقل إلى جزيرة أخرى فيلتقى بشخصين هما سلامان وأبسال: يعلِّم الأولُ منهما أهلَ الجزيرة، الذين يتدينون تدينًا سطحيًّا، الحقائقَ الإلهيةَ والوجوديةَ عن طريق ضرب الأمثال، بينما يميل الثانى إلى التأمل والنظر العقلى، وفيه نزعة صوفية.

ويدرك حى، بعد أن يتفاهم مع أبسال، أن ما توصل إليه من إدراكٍ لحقائق الوجود والكون بالفطرة وما ورثه أبسال عن طريق النبوة إن هما إلا وجهان لحقيقة واحدة: فالكون واحد، والخالق واحد، وهو رب السموات والأرض وصانع الموجودات. قد نصل إليه عن طريق التأمل الذاتى كأفراد، لكن الجماعات بحاجة إلى طريقة أبسال فى ضرب الأمثال الحسية لمعرفة ذلك لأنه لا قدرة للعامة على إدراك الحقيقة المجردة التى قد يصل إليها أصحاب التأمل الذاتى والنظر العقلى. والنبوة حق، ولا بد منها، والخليقة بحاجة إليها للوصول إلى معرفة الخالق. إلا أن حَيًّا لا يكاشف أهل الجزيرة بالحقيقة كلها، ويعود مع أبسال إلى الجزيرة الأخرى ليعبد الله عبادة روحية خالصة حتى يأتيهما اليقين.

وتمثل القصة العقل الإنسانى الذى يغمره نور العالم العلوى، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل بعد أن تلقاها الإنسان عن طريق النبوة. وتؤكد قصة "حى بن يقظان" على أهمية التجربة الذاتية فى الخبرة الفكرية والدينية. وقد تركت آثارها على كثير من الجامعات والمفكرين، وتُرْجِمَت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة. وكان ابن طفيل أستاذاً لابن رشد، الذى سماه دانتى: الشارح الأكبر، والذى عن طريقه عرفت أوروبا فى عصر النهضة أرسطو وفلسفته. وقد حدد ابن رشد ثلاثة مستويات لفهم الشريعة والدين، وهى ليست بعيدة عن جوهر ما ذهب إليه ابن طفيل فى "حى بن يقظان": فهناك فهم العامة للدين، وفهم الخاصة، وفهم خاصة الخاصة، وإن كان للدين جوهر واحد لا يتغير. وقصة "حى بن يقظان" وضعت أيدينا على تباين المستويات لهذا الفهم بشكل روائى قصصى يطرح قضية فلسفية.

وتتجلى براعة ابن طفيل فى مزجه الأفكار الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبى، وفى جهده لتسويغ هذه الأفكار منطقيا وفنيا. وقد ذكر ابن طفيل تأثره فى قصته بفلسفة ابن سينا. وفى قصة "حى بن يقظان" جوانب من النضج القصصى، وإن كان قالب القصة ليس سوى إطار لصب الآراء الفلسفية والصوفية فى النص. وقد قدَّر كثير من النقاد هذا الجهد القصصى لابن طفيل فعدوا "حى بن يقظان" أفضل قصة عرفتها العصور الوسطى جميعًا".

وهناك روايتان أوردتهما الرواية فى بدايتها تفسران لنا مجىء حى بن يقظان إلى الوجود: الأولى تقول إنه تولد من الطين فى جزيرةٍ جنوبَ خط الاستواء تسمى: الواقواق، وهى جزيرة خيالية كما هو واضح، على حين تخبرنا الأخرى بأنه قد وُلِد لأميرة تزوجت على غير إرادة أخيها الملك من قريب لها اسمه يقظان، ثم أنجبت منه طفلا خافت أن يفتضح أمرها بسببه، فيعاقبها أخوها هى وزوجها لأنه لم يكن يريد لها أن تتزوج، فألقت ابنها فى تابوت وأسلمته إلى اليم، الذى حمله إلى جزيرة مهجورة. وتصادف أن مرت بالمكان الذى استقر فيه التابوت غزالة كانت تبحث عن ابنها الذى فقدته، فسمعت صوت بكاء فاتجهت نحوه، وكان أن عثرت على الطفل الرضيع فأخذته وأرضعته وحضنته وربته، وكانت تحمله هنا وهناك أينما اتجهت. ومن الواضح أن الروايتين ترمزان إلى الطريقة التى جاء ويجىء بها الجنس البشرى إلى الوجود: فالأولى تشير إلى خلق الإنسان الأول من الطين، والثانية تشير إلى التوالد الذى يحدث كل يوم جَرَّاءَ التقاء رجل بامرأة. كما تمثل القصة أيضا مسيرة الجنس البشرى، إذ استطاع حى أن يصل إلى كل ما وصلت إليه البشرية من علم وطب ودين وفلك وما إلى ذلك بجهده الذاتى، وهو ما لا يستطيعه إنسان وحده أبدا مهما كانت عبقريته. أما إذا نظرنا إلى القصة نظرة رمزية فإن أمورها تستقيم لنا، ويسهل علينا تقبّل وقائعها وإنجازات بطلها دون مشاكل.

والآن إذا أردنا أن نقارن بين "حى بن يقظان" و"روبنسون كروسو" فهناك عدة ملاحظات هامة بعضها يخص التشابهات بين العملين، وبعضها يتعلق بالاختلافات: فأما التشابهات فتتلخص فى أن كلتا الروايتين تدور حول شخص يعيش وحده دون أى أنيس بشرى على جزيرة مهجورة، وعليه أن يدبر جميع احتياجاته بنفسه دون أى معين، مستخدما عقله فى حل المشكلات التى تواجهه، وإنجاز الاحتياجات التى تنقصه، والتفكير فى أمور الكون من حوله، والتغلب على وحشة الوحدة التى تحيطه بل تغمره من كل جانب، إلى أن يقيض الله له من يأتيه فيأخذه من الجزيرة إلى المجتمع البشرى، منتشلا إياه من ذلك الانفراد الموحش. وهذه هى وجوه التشابه فى خطوطها العامة بين القصتين.

أما أوجه الخلاف فكثيرة: منها أن البطل فى "حى بن يقظان" موجود فى الجزيرة منذ اللحظة الأولى لتخلقه أو وصل إليها عقيب ولادته: فإذا كان قد تخلق من الطين فهو فى الجزيرة منذ اللحظة الأولى من حياته بل من قبل ذلك باعتبار أن الطين الذى تخلَّق منه هو جزء من أرض الجزيرة ذاتها من قديم الأزل. وأما إذا كانت أخت الملك قد حملت به فيكون قد وصل إلى الجزيرة عقب ولادته، وإلا انفضح أمرها، وهو ما كانت تحاذره تمام المحاذرة، وبالتالى فلا بد أن تكون قد ألقت به فى اليم منذ نزوله من أحشائها، تاركة إياه فى القارب دون رقيب أو حسيب، اللهم إلا رعاية الأقدار. وفى الحالين كان على

حى بن يقظان أن يبدأ رحلة عمره بالجزيرة من نقطة الصفر، إذ بدأ أمره فيها خاما عاريا من أية خبرة سابقة يمكنه أن يعتمد عليها ويبنى فوقها مسيرته هناك، بل كان فى حالة عجز تام عن مجرد ممارسة الحياة ذاتها دون معونة خارجية لا يملك من أمرها شيئا، ولا يستطيع تدبيرها، بل ولا يمكنه أن يفكر فيها مجرد تفكير، لسبب بسيط جدا هو أنه لم يكن قادرا على التفكير ولا كانت لديه آلة التفكير ولا كان مهيأ بعد لاستخدام أعضائه وعضلاته، بل كانت أعضاؤه وعضلاته فى حالة عجز تام، إذ كان لا يزال رضيعا، ولم تكن هناك امرأة يمكن أن ترضعه.

هذا عن حى بن يقظان، أما روبنسون كروسو فقد جاء إلى الجزيرة ناضجا فى سن الشباب، وكان قادرا منذ اللحظة الأولى لوصوله هناك أن يفهم موقفه وأن يقدره وأن يفكر فى الكيفية التى يمكنه بها أن يواجه المشاكل التى تنشأ أولا بأول، أو المواقف التى يجد نفسه فيها، وأن يفكر فى إنجاز الأدوات التى يحتاجها لتدبير حاجاته والتغلب على صعوبات حياته، وأن يضع الخطط والحلول. كما كان يشعر أحيانا بالخوف والقلق واليأس والحيرة كأى إنسان فى أي موقف، بخلاف حى بن يقظان، الذى صوره ابن طفيل بلا مخاوفَ أو حيرةٍ أو يأسٍ البتة.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يعيش طفل فى ظروف حى بن يقظان دون أن يرعاه بشر، إذ هو بحاجة إلى من يرضعه، وبحاجة إلى من ينظفه كلما تبول أو تبرز أو اتسخ جسده أو ملبسه، وبحاجة إلى من يهدهده كلما بكى، وبحاجة إلى من يهيّئ له فراشه كى ينام، وبحاجة إلى من يشخّص مرضه ويعالجه كلما تعب، وبحاجة إلى من يناغيه ويعلمه الكلام والسلوك، وبحاجة إلى من يوجهه ويرشده كلما أخطأ بل حتى دون أن يخطئ كيلا يخطئ، وبحاجة إلى من يزوده بالملابس والأقمطة والأغطية، وبحاجة إلى من يضعه فى الفراش ويطمئن عليه ويستيقظ له كلما بكى ليرضعه أو يعطيه الدواء، وبحاجة إلى من يأخذ بيده ويلقنه واجباته وحقوقه. . . وهلم جرا . فكيف إذن جعله ابن طفيل يستغنى عن البشر منذ مجيئه إلى الوجود ؟ ثم كيف تخلت عنه أمه فوضعته فى قارب تاركة إياه لرحمة الأقدار دون أن تحاول الاطمئنان على مصيره؟ قد يجيب أحدهم بأنها لم تكن مختارة بل كانت مضطرة أن تتخلص من الولد كيلا ينفضح أمرها ويُنْزِل بها أخوها العقاب الصارم الذى قد يصل إلى حد القتل. إلا أنه يمكن الرد على ذلك الرد بأنه كان بمستطاعها مثلا أن تعهد به هى وزوجها إلى أى إنسان يطمئنان إليه كما وقع لأوديب حين أمر أبوه الملكُ أحدَ كبار رجال الدولة بقتله فلم تطاوعه نفسه وأسلمه لراعٍ يرعاه ويربيه، وكذب على الملك وأوهمه أنه نفَّذ ما يريد .

وبالنسبة للرواية الأولى التى تفسر لنا كيف أتى حى إلى الوجود من الطبيعة مباشرة فمن المستحيل فى الواقع، طبقا لما نعرفه من سنن الكون، أن يتخلق إنسان أو أى كائن حى آخر من الطين دون التقاء ذكر وأنثى. صحيح أن الله خلق آدم من الطين، لكن هذا وضع آخر لا يقاس عليه، إذ إن الخلق من الطين على هذا النحو لم يحدث سوى مرة واحدة فى قديم الأزل، وبعدها لم يعد خلق الكائنات الحية يتم إلا من خلال ذكر وأنثى كما يحدث كل يوم بل كل لحظة، وكما حدث مع أخت الملك حين تزوجت من خلف ظهر أخيها وأنجبت من زوجها طفلا. نقول ذلك ونحن لا نعرف كيف تم الخلق الأول من الطين، إذ هو من أمور الغيب التى لم يشاهدها أحد: "ما أشهدتُهم خلقَ السماوات والأرض ولا خلقَ أنفسِهم"، فضلا عن أننا لا ينبغى أن نقيس أفعال الله على أفعالنا نحن العباد فلا نظن أن الله قد أحضر قطعة من الطين ثم أمسكها بيده وقربها من فمه ثم نفخ فيها كما ننفخ نحن، فانقلب الطين بشرا سويا. كذلك لو كان تخلُّق الإنسان، بعد الخلق الأول لآدم وحواء، من الطين ممكنا فلماذا لم يتكرر قبل حَيٍّ وبعده؟

وبالمثل لا أستطيع أن أتخيل، بناء على الأوضاع التى نظم المولى سبحانه كونه على أساسها، رضيعا يمكنه أن يعيش دون رعاية بشرية. لقد قال ابن طفيل إن غزالة حنت على حَيٍّ الصغير وصارت ترضعه وتحمله على ظهرها

وتُغْنَى به. لكنه لم يشرح لنا كيف تم ذلك. ترى كيف كانت الغزالة ترضع حيا؟ إنها لو بقيت واقفة أثناء ذلك ما استطاعت أن توصل ضرعها إليه، ولو بركت لكان عليها أن تبرك فوقه حتى تستطيع أن تلقمه حلمة ضرعها، ولقتلته ببروكها. أما الأم البشرية فإنها تحمل ابنها على صدرها وتلقمه ثديها، ثم يقوم هو بالباقى طبقا لما فطره الله عليه. ثم فلنفترض أن الغزالة استطاعت أن تتغلب (كيف؟ لا أدرى) على تلك العقبة، فكيف يمكنها أن تلقم حيا ضرعها؟ إن الغزلان ليست لهن أيدٍ، وصغار الغزلان من ناحيتهم يرضعون وهم وقوف، فيمدون أفواههم إلى ضروع أمهاتهم، ولا تحتاج الأمهات إلى إلقامهم أثداءهن كما تفعل أمهات البشر. ومن ثم فقياس حَيٍّ على خِشْف هو قياس فى غير محله تماما. وعلى نفس الشاكلة من المستحيل أن تحمل غزالة رضيعا على ظهرها، وإلا فكيف تنقله من الأرض وتقعده فى ذلك الموضع من جسدها، وكيف يبقى فى مكانه لا يسقط دون أن يمسكه أحد، والغزالة كما نعرف لا يمكنها هذا ولا ذاك، وغنى عن البيان أنه هو أيضا لا يستطيع ذلك؟ ثم كيف تنزله حين يجوع أو ينام أو يبكى أو حين تضيق هى ويعتريها الإرهاق؟

قد يقال إن هناك حكايات متعددة تُنسَب لبعض العلماء عن نشوء أطفال فى الغابات فى رعاية هذا الحيوان أو ذاك. لكن ينبغى أن نعرف أن هناك من يشكك فى تلك الحكايات، وإن كنت أنا لا أستبعد أن يكون بعضها

صحيحا فعلا بشرط أن يكون الطفل قد وصل إلى الغابة وقد كبر بعض الشيء واستطاع الأكل والمشي وتسلق الأشجار وتدبير احتياجاته الأساسية بطريقة أو بأخرى. أما أن يُلْقَى فيها وهو رضيع لا يزال فلا أدرى كيف يُكْتَب له البقاء وينجو من لدغة ثعبان أو نقرة نسر أو نهشة ذئب أو قرسة ثلج أو ضربة مرض. . . إلخ.

كما أن الإنسان إذا ما أُلْقِىَ فى غابة كـ"حى بن يقظان" مثلا فإنه لا يمكنه التطور على النحو الذى تطوره حى فى قصة ابن طفيل. إنه سوف يبدأ حينئذ من نقطة الصفر التى كان عليها الإنسان الأول، فيصدر أصواتا كأصوات الحيوانات من حوله، ويمشى ويعدو على أربع كما تصنع، ويأكل النباتات واللحم نيئا ودون تقشير أو سلخ أو تهذيب مثلما تأكل، وإذا اكتسى فسوف يكون كساؤه بدائيا كأكسية الهمج المتوحشين بحيث لا يتميز، أو على الأقل: لا يتميز كثيرا، عن العجماوات التى يبصرها فى الغابة. ولقد كان كل الأطفال الذين عُثِر عليهم فى الغابات فى العصور المختلفة، حسب الروايات التى يصدقها كثير من العلماء ويشكك فيها البعض كما سلفت الإشارة، يشبهون فى نطقهم ونظراتهم وسلوكهم وهيئتهم وسيرهم وجريهم الحيوانات التى يعيشون معها، وكان صعبا عليهم التكيف مع المجتمعات البشرية حين تم العثور عليهم وحاول العلماء نقلهم من تلك البيئة الطبيعية الفطرية إلى بيئة متحضرة إنسانية. بل إن

بعضهم كان يفر ممن عثروا عليه وأرادوا ترقيته وتحضيره إلى حيث كان يعيش مع العجماوات كَرَّةً أخرى. ومن هنا لا يمكن أن نوافق ابن طفيل فيما كتبه فى رسالته إذا ما كان المقصود هو القول بأن هذا أمر عادى يمكن أن يقع، ودعنا من أن يقع بالسهولة والسلاسة والبساطة التى وقع بها فى حكايته. ولنفترض أنه كان يعتقد بأن هذا محتمل الوقوع فإن اعتقاده هذا لا يلزمنا فى شىء، وتبقى الحكاية التى أوردها والتى لا نصدق بإمكان حدوثها مجرد مشجب تُعَلَّق عليها الآراء الفلسفية المبثوثة فى الكتاب، وتكون فى هذه الحالة قصة رمزية لا واقعية.

وقبل أن نغادر هذه النقطة يحسن أن نورد بعض المقتطفات من دراسةٍ جدّ هامة منشورة على المشباك للدكتور على أسعد وطفة بعنوان "الأطفال المتوحشون: حقائق تاريخية ومعطيات تربوية" يقول فيها: "ينطوى مسرح الحياة الإنسانية على مشاهد تتجاوز حدود التصور بغرابتها، وتفوق إمكانيات الخيال بمفارقاتها. ومع ذلك فإن هذه المفارقات تندرج فى حدود الممكن، وتأخذ مساحتها الحقيقية فى دائرة الأحداث التاريخية... ومن مشاهد المفارقات الصعبة يقع موضوع الأطفال المتوحشين، وهم هؤلاء الأطفال الذين رمتهم أقدارهم إلى الحياة فى البرارى والغابات، فوجدوا أنفسهم فى أحضان الوحوش الكاسرة التى أغدقت عليهم من الحب والرعاية ما يمنحهم القدرة على التواصل

وما يمنحهم الأمل فى الاستمرار وفى مواجهة أقدارهم. لقد وجد الأطفال الضائعون فى هذه الوحوش الكاسرة ما عوضهم عن حنان الأم ورعاية الأسرة، وتَلَقَّوْا على أيدى هذه الكائنات كل التدريبات والمهارات الضرورية لاستمرارية الحياة. ولكنَّ ما يُدْهِش فى هذا العالم الوحشى أن هؤلاء الأطفال قد فقدوا خصوصيتهم الإنسانية، وأصبحوا مع الوحوش التى عُنِيَتْ بهم من طبيعة واحدة سواء بسواء. وعندما اقتضى قدر الله لهم أن يعودوا إلى حظيرة المجتمع الإنسانى فقدوا كل إمكانيات التكيّف وشدّهم الحنين إلى حياتهم البرية، فبذلوا كل ما فى الإمكان للهروب والعودة إلى سيرتهم الأولى. . .

فى هذه المقالة سنستعرض حالات أطفال متوحشين تقريبا عُثِر عليهم فى كثير من أرجاء العالم بداية من القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين حيث سجلت آخر حالة فى عام ١٩٦٣. وقد بلغت هذه الحالات أكثر من خمسين حالة. ومع أهمية الوثائق والمعطيات التى نجدها حول أطفال التوحش فإنه يمكن التركيز على حالات أربعة لأطفال خضعوا بشكل علمى منظم للدراسة والبحث العلمى هى حالات آمالا وكامالا وقاسبار وفيكتور، وقد شكلت هذه الحالات الأربعة منطلق التوجهات العلمية التى اعْتُمِدَت لدحض الأطروحة التى ترى فى حقائق الأطفال المتوحشين مجرد أوهام سيكولوجية نسجتها

مخيّلات هؤلاء الذين يبحثون عن عوامل الإدهاش والإثارة فيقدمون الواقع فى صيغة أسطورية مبالغ فى أحداثها".

ويمضى د. وطفة قائلا: "تفيض الأساطير والحكايات القديمة بصور لكائنات إنسانية متوحشة، وتنطوى هذه الأساطير على تلميحات وتصريحات لعلاقات وشيجة بين الأطفال وبين كائنات ووحوش مفترسة مرعبة. ففى القصص التى رواها المؤرخ العظيم Herodotes يحدثنا عن كائنات إنسانية متوحشة عاشت وتربّت فى رعاية حيوانات بريّة متوحشة. لقد عاش تيرو Thyro وتَرَبَّى بين العجول والأبقار، وكان زيوس Zeus قد رضع من ثدى العنزة أمالثى Amalthée وتربّى فى أحضانها، وكان ريموس Remus ورومولوس Romulus قد عاشا ورُبِّيا كل منهما فى أحضان أمهات ذئاب.

ونجد مثل هذه القصص فى الأدب الفارسى، الذى يموج بحكايات خرافية عن أطفال عاشوا وتربَّوْا فى أحضان الدِّبَبَة والذئاب. وهذا ما نجده أيضا فى الأساطير اليابانية عن القردة الحاضنة للإنسان. كما نجد مثل هذه القصص فى الأسطورة الهولندية لعروس البحر التى قذفت بها الأمواج على شاطئ إدام Edam فى القرن الخامس عشر. وهذا كله يعبر عن هواجس إنسانية وخيالات مغرقة فى القدم حول طبيعة العلاقة الممكنة بين الإنسان والكائنات البريّة. وإذا كانت الأسطورة تشحذ إمكانيات الخيال فتأتى الصورة

فى أكثر تجليات الجمال إبداعا وسحرا فإن الواقع أحيانا قد يفوق ما يكتنزه الخيال من جمال ومن قدرة على الإدهاش. وهذا ما نجده فى الاكتشافات الواقعية لطبيعة العلاقة بين الأطفال المتوحشين والحيوانات البرية" .

ثم يتطرق إلى رغبة العلماء والمفكرين فى التحقق من هذا الأمر ودراسته دراسة علمية فيقول: "لقد استحوذت حالة الأطفال المتوحشين على اهتمام كثير من المفكرين والفلاسفة والعلماء فى مختلف الميادين، فبدأوا بحثهم المتواصل فى جوانب هذه القضية وفى تضاريسها . وهنا نجد جهودا مميزة تعود إلى برنار كونور Bernard Connor بوصفه مؤرخا، وبوفون Buffon بوصفه عالم طبيعة، وكونديلاك Condiac بوصفه فيلسوفا، حيث أَوْلَى هؤلاء المفكرون قضية الأطفال الذين قذفت بهم الأقدار إلى الحياة فى الغابات والكهوف والمغاور اهتماما كبيرا" .

وينطلق الكاتب بعد ذلك موردا بعض القصص الخاصة بهذه القضية فيقول: "وفى هذا الميدان تكاثفت الشواهد التاريخية على وجود أطفال متوحشين عاشوا فى البرارى واستمروا فى الحياة فى دائرة شروط غير إنسانية. لقد عثر على الطفل الملقب بـ"هيس" L'enfant de Hesse عام ١٣٤٤ . ويُرْوَى أن الذئاب كانت قد هيأت له حفرة فرشتها بأوراق الأشجار، كما كانت تحيط به أثناء الليل لوقايته من البرد . هذا الطفل، كما هو واضح،

عاش بعيدا عن الوسط الإنسانى فى عناية الذئاب وحمايتها . وكان هذا الطفل يسير على أربع أقدام على طريقة الذئاب إلى درجة أنه أصبح من الضرورى ربط جسمه بقطع من الخشب قصد إلزامه بالوقوف على قدميه مع الحفاظ على توازنه.

وحالة هيس تتشابه كثيرا مع حالة الطفل الذى عُثِر عليه فى غابات منطقة ليتوانيا Lithuanie، والذى كان يعيش مع الدببة. ولم يكن، حسب قول دى كندياك، يبدى أية علامة تدل على أنه يمتلك أية إمكانيات عقلية بشرية، إذ كان يمشى على رجليه ويديه، ولم يكن يتكلم أية لغة، والأصوات التى كان يصدرها تختلف كليا عن أصوات الإنسان.

ومن أكثر القصص غرابة وأهمية أيضا فى هذا المجال قصة الطفل الدب الذى لقب بـ"جوفينوس أورسينوس ليتوانوس " Juvenis Ursinus Lithuanus، والذى اكتشفه الصيادون فى منطقة ليتوانيا Lithuania عام ١٦٦١ . وعندما أُلقِى القبض عليه كان هذا الطفل يدافع عن نفسه بالزمجرة والخدش والعض. وكان يقبل بشراهة على أكل الكرنب choux والعشب واللحم النيئ، وقد مزق الثياب التى حاول الصيادون أن يلبسوه إياها يوم القبض عليه. ولم يستطع، حسبما يرويه فالمون دى بونار Valmont de Bonnare فى معجمه عن التاريخ الطبيعى، إظهار أية علامة تدل على تكيف حقيقي.

ومن هـذه الغرائب قـصة الطفـل الأيرلنـدى الخروف جوفينـوس أوفنـوس هربنوس Juvenus Ovinus Herbernus، الذى قبض عليـه ١٦٧٢. هذا الطفل كان يجد متعة مماثلة فى تناول العشب والتبن، كما أنه لم يكن يتأثر ببرد الليـل. لقـد كان هـذا المتوحش الأيرلنـدى، كمـا يـصفه الطبيـب نيكـولا تولب Nicolas Tulp، مسطح الجبين، مستطيل القفا، عريض الحلقوم، ثخين اللسان، غائر البطن".

وفـى عـام ١٧١٩ عثـر علـى طفلـة كرانمـبرج Kranemburg بولايـة ترانزيسلانا Puella Transislana، وهـى فـى الـشهر الـسادس عـشر مـن عمرهـا وسـط الغابـات المجـاورة لزفـول Zwolle فـى مقاطعـة أوفيرسـيل Overyssel بهولندا، وكانت الطفلة ترتدى كساء من القش. وقد أظهرت لاحقا اهتماما بعملية التواصل مع الغير رغم شراهتها فى تناول الأعشاب والأوراق. ولم تستطع هـذه الطفلة تعلّم الكلام، ولكنها تعلمت غـزل الصوف ومارسته حتى وفاتها.

وفـى عـام ١٧٢٤ عثـر علـى المتـوحش بـيتر هـاميلن Peter Hameln سنة ١٧٢٤. وقد شاهده الملاحون، قبيل القبض عليه، سائرا فى الاتجاه المعاكس لتيار الوادى، وكان هائما يحمل على جسمه بقايا قميص، ويتغذى بالنباتات وقشور الأشجار. وعندما ألقى القبض عليه حاول بعضهم

حمله على تناول الخبز، غير أنه امتنع عن ذلك مفضلا تناول لحاء عصا صغيرة من الخشب الأخضر. وكان هذا الطفل المتشرد المدهش يكره الحجز، وتمكن عدة مرات من الهرب. وقد اقتيد إلى جورج الأول فى بلاط إنكلترا. إن بيتر Peter، هذا الذى قدر له أن يعيش ٦٨ سنة فى المجتمع الإنسانى، كان يبدو حساسا بشكل خاص للإيقاعات الموسيقية. كما تعلم شيئًا فشيئًا أن يتحمل الملابس، وأبدى قدرة على ممارسة شىء من التقليد، ولكنه لم يتعلم الكلام أبدا.

ومن بدائع الاكتشاف فى هذا الميدان العثور على فتاة ريفية برية فى إحدى ليالى سبتمبر فى بولونيا فى منطقة شالون سورمارن Chalon-sur-marne. وشوهدت الفتاة وهى قابعة فوق شجرة تفاح حيث وثبت عند الاقتراب منها، وتمكنت من الفرار. ثم جرت محاصَرتها فى غابة مجاورة. وبعد عملية مطاردة تم القبض عليها عندما نزلت من فوق الشجرة لتشرب من سطل ماء على غرار ما تفعله الخيل. وقد كانت ترتدى خرقا وجلود حيوانات، أظافرها كالمخالب سوداء اللون، وبيدها هراوة. إن هذه الفتاة التى سميت فيما بعد: الآنسة لوبلان Leblanc كانت تحسن السباحة والعدو، وتتغذى بالطيور والضفادع، وتتلذذ بشرب دم الأرانب كلما أمكنها ذلك.

ولطالما اعترفت بأنها كانت تجد صعوبة فى مقاومة ميلها المرضى إلى شرب الدم.

تعلمت لوبلان لاحقا الكلام عند راهبات منطقة شالون سورمارن Chalon-sur-marne، وهو المكان الذى أُودِعَت فيه حيث جاءت ملكة بولونيا لرؤيتها . كما جاء أيضا دوق أورليان Duc d’Orleans إثر نقلها إلى مقر الكاثوليكيات الجديدات. وأخيرا رغبت لوبلان فى أن تصبح راهبة فى دير بمنطقة شايو Chaillot، ولم يمنعها من ذلك إلا حالتها الصحية التى كانت متردية إلى حد كبير. . .".

وهكذا حتى يصل إلى الحالات الأربع التى قال إنها تتميز عن غيرها بأنها خضعت لتحقيق علمى أثبت صحتها، وسوف أكتفى بالفقرات التالية مما قاله عن هذه الحالات، وهو كثير: "فى أكتوبر ١٩٢٠، وبينما كان سينج فى رحلة تبشيرية، أخبره أحد الفلاحين فى قرية قودامورى بوجود أناس مدهشين داخل الغابة. ومن أجل معاينة هذا الأمر قدم سينج إلى المكان المزعوم متخفيا عند الغروب. ومن مرصده استطاع أن يلمح ثلاثة ذئاب وجروين وكائنين إنسانيين غريبى الخلقة يمشيان على أربع، وهما يندفعان من جحر إلى آخر مع الذئاب. وقد تبين أن هذين الكائنين كانا طفلتين متوحشتين، وكانت إحداهما أصغر من الثانية بدرجة كبيرة. وكانتا، عند خروجهما من المغارة، تتصرفان

كالذئاب تماما حيث تقومان بإخراج رأسيهما بحذر شديد أولا ثم تنطلقان وثبا إلى الخارج بسرعة مذهلة. ولما حاول أحد مُرَافقِى سينج إطلاق النار عليهما مَنَعَه سينج حيث لاحظ سينج أن مرافقيه قد أصيبوا بحالة ذعر شديد. وهذا ما دفعه إلى تشكيل فريق جديد من المتطوعين أكثر جرأة وثباتا. وعندما عاد سينج إلى المكان من جديد بتاريخ ١٧ أكتوبر بصحبة فريقه الجديد شاهد اثنين من الذئاب الذكور المسنة تفرّ بعيدا عن المكان، أما الذئبة فقد بقيت تدافع عن مدخل الجحر عن جَرْوَيْها وعن الطفلتين البشريتين آمالا وكامالا حتى قتلت تحت وابل من السهام. وبعد موت الذئبة شاهد سينج داخل الجحر ذئبين وطفلين، وقد التصق كل منهما بالآخر. وعندما أحسوا بوجود سينج وجماعته تَقَوَّسَ الذئبان فى موقف دفاعى فى حين كانت الطفلتان أكثر تهديدا وأكثر عدوانية. وبعد القبض عليهما عُهِد بهما إلى أحد القرويين للعناية بهما. وعلى أثر ذهاب سينج أصيب هؤلاء القرويون بالخوف والهلع ففروا من القرية. ولما عاد سينج وجد الفتاتين فى حبسهما مهملتين مهددتين بالموت جوعا وعطشا. وبعد إكراههما على شرب الحليب ومعالجتهما لبضعة أيام حُمِلتا على عربة يجرها ثور إلى مأوى الأيتام بميدنابور، الذى يديره سينج.

لقد أطلق على الطفلة الصغرى "آمالا"، وكان عمرها سنة ونصفا، وأطلق على الطفلة الكبرى "كامالا"، وعمرها ثمانى سنوات ونصف، وهى

طفلة عريضة المنكبين، طويلة اليدين، مستقيمة الظهر. وقد تصلبت عندهما بشرة الكفين والمرفقين والركبتين وأسفل القدمين، وكان لساناهما يتدليان بين شفتين قرمزيتين غليظتين ومهدبتين، وكانتا تلهثان كالذئاب تماما وتفتحان فكيهما بطريقة تثير الخوف أحيانا. كانت الطفلتان تبديان مخاوف مَرَضِيّة من الضوء وتعجزان عن الرؤية فى النهار، بينما كانتا تحسنان المشاهدة فى الليل. وكانتا تقضيان يومهما فى الظل تستلقيان ساكنتين إزاء حائط، وفى الليل كانتا تعويان بحزن وبصورة متكررة، وكانتا دائما تعبران عن رغبتهما بالفرار. كانت فترة نوم الطفلتين قصيرة لا تتجاوز أربع ساعات لكل أربع وعشرين ساعة. وفى التنقل من مكان لآخر كانتا تعتمدان المرفقين والرضفتين عند قطع المسافات القصيرة ببطء، وباستعمال اليدين والقدمين عند التحول إلى أماكن أبعد وعند العدو سريعا.

كانتا تلعقان وتتناولان الغذاء منحنيتين بوجهيهما إلى الأمام كالذئاب تماما، وكان ميلهما إلى أكل اللحوم لا يقاوَم حيث كانتا تطاردان الدجاج وتنبشان عن الجيف أو الأحشاء. وكانتا تُولِيَان كثيرا من الاهتمام إلى صغار الكلاب والقطط غير مباليتين بالأطفال، عدوانيتين إزاء السيدة سينج، مقوَّستى الظهر فى حالة استنفار عندما يقع الاقتراب منهما، معبرتين عن عدائهما وحذرهما بحركة رأسية سريعة نحو الأمام وإلى الوراء. وقد ماتت أمالا يوم ٢١

سبتمبر ١٩٢١ نتيجة إصابتها بالتهاب فى الكلى. وما سيدعو إلى الاستغراب أيضا أن كامالا ستموت أيضا هى الأخرى بالداء نفسه بعد ثمانى سنوات، أى فى عام ١٩٢٩.

وقد وصف السيد سينج والطبيب صارباد يكارى أحوال التطور النفسى لكامالا على مدى السنوات الثمانى التى قضتها بملجأ الأيتام فى ميدنابور. وبعد إقامة كامالا فى الملجأ مدة عشرة أشهر تعلمت أن تمد يدها طلبا للغذاء. وبعد مضى ستة عشر شهرا استقامت على ركبتيها واستطاعت أن تمشى بعض الخطوات على نحو إنسانى، ومن ثم استطاعت أن تقف على قدميها لأول مرة معتمدة على ذاتها دونما حاجة إلى سند. كما أنها أصبحت بعد خمسة سنوات قادرة على المشى رغم أن أسلوبها فى الجرى بقى ذئبيًّا. ومن سنة إلى أخرى أصبح سلوك كامالا أكثر مرونة وتنوعا وانسجاما.

ومع الزمن بدأت السلوكيات الذئبيّة تختفى تدريجيا لصالح سلوكيات اجتماعية وثقافية محددة، مثل استخدام الكأس فى الشرب، واصطياد الغربان التى كانت تلتهم الحبوب المخصصة للدواجن، وعادات الاغتسال والاستحمام. كما كانت تجمع البيض من المدجنة، وتقوم بالعديد من الخدمات البسيطة.

وبدأت طباع كامالا تشهد تحولات نوعية مع تواتر الزمن. لقد تأثرت كثيرا بموت آمالا. لقد بكت لأول مرة، وامتنعت طيلة يومين عن تناول أى

شراب أو غذاء . كما مكثت ستة أيام هامدة فى ركن، ثم ظلت فيما بعد تبحث بشكل واضح ولمدة عشرة أيام عن رفيقتها تتلمس أدنى رائحة قد تكون خَلَّفَتها .

وفى العام الثالث من إقامتها فى الملجأ أصبحت تتقبل قطع البسكويت التى تقدمها لها السيدة سينج، وتقترب منها عندما تقوم هذه بتوزيع الحليب . وكانت زوجة سينج تستخدم التسميد لتليين بشرة كامالا المتحجرة ومن أجل ترويض مفاصلها، وذلك على غرار ما كان يفعله إيتار بصورة عفوية . وفى أحد الأيام أمسكت كامالا بيد مربيتها ملتمسة منها أن تقوم بتدليكها . وفى نفس الشهر اقتربت من جديين وجلست حذوها، ثم ضمتها إليها وكلمتها كلاما غامضا . وبعد ثلاث سنوات أصبحت تخاف الظلمة وتحاول الاقتراب من الآخرين ليلا . كما أنها بدأت تقلق وتخاف عندما تبتعد عنها السيدة سينج، فتظهر فى وضعية تدعو إلى الشفقة، وكانت تقفز فرحا عند عودتها وتسرع للقائها . وفى السنة الخامسة من إقامتها فى الملجأ أصبح حسها الذوقى أكثر رهافة، وكذا الشأن بالنسبة لحياتها الانفعالية والوجدانية بوجه عام. وفى السنة السابعة بدأت تأنف أكل الجيف أو الاقتراب منها، وبدأت تتحاشى الكلاب، وتبكى عندما يذهب بقية الأطفال إلى السوق دونما اصطحابها، ويضيق صبرها أثناء الانتظار الطويل لأخذ دورها فى الملعب على الأرجوحة.

كما بدأت تتأثر لعبارات الثناء، وتظهر أنفة وحياء برفضها الخروج من المبيت قبل ارتداء فستانها .

لقد تنامت قدرات كامالا العقلية ببطء، وتحررت هذه القدرات من غموضها . وفى البداية استطاعت كامالا أن تنطق كلمتين: الأولى هى "ما" بمعنى "أمي" مشيرةً بذلك إلى السيدة سينج . والثانية هى كلمة "وبهو" للتعبير عن الجوع والعطش . وبعد عامين تعلمت أن تقول: "نعم ولا"، وتعلمت أن تهزّ رأسها وهى تقول: نعم . وفى السنة الثالثة تعلمت أن تطلق على الأرز كلمة "بها" وتطلبه بالاسم نفسه . كما أصبحت ولأول مرة تقوم بفعل إدارى قائلة: "أريد" . وقد تمكنت كامالا فى نهاية السنة الثالثة من إقامتها أن تتعرف على أدواتها الشخصية: صحنها وكأسها، ومن القيام بشبه محادثة . وقد وصلت مفرداتها إلى ثلاثين كلمة، وبدأت تفهم جيدا التعليمات الشفهية وتلجأ إلى الإشارات عندما تعوزها الكلمات . وفى أواخر حياتها، أى فى نوفمبر ١٩٢٩، استطاعت، بالاعتماد على زادها اللغوى الذى بلغ خمسين مفردة، أن تخاطب الأطباء الذين كانوا يعالجونها حيث كانت تعرف أسماءهم جيدا .

وخلال هذه التجربة يمكن القول إنه لا يوجد شىء يدل على أنها كانت غبية بالوراثة . إن سوء حالتها الصحية والعقلية لم يكن إلا نتيجة لغياب الرعاية العائلية المفترضة تماما فى المرحلة الأولى من حياتها . كما أن سيفادون كان

يذكر عند تعرضه لقصة كامالا بأنه يمكن الفصل بين المسائل العضوية والمسائل النفسية، مستنتجا من ذلك أن "الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه يولد قبل الأوان. فشخصيته تتكون بعد الولادة داخل سلسلة من الأرحام الثقافية التى لا تقل أهمية بالنسبة لنموه عن رحم الأم. فالعلاقات والانفعالات التى تتكون بينه وبين أمه خلال السنتين الأُولَيَيْن هى التى تمنحه مختلف خصائصه وسماته النفسية. كما أن تعلم اللغة فى الوقت المناسب هو الذى يحدد كامل حياته العقلية. تأسيسا على ذلك يمكن القول إن طفلا ما عاديا عند الولادة يمكن أن يصبح غبيا بالفعل إذا ما كانت ظروف تربيته غير ملائمة. إن هذا المفهوم جوهرى. ذلك أن الشخصية لا تتطور إلا بقدر ما يقدمه المحيط، كقيمة تربوية، من إسهامات ثقافية مواتية وفى الوقت المناسب".

هذا، وقد سبق أن أشرت إلى أن العلماء منقسمون حول صحة هذه الحكايات. وهو ما تناوله د. وطفة قائلا: "بعض المفكرين يرى أن الأحداث المروية حول أطفال التوحش غير واقعية إطلاقا. وهم يتساءلون باستغراب عن الكيفية التى يمكن فيها لطفل وليد أن يكون قادرا على الاستمرار فى الوجود دون عون إنسانى. فالمسألة تبدو لهم خارج إمكانية التصديق. وهناك بعض المفكرين الذين يرفضون الحد الأول، أى إمكانية الاستمرار دون عون إنسانى، ولكنهم من جهة ثانية يعترفون بأنه يمكن لبعض الأطفال الذين فقدوا ذويهم فى

مرحلة ما من أعمارهم العيش منعزلين وأن يحافظوا على وجودهم واستمرارهم بزادهم الثقافى البسيط الذى اكتسبوه فى أحضان ذويهم وثقافتهم الأولى.

فالأطفال الرُّضَّع الذين فقدوا ذويهم لأسباب مجهولة أمثال أمالا Amala قد تلقَّوْا مساعدة كاملة من الحيوانات. أما الأفراد الذين تاهوا وفقدوا ذويهم خلال السنوات الأولى من أعمارهم فقد تعرضوا لأمرين: يتمثل أحدهما فى توقف نمو ملكاتهم العقلية والذهنية، أما الثانى فيتمثل فى نسيان جميع ما تعلموه، شأنهم فى هذا شأن ذلك البحار الذى تُرِك داخل جزيرة مهجورة، ففقد القدرة على الكلام. وإذا كان بعض الأطفال المتوحشين الذين تَبَنَّتْهم الحيوانات قد تمكنوا فعلا من البقاء أثناء طفولتهم المبكرة فإنه ليس مستبعدا أن يكون بعض الأطفال الذين تَرَبَّوْا فى أحضان أسرهم لمدة كافية أكثر قدرة على الاستمرار فى الوجود والحياة أثناء عزلتهم. ومهما يكن فإنه لا يمكن استبعاد الحالات التى جعلت الطفل يفقد عندئذ كل ما اكتسبه ويتراجع فى سلوكه إلى مستويات دنيا .

وهذا الأمر لا يخرج عن دائرة التفسير العلمى الذى بموجبه يكون اكتساب العادات، حركية كانت أم ذهنية، مرهونا بعمليات التكرار والممارسة حتى يتم اكتساب هذه العادات بصورة نهائية. وتقرر هذه القاعدة العلمية أيضا أن كل مكتسب يتلاشى ويتبخر إذا لم ترسخه التجربة المتجددة. وترى ماريان سميث

أن الجرح الذى يصيب وجدان كل طفل يتيه فجأة ويجد نفسه خارج دائرة المجتمع يمكن أن يعتمد فى تفسير انهيار الذهن ودماره. بعض الباحثين يقف من حكايات التوحش موقفا انتقائيا حيث يعتقدون أن كثيرا من الحالات مشكوك بصحتها . وبالمقابل هناك كثير من الحالات التى لا يمكن للمرء أن يفقد ثقته فيها لأسباب تتعلق بالتوثيق الذى حظيت به والقناعات التى تفرضها . وفى هذا الاتجاه يصنَّف موقف جيزيل، الذى يشك فى أن تكون هذه الروايات مقنعة دوما ، ويوجه شكه هذا إلى الحالات التى تغيب فيها الأعراض المرضية للأطفال: بعض الروايات لا تشير إلى حالة التفكك والأعراض الخاصة بالذُّهَان والهذيان. لقد وقع الاعتراض الكبير على الفكرة القائلة بإمكانية بقاء الأطفال لمدة طويلة بمعزل عن المجتمع الإنسانى دون أن يموتوا جوعا أو بردا . ولذلك يفترض دينيس أن هؤلاء الأطفال لم يَبْقَوْا فى عزلتهم إلا فترة قصيرة جدا" .

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا: "عندما نأخذ الافتراض الذى يقول بأن هؤلاء الأطفال المتوحشين عاشوا مهجورين لفترة قصيرة من الزمن فكيف نفسر تيبّس الجلد وثخانته عند المرفقين والركبتين لدى طفلتى ميدنابور؟ وكيف نعلل الميل الشديد إلى تناول اللحم النيئ والأحشاء عند كل الأطفال الذئاب الذين تم اكتشافهم؟ وكيف نفهم ميل النباتيين منهم إلى تناول النباتات دون غيرها ، ولا سيما عند الطفل الذى اهتم به إيتار؟ وهذا الافتراض يصطدم أيضا بشهادات

عديدة منها على سبيل المثال شهادات السكان الذين لحوا الطفل الإفيرونى عاريا فى الغابة ومنطلقا فيها، وذلك قبل أن يُمْسَك به لمدة طويلة من الزمن. . .

ولكن، ومهما يكن الأمر، فإن هناك حالات حقيقية من حالات التوحش لا تقبل الشك والطعن. وهى حالات لا يُشَكّ فيها إلا بقدر ما يُشَكّ فى حقائق علم التاريخ الأخرى. ومن دواعى هذه المصداقية الجهود التى بذلها علماء ومفكرون عُرِفوا فى ميادين اختصاصاتهم وفى ميادين الإبداع العلمى والفكرى. وهنا يشار إلى المفكر الفرنسى المعروف جان إيتار Jean Itard، الذى شغل منصب رئيس الأطباء فى مأوى الصم الكائن فى سان جاك، وفون فويرباخ رئيس محكمة الاستئناف بأنسباخ Ansbach، وج. أ. ل سينغ A. I. A. L. L. Singh مدير مأوى اليتامى فى ميدنابور. وهم، بوصفهم علماء ورجال دين وقضاء، انصرفوا إلى البحث عن حقيقة التوحش لأسباب قد تكون مختلفة، ولكنها تمثل فى نهاية الأمر فروضا متجانسة. وهم، عبر دراساتهم للتوحش، يقدمون أوصافا عن الإنسان المتوحش تتميز بطابع الدقة والتجانس إلى درجة يختفى معها كل غموض. ومن المهم الإشارة فى هذا السياق إلى أن أحدا من هؤلاء المفكرين الثلاثة لم يقرأ للآخر: فسينغ لم يقرأ لا لجان إيتار ولا لأنسيلم فون فوير باخ، الذى كان هو بدوره يجهل، على الأرجح،

كتابات العالم الفرنسى إيتار. وهؤلاء الثلاثة لم يكونوا على اطلاع بمؤلفات لينى، إلا أنهم اكتشفوا جميعا الخصائص والسمات التى حددها لينى للتوحش فى كتابه المعروف بـ"النظام الطبيعى: Systema natural" .

والنتائج التى يصل إليها أغلب الباحثين فى مجال التوحش تؤكد الصعوبات التى يعانيها المتوحش عند محاولة الانتصاب على قدميه. وهنا تتذكر حالة فيكتور طفل الإيفرون الذى تُرْوَى لنا أوصافه فى كل مرة بطرق قابلة لشتى التأويلات. من ذلك أنه كان يميل دائما إلى "الخبب أو الركض" حيث يصفه نوقايرول Nougairolle مدير مأوى سانت أفريك Saint-Afrique، وهو فى حالة هروب، بأنه كان يجرى على أربع عندما يشعر أن هناك من يوشك أن يقبض عليه أثناء مطاردته فى يوم من الأيام وسط أحد الحقول" .

ومما قاله فى هذا الصدد: "لابد من التسليم بأن البشر ليسوا بشرا خارج الوسط الاجتماعى. ذلك أن خصوصيات البشر التى تتعلق بالابتسام والضحك لا مكان لها على وجوه الأطفال البريين. فبعض الانفعالات البدائية، مثل اللهفة والحزن والغضب، كانت وحدها تهز بعض هؤلاء المتوحشين، وكانوا يجدون سعادة كبيرة فى تواصلهم مع الحيوانات. وهذا ما أبداه كليمنس Clemens عند تعلقه بالفيلة. وهذا ما لوحظ عند قاسبار، الذى

لا يكترث لأى شيء آخر عند ملاطفته للخيول. وقد برهنت هذه التجارب أن الاستعدادات الإنسانية الكامنة لا تتحقق فى حالة انعدام الإثارة التى يحدثها المحيط تماما كما هو الحال بالنسبة للنبات والأشجار عند غياب التراب والماء والنور. وقد أتاحت هذه الاكتشافات للأطفال المتوحشين إبراز تأثيرات المجتمع فى الفرد. وقد برهنت هذه التجارب الطبيعية، عن حجج واضحة ودامغة، على أن التربية والثقافة هى التى تجعل منا بشرا".

إذن فابن طفيل حينما يتحدث عن نشوء حى بن يقظان فى الغابة بين الوحوش ترعاه غزالة من الغزلان فهو لا يأتى بشيء من عنده، إذ البشر منذ القديم يعتقدون بصحة هذا الأمر. ومع هذا فقد قلت، ولا أزال أقول، إننى لا أتصور أن يعيش طفل رضيع يُلْقَى به فى الغابة دون رعاية بشرية. كذلك أميل إلى تصديق ما يقال عن الأطفال الذين يتركون بالغابة دون راع بشرى من أنهم لا يستطيعون النطق كما ينطق البشر، ولا يمكنهم أن يكتسبوا السلوك البشرى أو يعرفوا شيئًا عن مراعاة أعراف المجتمع والذوق واللياقة، بل لا يمكن أن يرتقى تفكيرهم إلى المستوى الإنسانى حتى البسيط منه. ويحتاج الأمر منهم كى يصلوا إلى المستوى المعروف فى المجتمعات الإنسانية، إذا ما بقوا على هذا الوضع فى الغابة، ما احتاجه الإنسان الأول كى يبلغ ما بلغه من الحضارة الآن، أى أحقابا متطاولة.

أقول هذا وقد تابعت فى السنين الأخيرة أحفادى فى نموهم الجسدى والعقلى والنفسى. فمثلا أخذ الأمر وقتا جد طويل قبل أن يتعلم أى منهم إصدار أى صوت لغوى حتى لو كان كلمة مكسرة ناقصة مشوهة. وكان لا بد من التكرار من جانب كل واحد فى الأسرة. ومع هذا فها قد مر عامان بل أكثر من عامين ولم يستطع أى منهم التلفظ بكلمة سليمة كاملة رغم أننا جميعا نساند ونوجه وننطق أمامهم ثم نطلب منهم التقليد والإعادة ونصفق ونقبّل ونغنى ونربّت ونبتسم ونضحك ونهلل ونحتضن ونكافئ، ونفتح لهم التلفاز بأغانيه وتمثيلياته ونشغّل لهم الإسطوانات ونعمل البدع المتخيلة وغير المتخيلة. فماذا كانت النتيجة لتكون لو لم يكن شىء من هذا كله، وبقى كل واحد من هؤلاء الحَفَدَة بلا أنيس أو رفيق أو ملاحظ أو راعٍ إنسانى؟

وحتى يطمئن قلب القارئ أقول له: كيف نتوقع من أى إنسان يعيش وحده فى الغابة دون أن يكون قد عرف الاجتماع الإنسانى أن ينطق الكلمات والجمل؟ إنه ليس بحاجة إليها أبدا، فكيف نتصور أنه يمكن أن يتكلم؟ وكيف نتصور أنه يمكن أن ينتصب على قدميه وهو يرى كل ما حوله من الحيوانات تمشى على أربع؟ صحيح أن الإنسان الأول قد غادر الزحف على أربع وانتصبت قامته فى يوم من الأيام. لكننى أرى أن هذا قد استغرق وقتا طويلا. فلا ينبغى أن نقيس حال ذلك الطفل المتوحش بنظيره الذى ينشأ بين أفراد

أسرته وفى مجتمع من البشر الناضجين الذين يورثونه خبراتهم ويعلمونه إياها لأن الأمرين مختلفان تماما .

فإذا كان الأمر هكذا فى مسألة النطق والمشى، وهما ما هما فى البساطة بالنسبة إلى أشياء أخرى أعقد وأشدّ وأكثر تشابكا، فكيف نظن أن مثل ذلك الطفل يمكن أن يفكر مثل تفكيرنا نحن المتحضرين الذين ذهبنا إلى المدارس والجامعات وقرأنا الكتب وسمعنا المحاضرات والخطب ودخلنا فيما لا يحصى من المناقشات وكتبنا بحوثا وقمنا بتجارب وخضعنا لمراقبة الآخرين ومراجعاتهم واستفدنا من ملاحظاتهم وتصحيحاتهم وأخذنا الجوائز مكافأة لنا على ما أنجزناه وتشجيعا لنا كى نستمر فى تلك الإنجازات، فضلا عما يرفدنا من فكر بشرى استغرق دهورا ودهورا واشترك فى إبداعه جميع الأمم والشعوب والجنسيات؟

أويظن القارئ الكريم أن طفلا ينشأ بين العجماوات المتوحشة يستطيع أن يأتى شيئا من هذا بتلك البساطة التى يصورها ابن طفيل فى رسالته عن حى بن يقظان؟ صحيح أن الله قد وهب الإنسان هبات عجيبة، وزوده بإمكانات هائلة يستطيع بها أن يطير فى الجو ويغوص فى الماء وينقب الأرض ويصنع السيارة والطيارة والصاروخ وسفينة الفضاء والتلفاز والكاتوب والمشباك (الإنترنت) وآلاف بل ملايين الأشياء المذهلة، بيد أنه سبحانه وتعالى قد رتب

الأمر بحيث لا يمكن أن يتم ذلك إلا على سبيل التدرج والتراخى فى الأزمان المتطاولة وتعاون الناس مع بعضهم البعض وارتكاب ما لا يحصى من الأخطاء قبل بلوغ الصواب، وإلا فكيف تأخرت البشرية كل تلك الأحقاب المتناوحة التى لا يحيط بمداها سوى الله واحتاجت إلى كل تلك العقول والإرادات التى لا تعد ولا تحصى على مدى تلك الدهور الشاسعة فى الوصول إلى ما وصلت إليه فى العصر الحديث من تقدم علمى وتكنولوجى سوف يأتى عليه بدوره يوم يُنْظَر إليه فيه على أنه شىء متخلف عفا عليه الزمن؟

أما كروسو فقد أتى إلى الجزيرة ناضجا متعلما لديه خبرات حضارية كثيرة بنى عليها ما كان يحتاجه من إنجازات، ورغم هذا كانت تلك الإنجازات بدائية ساذجة تخلو من الدقة والجمال والأناقة، وكانت دائما فى أدنى درجات السلم الإبداعى والإنجازى. أى أنها كانت تؤدى الغرض والسلام على نحو أو على آخر. وكان منظره، يوم وصل إلى الجزيرة بعضُ أبناء بلده وحملوه معهم راجعين به إلى المجتمع البشرى والحضارة، يُهْلِك من يراه ضحكا. ثم كانت تلك الإنجازات كلها عبارة عن إنجازات مادية صغيرة وقليلة كإقامة سور أو بناء كوخ وسط الأشجار أو تركيب طوف أو بَرْى سكين أو استئناس جَدْى أو عمل شمع أو صنع إناء أو إيقاد نار أو صيد ببغاء أو خياطة ثوب من جلد المعز، بخلاف ما استطاع حى بن يقظان أن يعمله، إذ لم يترك شيئًا عملته البشرية إلا

عمله، وبكل سهولة. لقد صار عالما فلكيا وطبيبا لوذعيا وفيلسوفا عبقريا وصوفيا لم تلده ولادة، كل ذلك دون أن يكون لديه أساس يبنى عليه ولا أيد أخرى تتعاون معه ولا تخصُّص يحصر نفسه فيه ولا أحقاب طويلة تستغرقها إنجازاته، ودون أن يجترح أخطاء تذكر.

هل أنا أقلل من شأن ابن طفيل؟ كلا وحاشا، بل أرمى من وراء هذا إلى شىء هام لا بد أن نضعه فى حسباننا، وإلا انصرفنا عن كتاب الرجل وعددناه كلاما لا يدخل العقل. إن الرجل لم يكتب رواية واقعية ولا تاريخية، بل كتب رواية رمزية فلسفية. وفى مثل تلك الروايات لا يقف القارئ أمام ظاهرها بل ينفذ بنور بصره وبصيرته إلى ما فى باطنها وأحشائها. إن ابن طفيل، فيما أفهم، إنما أراد أن يسجل مسيرة البشرية الحضارية متمثلة فى واحد من البشر هو حى بن يقظان. وعلينا أن نغض الطرف عما يمكن أن يتعارض مع هذا الفهم، وإلا فسد فى أيدينا كل شىء. "فالإنسان، حسبما يقول أرسطو فى كتاب "السياسة"، هو المخلوق الوحيد الذى يميل إلى الحياة فى مدينة، ويخضع نفسه للقوانين، لكنه أيضا المخلوق الوحيد الذى ينتج العلم والفن والدين وجميع مظاهر الحضارة. وهى أمور تدل على كمال التطور البشرى، ولا يستطيع الإنسان تحقيقها إلا فى مجتمع المدينة أو الدولة. ومن يستطيع الحياة

خارج المدينة، وليس به حاجة لأنه مكتفٍ بنفسه بالفعل، إما أن يكون حيوانا أو إلها"[1].

نعم إذا ما نظرنا إلى الرواية على أنها رواية رمزية لا واقعية مررنا على مثل هذه الأشياء مرور الكرام، وزال الاستغراب والإنكار. ذلك أن ابن طفيل لا يحكى لنا قصة وقعت أو يمكن أن تقع، ولا أظنه قصد أن يوقع فى رُوعِنا أن شيئًا من ذلك حقيقى. وهو فى هذا يجرى على نفس السُّنَّة التى يجرى عليها مؤلفو قصص الحيوانات، وعلى ما جرى عليه مثلا هانز كريستيان أندرسون حينما كان يُنْطِق بالكلام إبريق الشاى والكستبان والدمية وما إلى هذا ويجعلهم يتصرفون ويفكرون وينفعلون كالبشر، ويكاد القارئ يجن من فرط الإعجاب. فهذا مثل هذا. ولو لم نتبع هذا المبدأ لرفضنا كثيرا من القصص والروايات والحكايات، ومنها مثلا حكايات "ألف ليلة وليلة"، التى بهرت الدنيا كلها رغم أنها لم تترك لدى مفكرينا وأدبائنا القدامى نفس الأثر التى تركته فى نفوس الغربيين، ثم فى نفوس العرب فى العصر الحديث بتأثير اهتمام الغرب وافتتانهم بها.

---

[1] نقلا عن كتاب "الطاغية- دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى" للدكتور إمام عبد الفتاح إمام/ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت- سلسلة "عالم المعرفة"/ مارس ١٩٩٤م/ ١٠٨.

وابن طفيل، فى إيراده الروايتين اللتين تفسران مولد حى بن يقظان، يجرى، كما سبقت الإشارة، على ما يقوله الإسلام من أن الإنسان، كجنس من أجناس الخلق، قد جُبِل من الطين حسبما تنص الآيات القرآنية الكثيرة، إلا أنه كأفراد لا يتولد إلا من التقاء رجل بامرأة. والقصة تعكس، كما قلت، تطور الجنس البشرى على الأرض منذ خلق الله الإنسان إلى العصر الذى كان يعيش فيه ابن طفيل، إذ من المستحيل أن يتطور الفرد الإنسانى بهذه الطريقة وتلك السرعة، وعلى هذا النحو السلس الذى تطورت به حياة ابن طفيل فى القصة فيكتشف النار مثلا ويعرف التشريح والتفكير العلمى المنهجى والتأمل فى الكون والإيمان بالله وبالآخرة وبضرورة الأخلاق الفاضلة وما إلى هذا بتلك البساطة وفى ذلك الزمن القصير. فهى بهذا قصة رمزية، ولولا رمزيتها لما قبلنا أن تقوم غزالة بإرضاع طفل بشرى أو تنظفه من وساخاته وفضلاته أو تحميه من الآفات الطبيعية والهوام والحشرات والزواحف التى تعجّ بها الغابات أو تحمله على ظهرها من مكان إلى مكان. . . ببساطة لأن هذا أمر مستحيل.

وقد صبّ ابن طفيل فى هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين حسبما سلف القول. وهى فكرة كان يتبناها بعض الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، إذ كانوا يقولون إن العقل الإنسانى كافٍ وحده لوصول الإنسان إلى الحقيقة بشأن وجود الله ومعرفة صفاته

والإيمان بالآخرة، ومن ثم وجوب تحمله المسؤولية واستحقاقه للحساب الإلهى وما يترتب عليه من الثواب والعقاب حتى لو لم يُبْعَث إليه رسول. وكانوا يفسرون "الرسول" فى قوله تعالى: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا"[1] بأنه هو العقل. وهذا التفسير يعكس شططا فى التفكير، إذ لا تساعد عليه اللغة العربية ولا النصوص القرآنية والحديثية ولا حقائق التاريخ.

فمن الناحية اللغوية لم نسمع أن العرب استخدموا يوما كلمة "الرسول" بمعنى العقل، وإلا فليأتنا ابن طفيل أو غير ابن طفيل بنص شعرى أو نثرى يقول إن الرسول يعنى، فيما يعنيه، العقل. أما من ناحية النصوص الدينية فلا ريب أن آيات قرآنية مثل قوله تعالى: "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا"[2]، أو قوله عز شأنه: "وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا

---

[1] الإسراء/ ١٥.

[2] النساء/ ١٦٣– ١٦٦.

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى"[1]، إلى جانب آية سورة "الإسراء" السابقة، تدل دلالة قاطعة على أنه لا حساب ولا ثواب ولا عقاب دون رسل من البشر لا من العقل حسبما يقول بعض الفلاسفة والمتكلمين المسلمين.

ثم لو كان العقل وحده كافيا فى مثل تلك الأمور فلماذا لم يَكِلِ اللهُ عبادَه إليه؟ ومن المعروف لنا جميعا من تجارب التاريخ والواقع الأليمة أنه رغم إرسال الأنبياء فما زال وسيظل هناك عصاة وكفار ومنافقون ومتمردون ومتشككون وظلمة ومستبدون وطغاة ولصوص وقتلة وزناة وكسالى وسبابون ومغتابون. فما بالنا لو ترك الله البشر لعقولهم المجردة دون أن يبعث إليهم برسل تأخذ بيد تلك العقول وتشير لها إلى الطريق وتعينها على التفكير السليم؟ ليس ذلك فحسب، فكبار ذوى العقول من العلماء والمفكرين والفلاسفة والأدباء مختلفون اختلافا شديدا فى عقائدهم، وكل منهم يستعين بعقله وعلمه وتفكيره وفلسفته لإثبات صحة ما يعتنقه ويذهب إليه من دين أو مذهب أو فلسفة أو نظام أو وضع، وما يراه من إيمان أو كفر. والانقسامات والنزاعات الحاصلة بينهم هى أكبر شاهد ودليل على ما نقول. فأى عقل ذلك الذى يقصده ابن طفيل حين يقول إن العقل لا يمكن أن يضاد الدين؟ بل إن الشخص الواحد قد يكون ملحدا اليوم ومؤمنا غدا، وهو فى كل مرة يدافع عن موقفه بالعقل. ولو كان

---

[1] طه/ ١٣٣– ١٣٤.

كلامه صحيحا فلماذا لا يجمع الناس، على الأقل: الناس الذين يشغّلون عقولهم بعمق، على دين واحد ؟ لكن الواقع يصيح بأعلى صوته أن هذا هو المستحيل بعينه.

كيف لا، والله سبحانه هو نفسه الذى يقرر ذلك: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ"[1]، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ"[2]؟ كما أن الآية ١١٥ من سورة "النساء" تشير بكل وضوح إلى أن القرآن الكريم يميز بين إنسان يشاقّ الرسول من بعدما يتبين له الهدى وإنسان لا يتبين له ذلك الهدى. ومعنى هذا أن الاختلاف فى نتيجة التفكير أمر طبيعى، والمهم ألا يتبين للشخص الهدى ثم يعاند ويكفر تمردا وعصيانا. وكل ما عليه هو أن يبذل قصارى جهده، ثم ليس عليه بعد ذلك من تثريب إذا لم يتبين له الهدى. كذلك فالناس متفاوتة فى عقولها ما بين ذكى وغبى، ورئيس ومرؤوس، وواسع الأفق وضيقه، ومتعلم وجاهل، وعالم تربى فى جو معين وآخر تربى فى جو آخر، ومتخصص فى فن من الفنون ومتخصص فى فن مختلف. . . إلخ. كما أنه عليه السلام، فى حديث له مشهور، قد تحدث عن

---

[1] المائدة/ ٤٨.

[2] هود/ ١١٨– ١١٩.

مجتهد يصيب ومجتهد يخطئ مبينا أن لكليهما أجره، وإن اختلف الأجران وتفاضلا. وهذا أيضا معناه أننا، بعد الاجتهاد، يمكن جدا أن نخطئ. وهو ما لم يجرّمه الرسول، بل توقعه وبين أنه أمر طبيعى ليس فيه شذوذ عن الطبيعة البشرية ونظام الكون.

من هذا كله نقول إن ابن طفيل وغيره من العلماء الذين يقولون إن العقل يستطيع بنفسه دون معاونة من الدين الوصول إلى حقائق الدين لم يوفَّقوا فى رأيهم. ولماذا الذهاب بعيدا، ولدينا ابن طفيل نفسه، فهل يرافئه جميع علماء المسلمين ومفكريه على آرائه الفلسفية؟ إن كلام ابن طفيل وأمثاله إنما يصدق لو كان هناك عقل واحد لكل البشر، عقل صاف نقى قوى قادر لا يخطئ ولا يتأثر بظروف صاحبه، عقل مجرد مطلق. وأين مثل ذلك العقل فى دنيا الإنسان؟ إنه غير موجود إلا فى عالم المثل، ونحن لا نعيش فى عالم المثل بل فى عالم الأرض. وليس معنى هذا أننا محكومون تماما بقيود ظروفنا وأوضاعنا وبيئتنا، وأننا مجبورون فى تفكيرنا لا نستطيع استقلالا، إذ قد وهبنا الله قدرا من الحرية نستطيع به صنع العجائب فى عالم الفكر والتصرف، وهو ما تشهد به تلك الإنجازات التى حققتها البشرية ولا تزال وستظل تحققها فى مختلف المجالات والميادين. إلا أن ذلك يتطلب منا يقظة ووعيا دائمين دائبين، واجتهادا مستمرا، ومراجعة متصلة لما نفعل، وحرصا على إتقان ما نصنع، وإيمانا بأننا

عرضة للوقوع فى الأخطاء فى كل وقت، مع الاطمئنان أيضا إلى أن الله سوف يكافئنا على كل هذا بغض النظر عن ثمرة ما نفعل ما دمنا قد استفرغنا وسعنا ولم نترك شيئًا دون أن نعمله: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"[1]. إن الحقيقة المطلقة المحيطة بالشىء من كل جوانبه ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليست لدينا، بل هى عند الله. وما نحن سوى مجتهدين، وكل ما ينبغى مراعاته هو الإخلاص واليقظة المستمرة والبحث الدائم والتواضع والمراجعة الدءوبة والمرونة وإسلام الأمر فى النهاية لله سبحانه، مع احترام حق الآخرين فى الحياة والاعتقاد والعبادة على النحو الذى يقررونه ما داموا لا يبغون على أحد .

كذلك هناك شىء لا بد من التوقف إزاءه قليلا، وهو أن ابن طفيل قد قدم لنا حى بن يقظان صحيح البدن والروح لم تعتره علة طوال حياته. ترى هل هذا ممكن؟ لقد أخذنا على ديفو أن كروسو لم يعرف المرض خلال الثلاثين عاما تقريبا التى عاشها على الجزيرة سوى مرة واحدة، وكانت بسبب نزلة برد ألمت به ولم تتكرر بعد أن صار يأخذ احتياطاته نحوها، وهو ما يخالف المعهود، إذ الأمراض لا بد أن تنتاش الإنسان من كل جانب بالغا ما بلغ حرصه وتَوَقِّيه، لأن

---

[1] النساء/ ١١٥.

الإنسان لا يملك أَزِمَّة كل شىء فى الكون حتى يستطيع النجاح فى الابتعاد عن الأمراض تماما، علاوة على أن الواقع يقول إن ذلك مستحيل استحالة باترة. وهذا هو حى بن يقظان يتفوق على كروسو فلا يمرض ولا حتى بنزلة برد أو يعطس أو يُمْغَص أو يُسْهِل أو يُصْدَع ولو مرة. كيف ذلك؟ هذا ما لا يمكن أن يكون إن كان حى بن يقظان شخصا واقعيا، أما إن رأينا فيه رمزا على البشرية كلها منذ أول الوجود إلى عصر ابن طفيل فإن غرابتنا قد تذهب ويحل محلها رضا بما نقرأ. سيقول البعض: لكن حتى لو كان ابن يقظان رمزا كما تقول على البشرية جمعاء، أليست البشرية تعرف الأمراض؟ بلى. لكن لو أننا فتحنا هذا الباب، باب المرض، لكان على ابن طفيل أن يصيب حى بن يقظان بكل الأمراض التى عرفتها البشرية منذ فجر الإنسانية حتى تاريخه. وهذا غير مقبول ولا مقنع. على أنى لا أقصد أن ابن طفيل قد كان واعيا بهذا الذى أقول. إنما هى رمية من غير رام. أما لو أردنا أن نكبر من شأنه ونقول إن هذه الفكرة لم تكن غائبة عنه لأمكننا أن نقول إنها كانت هناك مستكنة فى أطواء ضميره دون أن يكون واعيا لها. وكثير من أفكارنا لا يكون واضحا لنا ونحن نتكلم فى موضوع ما، ومع هذا فإن الفكرة تحكم مناقشتنا وتخطيطنا وردودنا

وشروحنا دون أن نتنبه. وهذه هى المعرفة التطبيقية التى يمارسها كثير منا وهو غير دار. إنها معرفة تجرى فى الدم دون أن نعيها.

شىء آخر توقفنا أمامه فى قصة "روبنسون كروسو" وينبغى أن نتوقف أمامه هنا أيضا، ألا وهو أن بطل الرواية يعيش على جزيرته المنعزلة عشرات السنين دون إحساس بالغريزة الجنسية، وكأنها لا وجود لها. هل يعقل أن شهوة الجنس لم تتحرك فى كيان حى بن يقظان ولو مرة واحدة، وكان طَوَال العقود التى قضاها وحيدا لا يفكر إلا فى الطب والأفلاك ووجود الله والجنة والنار وما أشبه؟ أمن المعقول أنه كان يرى الحيوانات والطيور تتسافد ثم لا يلتفت إلى هذا الأمر؟لا أظن إلا أن الجنس سوف يشغل الإنسان المنعزل فى مثل جزيرته مثلما يشغله الجوع والعطش والنوم. إن هذه كلها غرائز خلقها الله فينا كى تحركنا وتدفعنا إلى إشباعها، ومن ثم إلى الاجتهاد فى بناء الحضارة. فما الغرائز إلا الوقود الذى يدفع قاطرة البشرية إلى الأمام. ولولا هى ما كانت هناك حركة بشرية فى أى اتجاه ولا كانت هناك حضارة من ثم، ولظل الإنسان فى مكانه لا يَرِيمه أبدا، إذ ما الذى سوف يدفعه إلى الحركة والانتقال من موضعه إلى موضع آخر إذا كان لا يحتاج شيئا ولا يتطلع إلى تحقيق شىء بسبب أن الله قد فرَّغه من الغرائز والشهوات والأهواء؟ إن الحضارة هى الاجتهاد فى إشباع الحاجات الإنسانية. فإذا لم توجد حاجات إنسانية لم توجد الحضارة. ترى هل

قَصَّر ابن طفيل كما قصر ديفو حين أهمل تصوير ذلك الجانب فى روايته؟ أتصور أن ابن طفيل لا ينبغى أن يلام كما يلام ديفو لأن ديفو كتب رواية واقعية، أما ابن طفيل فقد كتب رواية رمزية كما قلنا .

ثم إن المسألة لا تقف عند هذا الحد، إذ إن ابن طفيل لم يُعَنّ نفسه بالحديث عن طعام ابن يقظان وشرابه وكيفية تدبيره لهما، وكأنه لم يكن يأكل أو يشرب أو يقلق ويخاف ويرتعب مثلما كان كروسو يفعل. كما أن ابن طفيل لم يهتم بتغير الفصول وما يستتبعه من تغير الجو ووجوب اجتهادِ حَيٍّ فى التكيف مع كل فصل ومواجهته بما يتطلبه منه. وهذه، فى الواقع، ثغرة أخرى رغم علمنا بأن حَيًّا هو مجرد رمز كما قلنا وكما سنظل نقول. لقد استحال حَيٌّ عقلا محضا فلم يعد يهتم بأى شىء سوى التفكير والعلم والتأمل. لقد صار عالما فيلسوفا ثم لا شىء آخر. إن العلماء والفلاسفة لا يختلفون فى مسائل الطعام والشراب وشهوة الجنس عن أى إنسان آخر رغم اختلافهم عن سائر البشر فى اهتمامهم الشديد بالعقل والعلم والفكر والتأمل مما لا يلقى إليه معظم الناس، والعوام منهم بوجه خاص، بالا. إننا جميعا خاضعون لضرورات الجوع والعطش والشهوة النوعية، ولا يمكننا أن ننفك عنها ولا أن تنفك عنا. سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا. بل إن الحياة، كما سبق أن قلنا، لا يمكنها الاستمرار إلا من خلال إشباع الغرائز والشهوات. والإسلام لا ينكر ولا

يمكن أن ينكر هذا، وإن كان دين محمد صلى الله عليه وسلم لا يريد لأتباعه أن يكون إشباع غرائز البدن هو كل شىء، وإلا كان الإنسان كائنا غير مكتمل.

أما فى "روبنسن كروسو" فكان البطل يهتم دائما بتدبير أمر طعامه وشرابه لا فى الحاضر فقط بل فى المستقبل أيضا، متبعا فى ذلك خطة طويلة المدى نسبيا، وإن كانت شهوات الجنس قد نُسِيَتْ تماما حسبما بَيَّنَّا. كما كان يتأمل فى الكون والغابة من حوله، وفى وقائع حياته وذكرياته والابتلاءات التى مر بها، علاوة على نصوص الكتاب المقدس، التى لم يكن يهتم بمطالعتها قبلا، فضلا عن جعلها موضوعا للتأمل والتفكير. يضاف إلى ذلك أنه لم يحاول أن يكون عالما، بل بقى مجرد صانع بدائى عليه أن يوفر لنفسه الأدوات البدائية التى يحتاج إليها فى أموره الأولية كالعجن والخبز والنشر والصيد والطبخ والدبغ والخياطة، منفقا فى كل شىء من ذلك الوقتَ الطويلَ، وخائضا غمرات الإخفاق كثيرا قبل أن يستقيم له الأمر. وهو لم يقل يوما إنه قد تجاوز فى شىء من ذلك حد الضرورة الأدنى، فلا جمال ولا إتقان ولا رفاهة ولا ولا، بل كان هِجّيراه أن تؤدى الأداة التى يصنعها ما يحتاجه منها على أى نحو كان. المهم أنها تحقق الغرض، والسلام! وهو فى هذا كله يختلف عن حى بن يقظان اختلافا جوهريا كما سبق أن وضحنا.

ثم هناك فرق آخر مهم بين الروايتين هو أن رسالة "حى بن يقظان" لا تُعْنَى إلا بالخطوط العامة بخلاف "روبنسون كروسو"، التى تعج بالتفاصيل فى كل شىء. إن كروسو مثلا إذا ما أراد أن يصنع شيئًا يستخدمه فى حياته اليومية فإنه يقص علينا كل ما عمله منذ شرع يفكر فى صنع ذلك الشىء إلى أن نجح فى صنعه ذاكرا محاولاته المتكررة وفشله فيها بدءا من الوقت الذى كان فيه مجرد خاطرة فى ذهنه، ثم أثناء صنعه، ثم عند الانتهاء منه، ثم بعد الانتهاء منه وكيفية استعماله. . . إلخ. أما بالنسبة إلى حى فيكتفى ابن طفيل بتلخيص الأمر فى عجالة ودون دخول فى التفاصيل إلا ما ندر.

كذلك هناك الفرق بين جمعة وأبسالان: فجمعة شاب زنجى وثنى أقل من كروسو حضارة وثقافة، علاوة على أنه يختلف عنه لغة مما دفع كروسو إلى تعليمه الإنجليزية. أما أبسالان فلا فرق بينه وبين حى. كما أنه لم يكن تابعا له تبعية العبد للسيد كما كانت العلاقة بين كروسو وجمعة، بل كان صديقا وزميلا على نفس المستوى الفكرى. وبالمثل لم يقم حى بإدخال أبسالان فى الإسلام مثلما نَصَّرَ كروسو جمعة، إذ كان أبسالان مسلما مثل حى، ومن ثم لم يكن هناك مجال أصلا للتفكير، مجرد التفكير، فى أسلمته. كذلك ففى الوقت الذى انتهت رواية كروسو بتركه الجزيرة وعودته إلى المجتمع البشرى إلى الأبد ألفينا حَيًّا ما إن يترك الجزيرة مع أبسالان ويعود إلى المجتمع العمرانى حتى يصمم على

العودة إلى الجزيرة المقفرة مرة أخرى لعدم انسجام فهمه للدين مع فهم الناس فى المجتمع الذى انتقل هو وأبسالان إليه. ومن الناحية الفنية فإن ديفو قد عهد إلى كروسو بسرد أحداث قصته، بخلاف ابن طفيل، الذى اعتمد فى سرد قصته على ضمير الغائب، وهو الأسلوب الذى تجرى عليه القصص العربية القديمة كلها فى حدود ما أذكر.

هذا عن أوجه التشابه والاختلاف بين "حى بن يقظان" و"روبنسون كروسو". لكن هل كانت هناك صلة تاريخية بين العملين بحيث يمكن القول بأن ديفو قد تأثر، فى تأليف روايته، بماكتبه ابن طفيل؟ تعالَوْا أولا نستعرض ما قالته مادة "حى بن يقظان" فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "Wikipedia: ويكيبيديا"، التى نقرأ فيها أنه قد ظهرت لرواية ابن طفيل ترجمة لاتينية عام ١٦٧١م بقلم إدوارد بوكوك، الذى كان قد أعدها منذ عام ١٦٦٠م، وأنها قد أوحت إلى المفكرين بمفهوم الـ"tabula rasa"، أى العقل فى حالته الأصلية قبل أن تدخله أية فكرة أو معلومة، وقبل أن يخبر الحياة أو يعرف أى شىء فيها. وهو المفهوم الذى طوره جون لوك فى رسالته: "An Essay Concerning Human Understanding". وكان لوك تلميذا لبوكوك، وقرأ ترجمته لكتاب ابن طفيل وأبدى إعجابه به. كما أوحت "حى بن يقظان"

إلى روبرت بويل بكتابة روايته: "The Aspiring Naturalist"، التى تقع أحداثها هى أيضا فوق جزيرة من الجزر.

أما أول ترجمة إنجليزية فقد صدرت عام ١٦٨٦م بقلم جورج آشويل اعتمادا على الترجمة اللاتينية السالفة الذكر، ثم ترجمت مرة أخرى إلى الإنجليزية من العربية مباشرة عام ١٧٠٨م على يد سيمون أوكلى لتظهر بعدها ترجمتان إنجليزيتان أُخْرَيان. كما أشار محرر المادة إلى اطّلاع سبينوزا الفيلسوف الألمانى على الرواية وتشجيعه أحد أصدقائه على ترجمتها إلى الهولندية، فكانت الترجمة التى ظهرت سنة ١٦٧٢م، وتبعتها ترجمة هولندية أخرى عام ١٧٠١م. كذلك ظهرت ترجمتان ألمانيتان أُخْرَيان: أولاهما تستند إلى الترجمة اللاتينية، والثانية مأخوذة من النص العربى دون وسيط. وقد اطَّلع الفيلسوف الألمانى لينيتز على إحدى هاتين الترجمتين وأثنى على ما فى الرواية من فلسفة عربية إسلامية ثناء كبيرا. وبالمثل اطلع أساتذة السوربون على ترجمة بوكوك، وكانوا مبتهجين بها أشد الابتهاج.

ويمضى كاتب المادة قائلا إن إحدى ترجمات "حى بن يقظان" الإنجليزية قد ألهمت الروائى دانييل ديفو فكتب روايته: "Robinson Crusoe"، التى جرت وقائعها فى إحدى الجزر المهجورة، وهو العمل الذى يعده مؤرخو الأدب أول رواية إنجليزية. ثم ظهرت رواية أخرى عام ١٧٦١م فى بريطانيا على نفس

الشاكلة تحتوى على أشياء كثيرة جدا من ترجمة بوكوك لـ"حى بن يقظان". ثم أعيد طبع ترجمة بوكوك ثانية عام ١٨٠٤م. أما ترجمة "ابن يقظان" إلى الأسبانية فقد تأخر ظهورها إلى بداية القرن العشرين. ثم ظهرت ترجمة فرنسية لها فى نفس العام بقلم المستشرق ليون جوتييه.

وفضلا عن هذا كانت "حى بن يقظان" إرهاصا على نحو من الأنحاء برواية جان جاك روسو المشهورة: "Emile"، كما أن بينها وبين رواية رديار كبلنج: "The Jungle Book" شبها واضحا، وكذلك بينها وبين رواية "طرزان"، التى ألفها إدجار رايس باروز، وتدور حول طفل رضيع هجرته أمه فى جزيرة استوائية خالية من السكان حيث التقطته وربته واعتنت به ذئبة من الذئاب. وهناك كتاب ومفكرون أوربيون غير قليلين تأثروا بترجمة بوكوك لرواية "حى بن يقظان" منهم جون واليس وروبرت باركلى وكارل ماركس وطائفة الكويكرز المعروفة وآخرون.

وفى عام ١٧٢١م ظهر فى أمريكا كتاب "The Christian Philosopher" للكاتب والقسيس الأمريكى البيوريتانى كوتون ميثر، الذى لم يمنعه وَسْمُه المسلمين بالكفر من استيحاء رواية "حى بن يقظان" فى كتابه هذا ولا من الاعتراف بتأثيره عليه، ناظرا إلى حَىٍّ بطل الرواية بوصفه نموذجا

للفيلسوف النصرانى المثالى، ومحاولا من خلاله فهم نفسية سكان أمريكا الأصليين، أى الهنود الحمر، بغية تحويلهم إلى مذهبه البيوريتانى.

وكما نرى فإن مادة "حى بن يقظان" فى النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" تؤكد أن تأثير رواية ابن طفيل على الآداب الأوربية تأثير واسع وعميق. وعند هذه النقطة نحب أن نتوقف بشىء من التفصيل إزاء قضية الصلة بين تلك الرواية وبين رواية ديفو: "روبنسون كروسو". ولكن علينا قبل ذلك أن نتعرف، من خلال النسخة الإنجليزية من "ويكيبيديا" أيضا، إلى "روبنسون كروسو" مثلما تعرفنا إلى "حى بن يقظان"، فنقول إن "روبنسون كروسو" قصة كتبها دانيال ديفو، ونشرها لأول مرة عام ١٧١٩م. وهى تحكى قصة شاب عاش فى جزيرة من الجزر وحيدا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدا من البشر، ثم بعد عدة سنوات التقى بأحد المتوحشين فعلّمه بعض ما وصل اليه الإنسان المتحضر من تقدم فكرى واتخذه خادما له، ثم يعود فى نهاية القصة مصطحبا خادمه إلى أوروبا حيث العالم المتحضر.

وتبدأ القصة بمغادرة كروسو إنجلترا فى رحلة بحرية فى سبتمبر عام ١٦٥١م مخالفا رغبات والديه، ويسطو القراصنة على السفينة، ويصبح كروسو عبدا للمغاربة، إلا أنه يتمكن من الهرب فى زورق ويصادق قائد سفينة برتغالية قادمة من الساحل الغربى لأفريقيا فى طريقها إلى البرازيل حيث يصبح كروسو

مالكا لإحدى المزارع وينضم إلى بعثة لجلب العبيد من أفريقيا . وتغرق السفينة التى كان فيها خلال عاصفة تبعد أربعين ميلا فى البحر فى مدخل نهر أورينوكو فى ٣٠ سبتمبر عام ١٦٥٩م، فيموت جميع رفاقه ما عداه. ويتمكن من استخلاص الأسلحة والأدوات والتجهيزات الأخرى التى كانت فى السفينة قبل أن تتحطم تماما وتغوص فى الماء . ثم يقوم ببناء سور لمسكنه الذى أقامه فى كهف، ويصنع أيضا تقويما يتعرف به على مرور الزمن من خلال علامات يرسمها على قطعة خشب. كما يقوم بالصيد وزراعة الذرة ويتعلم صناعة الفخار وتربية المعز، ويقرأ الإنجيل ويصبح متدينا فجأة ويشكر الله على مصيره، فلا شىء قد فُقِد منه إلا المجتمع.

وفى يوم من الأيام يكتشف كروسو جماعة من آكلى لحوم البشر يترددون على الجزيرة ليقتلوا ويأكلوا أسراهم على شواطئها . وعندما استطاع سجين من السجناء الهروب انضم إلى كروسو، الذى سماه: "فرايداى: Friday" باسم يوم الجمعة، الذى قابله فيه، فشرع يعلمه الإنجليزية حتى يستطيع التفاهم معه، كما نجح فى تحويله إلى النصرانية. ثم تصل مجموعة جديدة من السكان الأصليين لصنع وليمة أخرى من اللحوم البشرية، ويستطيع جمعة وكروسو قتل معظمهم مع الاحتفاظ باثنين من أسراهم: أحدهما هو والد جمعة، والثانى أسبانى. ويخبر هذا الأخير كروسو أن مجموعة من الأسبان الذين غرقوا موجودون على هذه

الجزيرة. ويستطيع الثلاثة بمعاونة هؤلاء الأسبان بناء سفينة يبحرون بها إلى أسبانيا. بيد أن سفينة إنجليزية تظهر ويقع فيها تمرد يسيطر أصحابه على السفينة ويتركون قائدهم على الجزيرة، لكنه يستطيع، بمساعدة كروسو، استرداد سفينته. ثم يسافر كروسو بعد ذلك إلى البرتغال للبحث عن قائده القديم الذى يُخْبِرُه بأنّ مزرعته البرازيلية قد جعلته رجلا غنيا. ومن البرتغال يسافر كروسو برا إلى إنجلترا عن طريق أسبانيا وفرنسا حيث تتعرض القافلة التى كان فيها لهجوم من الذئاب أثناء عبورها جبال البيرينيز. ويُقَرّر كروسو بَيْع مزرعته نظرا إلى أن عودته إلى البرازيل تستلزم تحوله إلى الكاثوليكية، وهو ما لا يريده، ثم يتزوج ويصبح أبا لثلاثة أطفال. وعندما تموت زوجته ويصبح أرمل يعود إلى جزيرته فى نهاية المطاف.

هذا، وقد سبق أن رأينا كيف تؤكد مادة "حى بن يقظان" فى موسوعة "ويكبيديا" أن للرواية العربية تأثيرا قويا على نظيرتها الإنجليزية. وهو رأى من الآراء المختلفة فى هذه القضية التى ينقسم مقارنو الأدب بشأنها، إذ هناك من يتجاهل تلك الصلة ولا يتحدث عنها بل لا يومئ إليها مجرد إيماء، وكأنها لم تكن ولا يمكن أن تكون. وهناك من يؤكد أن ديفو إنما سرق ما كتبه سلكيرك البحار الأسكتلندى عن مغامراته الحقيقية المشابهة لما جاء فى قصة "روبنسون كروسو"، تلك المغامرات التى نُشِرت قبل كتابة ديفو لروايته. وهناك من يشير

إلى وجوه الشبه بين الرواية العربية والرواية الإنجليزية، إلا أنه يردف تلك الإشارة بأنه لم يثبت أن ديفو قد استوحى كتاب ابن طفيل، إذ ليس هناك أى دليل على أنه قد وقع فى يده، فضلا عن أن يكون قد قرأه. وهناك من يوافق على أنه لم يثبت تاريخيا أن ديفو قد اطلع على "حى بن يقظان"، بيد أنه يحتّم مع هذا أن يكون قد قرأها وتأثر بها، اعتمادا على البرهان النظرى لا الواقعى.

يقول د. سعيد إبراهيم عبد الواحد (فى مقال له بعنوان "الترجمة إثراء للثقافات المختلفة" منشور فى مجلة "ديوان العرب" الضوئية بتاريخ ٨ ديسمبر ٢٠٠٥م) عن "حى بين يقظان" إنها "من أعظم قصص العصور الوسطى ابتكارا. وقد كان لهذه القصة الأثر الفعال فى الآداب الأوروبية بعد عصر النهضة، وذلك بعد أن ترجمت إلى لغات أجنبية مختلفة وانتشرت طبعاتها فى كل مكان: فقد ترجمت إلى العبرية سنة ١٢٨٠م (٦٧٩ هجري) على يد اليهودى إسحاق بن لطيف، ثم زاد عليها موشيه بن يشوا الملقب بالشرنوبى بعض الحواشى والشروح. كان هذا عام ١٣٤٩م الموافق ٧٥٠ هجرى.

وفى العام ١٦٧١م ظهرت طبعة جيدة تحمل النص العربى للقصة مع ترجمة لاتينية قام بها إدوارد بوكوك، وقد كانت مصدرا لعدة ترجمات ظهرت بالإنجليزية فيما بعد. كما تنسب إلى سبينوزا ترجمة لقصة "حى بن يقظان" من اللغة اللاتينية إلى اللغة الهولندية. ويذكر فاروق سعد فى كتابه عن"حى بن

يقظان" أن جورج كيث قد قدم فى العام ١٦٧٤م ترجمة رائعة باللغة الإنجليزية عن النص اللاتينى المترجم عن العربية أصلا. وبعدها بعدة سنوات، أى فى العام ١٦٨٦م، ظهرت ترجمة أخرى للقصة من اللاتينية إلى الإنجليزية قام بها جورج آشويل. وفى عام ١٧٠٨م نشرت ترجمة إنجليزية لقصة "حى بن يقظان" أعدها سيمون أوكلى معتمدا على النص العربى المحقَّق من بوكوك. وتتميز ترجمة أوكلى بأنها كاملة. أما عن الترجمات الحديثة فقد قام ب. برومل بترجمة "حى بن يقظان" إلى الإنجليزية عام ١٩٠٤م.

وعرفت اللغة الألمانية ترجمة لقصة ابن طفيل: "حى بن يقظان" قام بها ج. بارتيوس، ونُشِرَت فى فرانكفورت عام ١٧٢٦م. كما أنّ هناك ترجمة أخرى لقصة "حى بن يقظان" إلى اللغة الألمانية قام بها ج. ج. أيكورم، ونشرت فى برلين عام ١٧٨٣م. وفى عام ١٩٠٠م نشرت فى سرقسطة الترجمة الأسبانية لقصة "حى بن يقظان"، وقام بها ب. بونز. وحديثا فى العام ١٩٣٧م ظهرت ترجمة أخرى إلى الأسبانية قام بها أنخل غونثالث بالنثيا. وترجم ليون غوتيه قصة "حى بن يقظان" إلى الفرنسية. وقد صدرت إحدى طبعات هذه الترجمة فى بيروت عام ١٩٣٦م.

ولعل غوتيه هو أول من بحث علاقة قصة "حى بن يقظان" بقصة روبنسون كروسو المكتوبة عام ١٧١٩م فى بريطانيا تحت عنوان "مغامرات

عجيبة فى قصة حياة روبنسون كروسو" . ووقف غوبته عند حد افتراض اطلاع دى فو على قصة ابن طفيل. وفى "دائرة المعارف الإسلامية" ذهب إلى اعتبار أن كروسو تمثل نمطا للرجل العملى دنيويا، فى حين يمثل حى بن يقظان مثلا للحياة التأمليه التصوفية. ويأتى ايرنست بيكر فى كتابه: "تاريخ القصة الإنجليزية" الصادر فى لندن سنة ١٩٤٣م ليعتبر "حى بن يقظان" أحد المصادر المحتملة لقصة "روبنسون كروسو" . وينضم وليام كيرى وليفيج أولوفسون إلى أولئك الذين جزموا باطلاع دى فو على قصة "حى بن يقظان"، فى حين يقف أوغسطين سيرارو وديرهارو ويختناش دون الجزم. أما الكتاب العرب عمر فروخ ومحمد غلاب وعلى المصراتى وقدرى طوقان وكمال اليازجى وأنطوان كرم وإبراهيم مدكور ومحمد لطفى جمعة ولطفى عبد البديع وسعيد عبد الفتاح عاشور وكامل الكيلانى فقد ذهب جميعهم إلى تأكيد أثر قصة "حى بن يقظان" فى قصة روبنسون كروسو" .

وممن افترض أيضا اطلاعَ ديفو على "حى بن يقظان" المستشرق A. M. Goichon كاتب مادة "حى بن يقظان" فى الطبعة الجديدة من "دائرة المعارف الإسلامية"، إذ قال ما نصه:

"It is possible that Defoe's Robinson Crusoe, the first part of which appeared is 1719, owed something to Ockley's translation of Ibn Tufayl".

أى من المحتمل أن تكون قصة "روبنسون كروسو"، التى ظهر جزؤها الأول عام ١٧١٩م، مدينة بعض الشىء للترجمة التى قام بها أوكلى لقصة ابن طفيل. كذلك يقرر كامل كيلانى فى مقدمة ترجمته المبسطة للناشئين لرواية "روبنسون كروسو" أنه "قد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة: حى بن يقظان".

أما د. عمر فروخ فقال فى كتابه: "تاريخ الأدب العربى": "لقد قلد هذه القصة كتاب كثيرون أشهرهم وأقربهم إليه السياسى القصصى الأدبى دانيال ده فو (ت١٧٣١م) فى قصته: روبنسون كروسو"[1]. ولفروخ فى ذات الوقت كتاب كامل عن قصة الفيلسوف الأندلسى عنوانه "ابن طفيل وقصة حى بن يقظان" تناول فيه بشىء من التفصيل القول فى هذه القضية[2]. كذلك كتب جميل صليبا وكامل عياد فى مقدمة تحقيقهما لكتاب ابن طفيل ما يلى: "تمتاز قصة ابن طفيل عن قصة "روبنسون كروسو" من الناحية الفلسفية. كذلك تمتاز على غيرها من القصص الفلسفية الشرقية بالقرب من الحقيقة الواقعة، وبالوصف الطبيعى، وبالتفصيلات الدقيقة عن الحياة العملية، عدا رشاقة الأسلوب وسهولة العبارات وحسن الترتيب. وهى بهذه المزايا تعتبر فى مقدمة

---

[1] ط٢/ دار العلم للملايين/ ١٩٨٥م/ ٤٧٠/ هـ٢.

[2] ط٢/ مكتبة مينمنة/ ١٩٥٩م/ ٩٣- ٩٧.

الآثار العربية التى تستحق الخلود فى تاريخ الفكر البشري". وبالمثل تؤكد مادة "روبنسون كروسو" فى "زُهْلُول- الموسوعة العالمية المجانية" الضوئية أن رواية ديفو مستوحاة من "حى بين يقظان"، إذ نقرأ فيها أنها "قصة أوروبية مأخوذة عن قصة حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسي"، وأنه "بعد ترجمة قصة "حى بن يقظان" بدأ الغربيون ينسجون على منوالها. ولعل أهم ما نسجوه قصة "روبنسون كروسو" للكاتب دانيال ديفو". ورغم هذا فإن كاتب المادة لا يُغْفِل الفروق التى بين الروايتين، بل يرصدها مُعْلِيًا فى الوقت ذاته من شأن الرواية العربية على نظيرتها الإنجليزية.

وأما د. محمد غنيمى هلال فيستبعد أن يكون لـ"حى ين يقظان" تأثير على قصة ديفو لأن التشابه بينهما ظاهرى ضئيل كما يقول، علاوة على أن لقصة "روبنسون كروسو" أصلا تاريخيا يتمثل فى مغامرات البحار الإسكتلندى سلكيرك، التى كتب عنها زميل له من البحارة عام ١٧٠٩م، أى قبل ظهور "روبنسون كروسو" بعشر سنوات[1]. ومع هذا نرى هلال فى ذات الوقت يؤكد أن قصة الكاتب الأسبانى بلتاسار جراثيان: "الكريتيكون"، التى ظهرت أجزاؤها الثلاثة تباعا فى خمسينات القرن السابع عشر، والتى تشبه قصة ابن طفيل، لا بد أن تكون قد تأثرت بهذه الأخيرة، إذ من المؤكد فى رأيه أن يكون

---

[1] انظر كتابه: "الأدب المقارن"/ دار نهضة مصر/ ٢٣٥/ هـ٣

جراثيان قد اطلع على قصة ابن طفيل رغم أنها لم تكن قد ترجمت بعد إلى أية لغة أوربية لأنه من الصعوبة بمكان أن نرجع هذا التشابه بين العملين إلى مجرد المصادفة" .

وهناك أيضا مدنى صالح، الذى يخلص فى مقاله المنشور فى العدد التاسع من مجلة "الأقلام" العراقية إلى أن قصة روبنسون كروسو هى "عنصر من عناصر بيئة دى فو الثقافية"، وهو ما يؤيده فاروق سعد صاحب كتاب "حى بن يقظان" لابن طفيل. وهذا يعنى أن ذينك الكاتبين يريان أنه لا وجود لأية صلة أو عملية تأثير وتأثر بين قصة ابن طفيل وقصة دانيال ديفو. وبالمثل فإن كاتب مادة "Robinson Crusoe" فى موسوعة "إنكارتا" الإنجليزية (ط٢٠٠٩م) لا يشير إلى أية صلة بين العملين مكتفيا فقط بلفت النظر إلى ما قيل عن تأثر ديفو فى كتابة "روبنسون كروسو" بما وقع لألكسندر سلكيرك من مغامرات حقيقية قرأها الجمهور على نطاق واسع قبل صدور روبنسون كروسو. ونفس الشىء يردده كاتب ذات المادة فى النسخة الفرنسية من طبعة ٢٠٠٩م من "إنكارتا"، إذ يرجع مصدر إلهامها إلى ما وقع لألكسندر سلكيرك البحار الأسكتلندى الذى غرقت سفينته واضطر للعيش وحيدا فوق جزيرة من جزر أرخبيل خوان فرنانديز بشيلى. وعلى نفس الشاكلة تمضى "Encyclopædia Britannica: الموسوعة البريطانية" (ط٢٠٠٨م) فى

ترجمتها لديفو، إذ كل ما تقوله فى هذا الصدد هو أن المؤلف قد اعتمد جزئيا على مذكرات بعض الرحالة والناجين من الغرق من أمثال سلكيرك، ثم لا شىء آخر. وتكتفى مادة "دانييل ديفو فى "Encyclopaedia Universalis: الموسوعة اليونيفرسالية" بالقول بأن روايته تستلهم مغامرات البحار الأسكتلندى سلكيرك.

وممن درسوا هذا الموضوع أيضا د. غسان مرتضى، الذى قام بالمقارنة بين العملين مبينًا أنّ التشابه بينهما يثير كثيرًا من الأسئلة حول مدى تأثير الرواية الأولى فى الثانية، وبخاصة أن "حى بن يقظان" تسبق "روبنسون كروسو" فى الظهور بزمنٍ جِدّ طويل، فضلا عن ترجمتها إلى بعض اللغات الأوروبية قبيل ظهور رواية "مغامرات روبنسون كروسو". وقد قام د. مرتضى بتلخيص قصة "حى بن يقظان"، الذى قذفت به الأمواج إلى جزيرة الواقواق الخيالية فتحدث عما ذكره ابن طفيل من ولادة حى غير العادية، وكيف عاش فى كَنَف غزالة أعانته على الحياة كما تعين الأم وليدها، وكيف وعى الفروق الجسدية التى تميزه عن حيوانات الغابة، وكيف أخذ يستر عورته وجسده بأوراق الأشجار، ثم كيف ماتت الغزالة فحاول معرفة سبب موتها لكن دون جدوى، وكيف دفنها كما تفعل الغربان... إلخ. وانتقل الباحث بعد ذلك للحديث عن نمو مدارك ابن يقظان وحواسه واكتشافه للنار وفهمه لمسألة الجسد والروح، وكيف أخذ

يدرك طبيعة الأجسام والأشياء من حوله ويعرف أوضاع الأفلاك والأجرام السماوية، ليتوصل إلى أن هذا كله لا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال. وعندما بلغ ابن يقظان الخامسة والثلاثين تحول حرصه من معرفة المصنوع إلى معرفة الصانع، فزهد فى الطعام والشراب ولجأ إلى كوخ ينفق وقته فى التأمل رغبة فى الوصول إلى مرتبة مشاهدة الحق، إلى أن تمّ له ذلك، ففنى عن ذاته وعن جميع الذوات، ولم يعد فى الوجود إلا الحى القيوم، وبقى كذلك حتى بلغ الخمسين من عمره. ثم أوضح الباحث كيف تعلم حى بن يقظان لغة الكلام من رجل اسمه أسال قدم إلى الجزيرة، وكيف اصطحبه أسال إلى مدينته لإقناع الناس بأهمية التأمل لحياتهم الروحية، لكن ذلك لم يُجْدِ معهم للنقص الذى كان فى فطرتهم، فرجعا معًا إلى جزيرة الواقواق حيث أخذا يعبدان الله بطريقتهما حتى أتاهما اليقين.

ثم ينتقل الباحث إلى تلخيص رواية "روبنسون كروسو" فيقول إنها تتحدث عن مغامرات روبنسون كروسو، الذى ترك بيته وأهله خلافًا لرغبتهم، ورحل طالبًا الثروة والمغامرة، فصادف أثناء ترحاله مخاطر وأهوالا كثيرة منها غرق سفينته ثم نجاته رغم هذا ووصوله على ظهر موجة إلى اليابسة فى جزيرة ليس فيها إلا الأدغال والوحوش، ليجد نفسه هناك وحيدًا دون رفيق من بنى جنسه، ثم محاولته التأقلم مع حياته الجديدة مستغلا كل ما حوله من

موجودات فى تدبير مأكله وصنع ملبسه، ثم تخليصه بعض العبيد من يد جماعة من آكلى لحوم البشر وتعليمه العبد فرايدى اللغة الانكليزية ومبادئ النصرانية.

بعد ذلك يورد الباحث أوجه الاتفاق بين حى بن يقظان وروبنسون كروسو على النحو التالى: ١- رَمَى القدر كلا من حى وروبنسون فى جزيرة لا حياة فيها لبنى البشر. ٢- اضطر كل منهما أن يتأقلم مع حياته مستخدمًا أدوات بسيطة ليحمى نفسه. ٣- يلتقى حى بأسال، ويلتقى روبنسون بفرايدى، فيعلّم أسال حيًّا الكلام، ويعلّم كروسو فرايدى اللغة الإنكليزية ومبادىء النصرانية. ٤- حاول ابن طفيل أن يؤدى عبر حى بن يقظان رسالة مفادها أن الانسان قادر بفضل حواسه وعقله وحدسه الوصول إلى حقائق الكون كلها ومعرفة الله بعقله المحض دون الاستعانة بالأديان، أما دانييل ديفو فأراد إيصال رسالة مختلفة بعض الشىء. ٥- تتفق القصتان فى كثير من الجوانب الفنية وفى تعليل الحدث واعتماد الحوار الداخلى وتصوير شخصية نامية متطورة.

ثم يسرد المحاضر أوجه التباين بين الروايتين، وهى كما يلى: ١- وصل حى إلى الجزيرة وعمره لم يتجاوز اليوم الواحد، على حين وصل كروسو إليها وهو شاب. فتأقلم الأول مع واقعه ذاتيا وبالفطرة، فيما استخدم كروسو خبراته السابقة فى عملية التأقلم. ٢- حاول الكاتبان إبراز مقدرة الانسان فى

التأقلم مع الطبيعة والحياة دون مُعِين، لكن ابن طفيل كان هدفه رمزيا يتمثل فى إبراز مقدرة الانسان على التطور ماديا وروحيا دون شرائع مسبقة، أما ديفو فلم يكن هدفه سوى عرض جانب المغامرة بما تنطوى عليه من تصعيد قصصى وتشويق. ٣- لقاء حى بأسال كان لقاءً نديًّا، بخلاف لقاء روبنسون بفرايدى، الذى كان لقاء مصلحة ومنفعة. ٤- فى رواية "حى بن يقظان" تكثر الأفكار الفلسفية مما أضعف عنصر التشويق والاثارة، على عكس رواية "روبنسون كروسو"، التى اتسمت بالإحكام الفنى. ٥- الجانب المهم فى شخصية حى هو التأمل، أما فى شخصية روبنسون فهو الاكتشاف وبناء السلوك وفقًا لهذا الاكتشاف. ٦- تحدث ابن طفيل فى روايته بضمير الغائب، أما رواية دانييل ديفو فقد كتبت بضمير المتكلم مما أعطاها واقعية أكثر. ٧- رواية ابن طفيل رواية عقلية فكرية ليس فيها وجود للعناصر الاجتماعية الأندلسية أو الأسبانية، بخلاف رواية ديفو، التى تمجد الحياة الاجتماعية وصراع الانسان عبر العمل للسيطرة على الطبيعة.

وهنا يطرح المحاضر السؤال التالى: هل أثرت رواية "حى بن يقظان" فى "روبنسون كروسو"؟ ليجيب موضحا أن الترجمتين اللاتينية والإنجليزية لرواية "حى بن يقظان" قد ظهرتا قبل إصدار ديفو روايته بأكثر من عشرين سنة. فمن المحتمل إذن أن يكون ديفو قد اطلع على عمل ابن طفيل، وهو أمر قد

يؤكده اهتمام الأوروبيين عموما بالثقافة العربية آنذاك. لكن المسألة ليست مسألة عواطف ورغبات. لذا لا بد من التروى قبل إطلاق الأحكام. وإضافة إلى ذلك ثمة اعتقاد متداوَل بين بعض الباحثين مُؤَدَّاه أن ديفو قد اعتمد فى روايته على حادثة حقيقية معروفة وقعت لبحار أسكتلندى يدعى: ألكسندر سلكيرك، وهو ما يعنى أن تأثر ديفو بالرواية العربية ضعيف جدا[1].

وبخصوص اتهام ديفو بالسطو على ما كتبه سلكيرك البحار الأسكتلندى الذى وقع له مثل ما وقع لبطل ديفو ثم مقال كتبه د. نجم عبد الكريم بعنوان "روبنسون كروسو: سرقة أدبية فى سياق المغامرة!" نشرته صحيفة "الشرق الأوسط" العربية اللندنية بتاريخ الاثنين ١١ أكتوبر ٢٠٠٤م جاء فيه: "ينسب الكثير من النقاد العرب أن رائعة الكاتب الإنجليزى دانييل ديفو: "مغامرات روبنسون كروسو" إنما هى مأخوذة من تراث عربى، واعتبروها عبارة عن سطوٍ أدبى على قصة ابن طفيل: "حى بن يقظان". وهناك من يقارن بين أحداثها وبين رحلات السندباد. وفيهم من نسب مغامرات روبنسون كروسو إلى تأثرها ببعض الرحالة من العرب! ومما لا شك فيه أن الأعمال الأدبية العظيمة لا تنبع من فراغ، ولا يلزم أن يخوض الكاتب تجربة أبطال روايته أو

[1] انظر متابعة نجاح حلاس فى جريدة "العروبة" الحمصية يوم الأحد ٥/ ١١/ ٢٠٠٨م بعنوان "فى محاضرته: "حي بن يقظان بين التفرد والملامح النمطية" الدكتور غسان مرتضى أجرى مقاربة مقارنية مع رواية روبنسون كروسو".

مسرحيته، فهناك دائما مؤثرات خارجية تدفع بالعمل الإبداعى إلى البروز وفقا لمدى قدرات وإبداعات ذلك الكاتب فى تصويرها .

لكن السيدة سلكيرك التى التقيتها مصادفة فى مناسبة اجتماعية بمدينة مارلو الإنجليزية تزعم بعكس ذلك تماما، فهى ترى أن دانييل ديفو مؤلف رواية "مغامرات روبنسون كروسو" ما هو إلا كاتب أفّاق وسارق لأفكار غيره، وكان جزاؤه أن مات فقيرا عندما دُفِن فى مقابر الفقراء . وتزعم السيدة سلكيرك أنها تحتفظ بالأدلة الأكيدة على حقيقة شخصية روبنسون كروسو لأنه جدها الرابع، واسمه "ألكسندر سلكيرك" . والسيدة سلكيرك هذه قد تجاوزت العقد الثامن عمرها، لكنها تتمتع بذهنية متوقدة، وتتحدث بحماس عن جدها الذى تعتبره الأب الحقيقى لرواية "مغامرات روبنسون كروسو" . . . " .

وتعقيبا على ما قالته السيدة البريطانية نذكر نبذة عن جدها البعيد وعن الجزيرة التى عاش فيها على مدى عشرات الشهور وحيدا دون أنيس من بنى الإنسان، فنقول إن ألكسندر سلكيرك (١٦٧٦– ١٧٢١م) رجل أسكتلندى عاش وحيدا فى جزيرة معزولة من جزر شيلى بأمريكا الجنوبية، فكانت له تجربة مثيرة. فعندما كان يعبر البحار الجنوبية عام ١٧٠٤م فى حملة للقرصنة البحرية تشاجر سلكيرك مع قبطان السفينة. وبناءً على طلبه تُرِك فى إحدى جزر خوان فرنانديز على بعد حوالى ٦٤٠ كم غرب تشيلى، فعاش هناك

وحيدًا لمدة ٥٢ شهرًا حتى أنقذه القبطان وودز روجرز. وقد سجل القبطان تجارب سلكيرك فى كتابه: "رحلة ممتعة حول العالم"، كما وصفها القبطان إدوارد كوك فى كتابيه: "رحلة إلى البحار الجنوبية" و"حول العالم". أما اسم رواية ديفو فمأخوذ من اسم إحدى الجزر التابعة لأرخبيل خوان فرنانديز، الذى يتبع دولة تشيلى، وهى: روبنسون كروسو، وسانتا كلارا، وأليجاندرو سلكيرك. ويعيش نحو ٤٠٠ نسمة من المتحدثين بالأسبانية فى جزيرة كروسو، التى اشتهرت بوصفها الجزيرة التى عاش فيها المنبوذ ألكسندر سلكيرك وحيدًا لأكثر من أربع سنوات (١٧٠٤– ١٧٠٩م). وكان الرحالة الأسبانى خوان فرنانديز أول من اكتشف هذه الجزر عام ١٥٦٣م.

والآن، وبعد أن ألممنا جيدا بشكل القصتين ومضمونهما واطلعنا على المقارنات المختلفة بينهما وعرفنا الظروف التى صدرت فيها كل منهما، يمكننا أن نقول: الراجح أنه كان لمغامرة سلكيرك، التى سجلها القبطان الذى أنقذه ونشرها على الجمهور، فضل كبير على رواية ديفو، إذ من المستبعد أن تنشر تلك المغامرات فى العصر الذى يعيش فيه كاتب وأديب وسياسى مثله دون أن يدرى ويتأثر بها فى قصته. وهناك ما يشبه الإجماع على الاعتراف بهذا التأثير. لكن هل هذا يعنى بالضرورة أنه لا مكان لأى تأثير من جانب "حى بن يقظان" فى ذلك العمل؟ لقد تمت ترجمة الرواية الأخيرة إلى الإنجليزية واللاتينية قبل كتابة ديفو روايته بزمن غير قصير، ومن المستبعد أيضا أن يجهل واحد مثله

ذلك العمل الذى شد كبار عصره فى أوربا كلها وأعجبهم إعجابا شديدا وكانت له تلك التأثيرات العميقة على عدد من مفكرى القارة وفلاسفتها مما سقنا بعضه فيما سبق. ومن هنا فإننى أقول بأنه من المحتمل جدا أن يكون ديفو قد تأثر بها أيضا كما تأثر بمغامرات سلكيرك. تأثر بها على الأقل من حيث إنها قد شجعته على أن يحول ما قرأه عن مغامرات البحار الأسكتلندى إلى عمل قصصى وعلى تضمين قصته بعض القضايا الفكرية مثلما اشتملت "حى بن يقظان" على مثل تلك القضايا، وإن اختلف نوع قضاياه عن قضايا ابن طفيل نظرا لاختلاف شخصيتيهما وبيئتيهما وثقافتيهما ووظيفتيهما . . . صحيح أن أحدا من المقارنين لم يستطع حتى الآن، فى حدود علمنا، أن يضع يده على شىء يثبت أن ديفو قد اطلع فعلا على "حى بن يقظان". بيد أن هذا، كما قلت، لا يستلزم بالضرورة ألا يكون الاطلاع قد حدث أو أن التأثر لم يقع، إذ الأمران مختلفان تماما. وعلى هذا فإننى لا أستطيع الجزم القاطع بتأثير القصة العربية على نظيرتها الإنجليزية كما صنع بعض المتحمسين من الباحثين العرب والأوربيين، بل أكتفى بالترجيح نظرا لما ذكرته قبل قليل من الأسباب الحاملة لى على ذلك، بالإضافة إلى وجوه التشابه القوية بين العملين وقرب الزمنين اللذين ظهرا فيهما. أما الجزم بنفى أى تأثير لرواية ابن طفيل على "روبنسون كروسو" فأمر لا يمكننى الإقدام عليه ولا حتى تقبله.

ترجمة البستانى لرواية "روبنسون كروسو"

سوف أتناول بالدراسة فى هذا الفصل ترجمة بطرس البستانى لرواية "روبنسون كروسو" إلى العربية. ودراسة ترجمة كتاب ما إلى لغة من اللغات يمكن أن تكون جزءا من عمل الأدب المقارن، إذ الترجمة هى الطريق الذى يسلكه هذا العمل إلى اللغة المذكورة، ومن خلالها يتعرف أصحاب تلك اللغة إلى ذلك العمل: فإما عرفوه كما هو فى لغته الأصلية على النحو الذى أبدعه صاحبه أو على أقرب نحو لما أبدعه صاحبه، وهذا إن كانت الترجمة دقيقة لأن صاحبها يعرف لغة الكتاب المترجم معرفة وثيقة وبَذَل جهده على نحو مخلص فى نقل ذلك الكتاب إلى لغته، وإما عرفوه على نحو مغاير قليلا أو كثيرا عما هو فى الأصل. وكثيرا ما يكون المترجم متأثرا باعتبارات وظروف خاصة تجعل لترجمته طعما مختلفا بعض الشىء عن طعم الأصل.

وإلى هذه النقطة يشير مثلا فان تيجم بقوله إن لو تورنور، حين ترجم "ليالى يانج"، قد حلت ترجمته محل النص الأصلى فى إيطاليا وأسبانيا، وكانت من فرط التحوير للأصل بحيث يمكن أن يقال إن هذين الشعبين عرفا شيئا آخر غير "ليالى يانج"، ومن ثم كان من الواجب أن نوجه عنايتنا نحو المترجم كعنايتنا

بالمرسِل والآخذ[1]. والمقصود بـ"الليالى" قصيدة الشاعر البريطانى إدوارد يانج Edward Young (١٦٨١- ١٧٦٥م) المسماة: "Thoughts Night"، والتى ترجمت لعدد من اللغات الأوربية، وكانت سر شهرته. أما بيير لو تورنور Pierre le Tourneur فهو مترجم فرنسى (١٧٣٦- ١٧٨٨م) اهتم على نحو خاص بنقل أعمال شكسبير ويانج إلى لغة قومه. ويؤكد ما قاله فان تيجم عن طبيعة ترجمة لو تورنور لقصيدة يانج التى قام بها ما كتبه لو تورنور فى مقدمة تلك الترجمة، إذ ذكر أنه، فى تلك الترجمة، قد استقطر من قصيدة يانج ما من شأنه إمتاع القارئ الفرنسى وإثارة اهتمامه بغض النظر عن الدقة فى نقل الأصل الإنجليزى إلى الفرنسية، مضيفا أن المهم فى الترجمة هو نقل الجوانب الجميلة فى النص بالنسبة لأصحاب اللغة المترجم إليها وتحاشِى النواحى الرديئة فى نظرهم، إذ الأذواق مختلفة بين الأمم والشعوب والآداب. وهذا هو نص كلامه بالإنجليزية منقولا من مقدمته للترجمة المذكورة فى ١٧٦٩م:

"It has been my intention to distill from the English Young a French one to be read with pleasure and interest by French readers who would not have to ask themselves whether the book they were reading was a copy or an original. It seems to me that authors who write in foreign languages should be translated in this way since they are not always models of taste, even if

---

[1] انظر فان تيجم/ الأدب المقارن/ دار الفكر العربى/ ٦٥ (دون ذكر التاريخ أو اسم المترجم).

their superior literary merit is not in doubt. If we translated this way we would assimilate all that is good in our neighbors and reject the bad we have no need to read or know of".

ويضيف تيجم أنه "كثيرا ما يساء فهم المؤلفات وتُحَرَّف عن معناها الحقيقى لبعد الشُّقَّة واختلاف المحيط. وقد يكون محدِث التأثير هو الكاتب، أعنى شخصيته الأخلاقية والعاطفية، لكن لا شخصيته الحقيقية بل صورته القائمة فى أذهان الأجانب. وهى صورة تختلف عن الواقع فى كثير من الأحيان. إن مؤلف "الليالى"، هذا الأديب الطموح الخائب الساخط، أصبح فى خيال أوربا يانج الحكيم الكاهن الجليل كاهن الليل والقبور"[1].

وفى موضع آخر من الكتاب يعود تيجم إلى مسألة الترجمة ودروها فى تعريف الأمم الأجنبية بمؤلف أو كتاب ما مشيرا بحق إلى أنه من الصعب أن تجيء الترجمة دقيقة: فهناك مترجمون يحذفون صفحات أو عبارات من الكتاب المترجَم إما لأن الناشر يحصرهم فى حجم معين للكتاب لا ينبغى أن يتجاوزوه وإما لخوفهم من الجمهور أو رجال السياسة والدين أو مراعاة لمشاعرهم أو كسلا منهم واتباعا لهواهم، وإما لأن المترجم ضعيف المعرفة باللغة التى يترجم منها. وقد وقف تيجم هنا أيضا إزاء ما صنعه لو تورنور عند ترجمته "ليالى" يانج فقال إنه قد أضاف أربعا وعشرين ليلة إلى ليالى يانج التسع، وحذف

---

[1] فان تيجم/ الأدب المقارن/ ٧٢– ٧٣.

صفحات برُمَّتها، وغَيَّر فى الصفحات التى أبقى عليها، ونقل وأدخل وأبدل، هادما بهذه الطريقة البناء الذى شاده الشاعر الإنجليزى ومقدما بدلا منه بناء آخر على هواه[1].

وبالمناسبة فكثيرا ما تصرف المترجمون العرب الرواد فى العصر الحديث لدى نقلهم شيئًا من الروايات الأجنبية، إذ تراهم يلخصون العمل الروائى، ويحولون الحوار إلى سرد، ويغيرون ترتيب الحوادث بل يغيرون الحوادث ذاتها، ويضيفون أشعارا عربية إلى النص. . . وغير ذلك مما يعرفه كل منه له إلمام بذلك الموضوع. وقد درستُ صياغة المنفلوطى لرواية "ماجدولين" الفرنسية فوجدته قد تصرف فيها تصرفا هائلا لا يخطر على البال. ويجد القارئ فصلا كاملا طويلا عن هذا الموضوع فى كتابى: "فصول فى الأدب المقارن والترجمة". بل إن البستانى، فى مقدمة ترجمته للرواية التى بين أيدينا، يصرح بأنه قد حرص على تهذيب الرواية عند ترجمتها، وإن لم يحدد لنا طبيعة ذلك التهذيب.

وفى ضوء هذا ننظر فى ترجمة بطرس البستانى، وإن كنت لن أقف عند هذا فقط بل سأدرسها أيضا من الناحية اللغوية فى حد ذاتها. وأولى الملاحظات التى تنبهتُ إليها أن البستانى يكتب اسم بطل الرواية: "روبنصون كروزى" بالصاد فى الاسم الأول بدل السين، وبالزاى والياء فى الاسم الثانى

---

[1] المرجع السابق/ ١٦٦– ١٧٠.

بدل السين والواو، إذ هو فى الإنجليزية: "روبنسون كروسو"، وإن كان الشائع عندنا هو "كروسو"، ولا أدرى لماذا . وكنت أنا أيضا أنطقه بالزاى، ثم وجدت أن أصحاب اللغة يقولون: "كروسو" فغيرت نطقى تبعا لهم. وبالمناسبة فكثيرا ما يتحور نطق أسماء الأعلام عند انتقالها إلى لغة أجنبية. وفى مصر مثلا نقول: "أباظة" للأسرة المعروفة التى منها "الدسوقى أباظة" و"عزيز أباظة" و"ثروت أباظة" عوضا عن "الأفخاز" . كما ننطق الاسم الأول للكاتبة البوليسية البريطانية المشهورة مرة: "أجاثا"، ومرة: "أجاتا"، ومرة ثالثة: "أجاذا (كريستى)"، مع تحويل الذال عادة إلى زاى. وبالمثل ننطق اسم الفيلسوف الإغريقى المعروف مرة: "أرسطو"، وأخرى: "أرسطوطاليس"، مثلما نقول فى اسم صاحب "الإلياذة والأوديسا": "هوميروس وهومير وهومر"، واسم البحار الإيطالى الشهير الذى اكتشف قارة أمريكا: "كولمبوس وكولمب" .

كما كانت الأسرة البريطانية التى نزلتُ عندها فى هستنجز أثناء تعلمى اللغة الإنجليزية أول ما سافرت إلى المملكة المتحدة منتصف سبعينات القرن الماضى تنادى الشاب الإيرانى الذى كان ينزل معى عندها بـ"إشماعِل" بحذف الياء وتحويل السين إلى شين مع وضع النبر على المقطع الأول لا الأخير. والطريف أن هذا الاسم، وبهذا الشكل، موجود فى الرواية Ishmael، وإن كان البستانى فى الترجمة قد رده إلى أصله العربى بالسين. ومعروف أن

"إبراهيم" مثلا تتحول عند السلاف إلى "إبراهيموفيتش"، و"أحمد" فى بعض البلاد الإفريقية إلى "أمادو"، و"محمد" إلى "مامادو"، و"يحيى" إلى "يايا"، و"بنت" إلى "بنتو". كذلك ألفيت البستانى يكتب اسم الغلام الذى كان مع كروسو عند سيده المغربى هكذا: "كسار" بدءا من ص٢٠ مع أن الصيغة الإنجليزية هى "Xury". ولا أدرى كيف كان اسمه بالعربية، ولا أدرى أيضا كيف خمن المترجم أنه "كسار". كذلك لا أستطيع أن أتذكر أين قرأت أن اسمه هو "قصورى"!

ومن هنا ترانى أضحك حين أجد من غير المسلمين من يخطّئ القرآن لقوله مثلا فى "سيناء": "سينين". إن القرآن الكريم إنما جاء بلسان قوم النبى عليه السلام، ولسانهم هو العربية، وفى هذا اللسان تُنطَق تلك الكلمة بعدة طرق منها "سَيْناء" و"سِيناء" و"سِينا" و"سينين". ويستخدم القرآن منها الصيغة التى تناسب المقام صوتيا. وهناك أيضا "جبريل وجبرائيل وجبرئيل وجبرال وجبرين".

بل إن عندنا فى اللغة الإنجليزية عددا كبيرا جدا من الصيغ الخاصة باسم النبى "محمد" عليه الصلاة والسلام، وكلها بعيدة عن الصيغة العربية، فضلا عن أن بعضها يهدف إلى العيب عليه وتشويه صورته صلى الله عليه وسلم. وهذه هى كما أوردها معجم أكسفورد التاريخى الكبير: " maumet, mahimet, maumete, mawmete, -med, -mat,

maunmet, maummet, mamet, maumett, mawmette, mowmet(te, maw□mette, maumette, mawmot, mammot, mawmett, mom(m)et, mammelt, mammet, mawmet, maumet. β. momenet(te, mamenet, maument, mawment, mamnet, mamente, mawmente, -mentt, mamant" .

وما دمنا فى "سينا" فينبغى أن نعرف أن اسم "ابن سينا" الفيلسوف المسلم يصير على ألسنة الإنجليز مثلا: "أفيسن"، وابن رشد إلى "أفيروس"[1]. ذلك أن الجهاز النطقى عند أصحاب لغة ما يختلف عنه عند أصحاب اللغات الأخرى، إلى جانب اختلاف التقاليد والأذواق اللغوية.

وقد لاحظت كذلك أنه يقول: "صبانيا"[2] (أسبانيا)، و"أسبانيولى" (أسبانى)، و"إيطاليانى" (إيطالى)، و"فلمنكيون" (هولنديون)، و"البورتوغال" (البرتغال)[3]، و"لسبون" (لشبونة)، و"دُوفار" (دُوفَر)، و"جرمانيا" (ألمانيا)، و"أمركا" (أمريكا)، و"برازل" (البرازيل)، و"غوينيا" (غينيا)، و"سنيغال"

---

[1] فى كلا الاسمين بالفاء الخشنة، التى درجنا فى مصر على تمييزها عن الفاء اللينة بوضع ثلاث نقاط فوقها بدلا من نقطة واحدة.

[2] وقد كتبها فى بعض المواضع هكذا: "سبانيا" بالسين لا بالصاد (ص١٧١- ١٧٢ مثلا).

[3] فى كتب التراث "برتقال" أو "البرتقال" بالقاف وبدون واو. وقد استقررنا فى العصر الحديث على أن نقول: "البرتغال" بالغين وبدون واو، وإن كنت أذكر أننى كنت أجدها فى بعض الكتب الحديثة االمبكرة "البرتقال" كما كان القدماء يسمونها.

(السنغال)، و"السودان" (الزنوج)، و"سكتلند" (أسكتلندة)، و"نهر أمازون" (نهر الأمازون)، و"جزائر كاريبى" (جُزُر الكاريبى)، و"بونوس إيراس" (بيونس أيرس)، و"مكسيكو" (المكسيك)، و"ورجينيا" (فرجينيا)، و"القطبة الشمالية" (ص٢٧٩) . ولعل القارئ تنبه إلى أن البستانى يحذف "أل" التعريفية من "البرازيل" و"السنغال" و"الأمازون" و"المكسيك" و"الكاريبى" . كما ألفيته يقول: "أوربَّوِىّ" بدلا من "أوربى" . وكنت أرى بعض الكتاب يكتبونها: "أوربَّاوى" . وأذكر فى هذا الصدد أننى، حين كنت أكتب رحلتى إلى جامبيا وأنا هناك فى عاصمتها: بانجول، قد قلت فى البداية: "جامباوىّ" على سبيل النسبة إلى تلك البلاد، ثم غيرتها بعد هذا إلى "جامبىّ" كما تقضى القواعد الصرفية دون توجيه أو تمحُّل لا يُعْجِزان من يريدهما . والواقع أننى لا أعرف القاعدة التى تنظم إدخالنا "أل" على أسماء بعض البلاد وتنكُّب ذلك مع الأسماء الأخرى. فنحن نقول مثلا: "العراق واليمن والأردن والبحرين والسودان والمغرب والجزائر والصومال والسنغال والحبشة والكونغو والنيجر والهند والصين والتبت واليابان والواقْواق والبرتغال والسويد والنرويج والباهاما والأرجنتين والمكسيك والبرازيل"، ومن الكتاب من يقولون مثلا: "الباكستان والروسيا والإكوادور والهندوراس" إلى جانب كتاب آخرين يُعَرُّونها من الألف واللام أيضا، على حين نُخْلِى عشرات أسماء البلاد الأخرى من هذه الأداة. ومرة

أخرى لا أستطيع أن أخمن السبب فى ذلك. والطريف أننا كثيرا ما نخالف اللغات الأوربية فى هذا الاستعمال سلبا وإيجابا.

ويمكن تفسير ما صنعه البستانى مع أسماء تلك الدول والمدن بأننا كنا حديثى عهد بها، فلم نكن قد استقررنا على شىء محدد بشأنها، وكان كل كاتب يجتهد فى نطقها وكتابتها طبقا لما يرى. وكان الطهطاوى مثلا، وهو من معاصرى البستانى، يسمى "أفريقيا": "أفريقة"، والزنوج: "السودان"، و"الخزر": "الخوزار"، و"الولايات المتحدة": "الإيزاتونيا" (تحريفا لاسمها بالفرنسية)، و"المحيط الأطلنطى": "البحر الأطلنطيقى"، و"الروس": "الموسقو"، و"بلاد البنغال": "إقليم بنغالة"، و"أمريكا": "أمريقة"، و"إنجلترا": "إنكلتيرة"، و"كشمير": "قشمير"، و"البرتغاليون": "البرتوغاليون"، و"بومباى": "بنباى"، و"الدلتا": "الدلطة"، و"اليابانيون": "اليابونية"، و"إقليم الدكن": "إقليم الدقان"، و"نهر الفولجا": "نهر وُلْغا" (وكان فى الدوحة فى أوائل هذا القرن مطعم اسمه "الولغا" يديره ناس من وسط آسيا تعشيت فيه مرتين).

ومن هذه الملاحظات أيضا أن المترجم قد غير عنوان الرواية من "روبنسون كروسو" إلى "التحفة البستانية فى الأسفار الكروزية" مُتْبِعًا إياه بعنوان آخر تحته قائلا: "أو رحلة روبنصون كروزى". وكانت العادة فى كثير من الأحيان فى تلك الأيام استعمال السجع فى العنوان والتصرف فيه على هذا النحو كقول رفاعة رافع الطهطاوى مثلا فى ترجمة عنوان رواية القس الفرنسى

فنلون: "مغامرات تليماك" بـ"مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك"، وعنونة محمد عثمان جلال أشعار لافونتين الشاعر الفرنسى المسماة: "خرافات لافونتين" بـ"العيون اليواقظ فى الحكم والمواعظ" . . . وهكذا . ولم يكن هذا منحصرا فى العناوين المترجمة وحدها بل ينسحب على عناوين الكتب المؤلفة أيضا كما فى كتاب الطهطاوى عن رحلته إلى فرنسا : "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" . ولا تنس تحول السين هنا فى نهاية اسم العاصمة الفرنسية حسبما ينطقه المصريون إلى زاى، وإن كان أهل فرنسا يقولون: "بارى" فقط دونما سين أو زاى، وكفى الله الفرنسيين القتال. ومثل ذلك ما صنعه أحمد فارس الشدياق فى كتبه التالية: "الساق على الساق فيما هو الفارياق" و"الواسِطَة فى أحوال مالِطَة" و"كَشْف المخبَّا عن فنون أوربَّا" .

وهذا كله امتداد لما كان كثير من المؤلفين العرب القدماء، وبخاصة فى العصور المتأخرة، يصنعونه فى عنوانات كتبهم مما يعرفه القاصى والدانى . ويسخر بعض الناس من تلك الظاهرة فيقولون على سبيل التظرف إن فلانا ألف كتابا فى الخطب المنبرية سماه: "أكل الهريسة فى الخطب الحديثة"، أو إن علانا أراد أن يعرِّف الناس برأى الدين فى ارتداء رباط الرقبة فوضع رسالة فى ذلك الموضوع عنوانها: "القول البتّة فى تحريم الكرافتة" . ومن ذلك أن أحدهم، وكان يضيق بلامبالاة الطلبة بالعلم، وعلم النحو بالذات، قد اقترح ضاحكا على أستاذ جامعى أن يغير عنوان كتابه من "تحفة الأحباب فى النحو والإعراب" إلى

"ضرب القبقاب فى رؤوس الطلاب" . وكنت الليلة أقرأ مقالا لشيخ سلفى فى الهجوم على سلفى آخر بإحدى الصحف المصرية عنوانه: "الرد الصارم والبتار على المدلس الكاذب نادر بكار"، بغض النظر عن السياق الذى ظهر فيه المقال، فهذا ليس من شأننا لا سلبا ولا إيجابا، بل هو مجرد استشهاد ليس إلا.

حتى أنا (وأعوذ بالله من قولة: "أنا"، إذ لا يقول: "أنا" إلا إبليس) لم أَنْجُ من هذه اللُّوثة، فقلت فى عناوين بعض كتبى أو فصولى: "فنون الأدب فى لغة العرب" و"المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية" و"جعيط نطاط الحيط" و"إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية" . . . وهكذا. وسر التسمية الأخيرة التى قد تبدو عجيبة وغريبة على ذهن القارئ هو أن أحد الأساتذة المصريين الذين يعيشون فى أوربا ويعملون فى جامعاتها قد وضع رسالة بالفرنسية حصل بها على درجة الدكتورية فى أواخر حياته هاجم فيها ابن إسحاق متهما إياه بأنه ألف سيرة للنبى قوامها التدليس والتزييف، ووقعت الرسالة فى يدى عن طريق صديق للطرفين، فلما قرأتها استفزتنى، وزادنى استفزازا ما كتبه المؤلف فى أحد خطاباته لى قائلا إن رسالته عن كتاب ابن إسحاق فى سيرة النبى عليه السلام سوف يكون لها عند القراء وقع القنبلة النووية. يقصد أنها سوف تدمر الكتاب تدميرا وسوف تشفى المسلمين مما جاء فيها عن النبى عليه السلام وتبين لهم وقائع السيرة الصحيحة، فوجدتنى أقول فى عنوان كتابى المذكور ما قلت. والواقع أن المؤلف نفسه لا ابن هشام هو الذى زَيَّف ودَلَّس

وأتى بكلام لا يمكن أن يخطر على عقل بشر ولا قلبه ولا خياله. ومن هذا الوادى الفصل الطويل الذى علقتُ به على ما كتبه هشام جعيط الباحث التونسى فى السيرة النبوية، إذ ألفيته يعتسف السبيل فيما كتب عن النبى وحياته وأعماله صلى الله عليه وسلم ويسىء إليه إساءة بالغة تدل على سوء طوية مع جهل وسطحية وعجز عن قراءة النصوص، فأردت أن أُرِىَ القراء وأُرِيَه هو قبل القراء سُخْف ما صنع وضلاله، فقلت ما قلت.

وقد لاحظت فى بعض المواضع على الأقل من ترجمة البستانى لرواية دانييل ديفو أنه، كلما ورد ذكر المسلمين مثلا بلفظ مسىء أو فى سياق غير طيب، غير البستانى الكلمة المسيئة أو التى يمكن أن تثير حساسية كما هو الحال عندما قال كروسو إنه طلب من كسار أن يحلف بماهوميت (و"ماهوميت" كلمة مسيئة يطلقها أجلاف الأوربيين على النبى الكريم) وبرأس أبيه أن يكون مخلصا له، لكن البستانى حول ذلك إلى أنه قد طلب منه أن "يحلف له بقاعدة دينه" (ص٢٠)، ولم يأت لا باسم الرسول ولا رأس أبى الغلام فى الترجمة، وكقوله أيضا إنه حينما كان يعيش على الجزيرة المهجورة ترك فى البداية شاربيه ينموان طويلا ويتهدلان على جانبى شفتيه كـ"الشوارب المحمدية: Mahometan whiskers" التى رآها فى وجوه "بعض الأتراك: some Turks" فى سلى بالجزائر، فغيَّر البستانى العبارة إلى "شوارب بعض العرب

الذين رأيتهم فى الجزائر"، ضاربا صفحا عن كلمتى "المحمدية" و"الأتراك" جميعا (ص١٥٠) ومتجاهلا أن المؤلف قد نص نصا على أن المغاربة (the Moors) لا يُعْفُون شواربهم على هذا النحو.

وأغلب الظن أن هذا صورة من تهذيب الرواية الذى ذكر فى المقدمة أنه حرص على مراعاته فى ترجمتها. ذلك أنه كان من رعايا الدولة العثمانية، فلم يشأ أن يثبت فى الرواية شيئا يمكن أن يفهم على أنه إساءة إلى تلك الدولة. وغنى عن القول أن كلمة "Turks" هنا إنما يُقْصَد بها المسلمون بوجه عام لا الأتراك وحدهم، إذ إن ذلك المعنى هو أحد مدلولات اللفظة[1]. وقد اسْتُعْمِلَتْ عندنا منذ قرون فى كتاب "مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، الذى ألفه الشهاب الحجرى فى القرن السابع عشر، وهو أندلسى موريسكى تظاهر بالنصرانية فترة وهو فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، ثم فر إلى المغرب وكشف عن إسلامه، وكتب ذلك الكتاب يصور فيه بعض فصول حياته فى الأندلس وغيرها، مستخدما كلمة "الأتراك" على لسان كبير القضاة فى مدينة روان بفرنسا بمعنى "المسلمين"، إذ قال له القسيس: "أنتم التركيون تصنعون كذا وكذا"[2]، وبطبيعة الحال لم يكن الشهاب الحجرى تركيًا، علاوة على أنه كان

---

[1] فى قاموس أكسفورد التاريخى الكبير: 3.a Often used as = Muslim. (The Turks being to Christian nations the typical Muslim power from c 1300).

[2] انظر الشهاب الحجرى/ رحلة أفوقاى الأندلسى- مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب/ تحرير د. محمد رزوق/ دار السويدى بأبو ظبى والمؤسسة العربية للدراسات

يعيش آنذاك فى بلاد المغرب بعد فراره من الأندلس لا فى تركيا، بل المقصود المسلمون. وهذا واضح من السياق، إذ كان الحديث عن المسلمين. بل لقد ذكر فى موضع آخر من الكتاب أن أهل البيت الذين ضَيَّفُوه فى باريس قد قدموه للحاضرين على أنه "تركى"، ثم عقب قائلا بصريح العبارة إن الفرنج لا يقولون عن المسلم إلا أنه تركىّ[1]. وفى موضع ثالث تسأله فتاة أوربية: أنت تركى؟ (تقصد: هل أنت مسلم؟)، فيقول لها: مسلم، الحمد لله[2].

وهناك ألفاظ وردت فى ترجمة الرواية لم تعد مستعملة الآن كـ"ثانى رئيس" (ص١٤) مثلا ترجمةً لرتبة "الملازم"، لكن لم يُكْتَب لها الذيوع. وثم غلطة وقع فيها بطرس البستانى حين عامل اسم جنس على أنه اسم علم، فقد أشارت الرواية إلى غلام كان عند سيد بطل الرواية بكلمة "a young Maresco" و"the youth the Maresco"، فظن البستانى أن الغلام اسمه "فورسكو"، مرتكبا خطأين بهذه الطريقة: الأولى أن الحرف الذى أمامنا ميم لا فاء، كما أن الكلمة ليست اسم علم بل اسم جنس. وقد بحثتُ عن الكلمة فى مظانَّ متعددة فلم أجدها تعنى شيئًا، فاستبدلتُ بحرف الـ"a" حرف الـ"o" لتصير الكلمة "Moresco"، وهو المسلم الأندلسى الذى لم يبارح

والنشر ببيروت/ سلسلة "ارتياد الآفاق"/ ٢٠٠٤م/ ٥٣- ٥٤. ولست بحاجة إلى النص على أن كلمة "التركيون" كان ينبغى أن تكون منصوبة، إذ هى فى سياق اختصاص.

[1] ص٦٥. وكرر نفس الكلام ص٨٦- ٨٧.

[2] ص٧٣.

بلاده بعد سقوط غرناطة فى يد النصارى المتعصبين الذين ضيقوا على المسلمين وشرعوا يقتلونهم أو يهجّرونهم أو يسجنونهم ويعذبونهم، فأخفى هؤلاء إسلامهم وباتوا يمارسون شعائرهم سرا حتى لا تنالهم يد محاكم التفتيش المجرمة سفاكة الدماء. وإذن، وهذا هو ما أرجحه ولكنى لا أقطع به، فالمقصود غلام من هؤلاء المسلمين ممن نزحوا إلى العُدْوة الإفريقية للبحر المتوسط فى بلاد المغرب بعد سقوط الأندلس.

ولا شك أن قول البستانى: "الأرواح" (ص١٠٦، ٢٣٢) فى مقابل "spirits" بمعنى "المشروبات الكحولية"، أو كما يقول بعض الناس: "المشروبات الروحية"، هو ترجمة شديدة الحرفية وغير واضحة. وعلى كل حال لم ينتشر هذا الاستعمال. كذلك نراه يترجم الـ"parrot" بـ"طير الدر أو الببغال" (ص١٠٧)، مستعملا كلمتين تعطف بينهما "أو"، وكأن أحدهم كان يجلس بجواره فرآه يكتب:"دُرَّة"، فأبدى استغرابه وعدم فهمه لها، فأورد البستانى اختيارا آخر هو "الببغال"، أى الببغاء، وهى صيغة غريبة لا أذكر أنها مرت بى من قبل. وقد نظرت فى معجم البستانى: "محيط المحيط" فتعلمت شيئًا لم أكن أعرفه، وهو أن ثمة عددا من الصيغ لا صيغة واحدة لاسم هذا الطائر، فهو "البَبَغا، والبَبَغاء، والبَبَّغاء، وعند العامة: الدُّرَّة والببغال". وما دمنا قد دخلنا فى العامية فعندنا فى مصر أيضا "البَغْبَغَان"، ولا أحد أحسن من أحد. ولكنى، رغم شعورى بالمنة تجاه القاموس وصاحب

القاموس، لا يمكننى أن أفهم السبب فى تنكبه صيغة "الببغاء" الفصيحة إلى "الببغال" العامية، وهو الرجل اللغوى المعروف، وصاحب المعجمين ودائرة المعارف.

ومن التراكيب التى تلفت النظر، نظرى أنا على الأقل (وأعوذ بالله مرة أخرى من قولة: "أنا")، ترجمة البستانى العبارة التالية: " setting up a ... great pole upon the shore for a mark" هكذا: "نصبتُ عمودا على الشاطئ نظير علامة" (ص١٠٩)، أى كما يقول كثير منا الآن: "كعلامة"، وهو ما يرفضه المتنطسون باعتبار أن "الكاف" علامة تشبيه، ولا تشبيه ها هنا، ومن ثم يقترحون أن نقول مثلا: "بصفتها أو بوصفها علامة". ومثل هذا قوله فى ترجمة " I took my turn, and embraced him as my deliverer": "احتضنت ذلك الرئيس معانقا إياه كمنقذ لى" (ص٢٦٣)، وقوله فى نفس السطر: "قلت له إنى أحسبه نظير إنسان قد أُرْسِل من السماء لكى يخلصنى"، ترجمةً للعبارة التالية: " I looked upon him as a man sent from heaven to deliver me"، وقوله: "لا يمكن أن يأخذهم معه إلى بلاد الإنجليز إلا نظير أَسْرَى مقيدين بالحديد: He could not carry them to England other than as prisoners in irons". ونسى أولئك المتنطسون أننا كثيرا ما نقول: "مثلى لا يمكنه أن يفعل كذا"، والمقصود:

"أنا لا يمكننى أن أفعل كذا"، كما أن الكاف فى "كمثل" على هذا الاعتبار خاطئة مع أن القرآن ذاته، الذى هو أعظم من كل شاهد آخر، يقول: "ليس كمثله شىء"، وكان ينبغى بناء على هذا التنطس أن يقال: "ليس مثله شىء".

ومن هنا أرانى لا أحدث ضجة جراء هذا الاستعمال ولا أخطّئ من يقوله، ومن ثم لا أحاول تصويبه. بل إنى أحيانا ما ألجأ إليه ترجمة لـ" as\ for a mark" وأمثالها. وقد أجاز مجمع اللغة العربية هذا الاستخدام ولم يجد فيه غضاضة. وفى مادة "الكاف" من "معجم اللغة العربية المعاصرة" يضرب د. أحمد مختار عمر المثال التالى: "أنا كباحث أُقرُّ هذا الرأىَ" على مجىء الكاف للتوكيد، ذاكرا أنها زائدة فى هذا الموضع وأمثاله، وهو ما لا أحبذ القول به، إذ كيف تكون مؤكِّدة، أى لها وظيفة، ووظيفة هامة كما نرى، وفى ذات الوقت يقال إنها زائدة؟ والعبرة أنه يرى هذا الاستعمال صحيحا، ويوجهه على أن الكاف فيه مؤكدة، وهذا ما يهمنا.

ويفصل الأستاذ الدكتور القول فى هذه المسألة فى "معجم الصواب اللغوى- دليل المثقف العربى" مؤكدا أن قولهم: "هو كمتحدّث أفضل منه ككاتب"، وإنْ رفضه البعض بحجة استعمال الكاف دون أن يكون هناك تشبيه، هو استعمال صحيح، إذ "يمكن تخريج التعبير المرفوض وأمثاله من عدة

أوجـه أهمها أن الكاف زائدة، كما فـى قوله تعـالى: "لَيْسَ كَمِثْلِه شَـىء" (الشورى/ ١١)، أو على التشبيه حين يكون المشبه به أعم من أن يُراد به المشبه نفسه، والتقدير: "كشخص متحدث"، أو على اعتبار الكاف اسمية بمعنى "مثل" مع نصبها على الحالية"، علاوة على أن مجمع اللغة المصرى "قد وافق فى دورته الثانية والأربعين على التعبير المرفوض بناء على الوجهين الأول والثانى من التخريجات المذكورة" . إلا أن ما يميز البستانى أنه لم يقل: "كعلامة" بل قال: "نظير علامة" . وهذا شىء طريف، لكن من الواضح أنه لم يُكْتَب له الدوران على الألسن وأسنان الأقلام. والطريف أنى وجدت البستانى يلجأ إلى استعمال الكاف دون أن يكون فـى الأصـل مـا يناظرهـا، إذ ترجم: " it became from that time one of my domestics " على النحو التالى: "صرتُ أحسبه (أى أحسب الببغاء) كواحد من العائلة" (ص١١١) .

بل لقد استخدم البستانى كلمة"نظير" عدة مرت رغم خلو النص الإنجليزى منها كما فى الشاهد التالى: "وعملنا لهما فى الخيمة سريرين من مواد كانت عندى، أى من قش الأرز، ووضعنا فوق كل سرير لحافين: الواحد نظير فراش، والآخر نظير غطاء" (ص٢٣٤) . وهذا هو الأصل الإنجليزى، وليس فيه، كما يرى القارئ، شىء يقابل كلمة "نظير":

"we made them two beds of such things as I had, viz., of good rice-straw, with blankets laid upon it to lie on, and another to cover them, on each bed".

ومن هذه التراكيب أيضا قول البستانى: "بَقِيتُ مدة طويلة قبل أن استفقتُ من هذه الحالة" (ص١٠) و"قبلما انفتح لى باب للأمل" (ص٩٣)، وقوله بعد ذلك بصفحة: "وقبلما اضطجعتُ لأنام فعلت شيئا لم أفعله قط"، وقوله (ص١٣٢): "وذلك قبل أن صار عندى خبز من غَلَّتِى بسنة من الزمان تقريبا"، وقوله (ص١٤٢): "بقيت مدة قبل أنْ هدأ روعى وسكن قلقى"، وقوله: "وقبلما حصلتْ لى فرصة لأن أسأله نادانى قائلا:..." (ص٢٢٣)، وقوله: "وقع على الأرض حالا قبل أن وصلتُ إليه" (ص٢٣٠)، وقوله: "ومضت مدة قبلما قدرتُ أن أجعله يتكلم معى" (ص٢٣١)، وقوله: "مضت أشهر قبلما عزمتُ على ذلك" (ص٢٧٦)، مستعملا بعد "قبل أن" أو "قبلما" الفعل الماضى حيث نقول نحن عادة: "قبل أن يفعل". وحسبما أذكر الآن فإننى لم أر هذا الاستعمال أول مرة إلا عند المهجريين ونصارى لبنان. وكنت أظن أن العرب القدماء لا يقولون هذا، لكن تصادف أن وقع فى يدى كتاب الشهاب الحجرى المسمى: "رحلة أفوقاى أو مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، ومؤلفه من أهل القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهو أندلسى الأصل، وعاش فترة طويلة من عمره تحت حكم الأسبان بالأندلس بعد سقوط البلاد بأيديهم والقضاء على الحكم الإسلامى هناك، فألفيته يقول فيه: "وقبل أن جاء كنت تكلمت مع السلطان... فى فداء راهب أسير"، "رأيت مع الشفق، قبل أنْ وقدتُ السراج، قضيبا نزل قدامى من الهواء"، "قبل أن ختمتُه قيل لى

فى النوم: . . . "[1] . صحيح أن أسلوب المؤلف ليس بذاك، لأن فيه ركاكة أحيانا وأخطاء لغوية، إذ لم يكن يعيش بين العرب والمسلمين يمارس العربية على حريته، بل كان يتظاهر بالنصرانية حتى لا يقتل على أيدى السلطات النصرانية المتعصبة هناك، ولم يكن بمكنته ممارسة لغة القرآن بأى حال، وإلا فالقتل الوَحِىُّ هو مصيره، بل لم يكن متاحا له الكتاب العربى أصلا، بَيْدَ أنه شاهدٌ على أن ذلك التركيب كان معروفا فى اللغة العربية قبل العصر الحديث بغض النظر عن أن مستعمله لم يكن من أصحاب الأساليب الصحيحة بَلْهَ الفصيحة. على أية حال هذه هى العبارة فى أصلها الإنجليزى: " it was a great while before I came to myself" . وواضح أن البستانى وأمثاله إنما يجرون حرفيا على سُنَّة الأسلوب الإنجليزى، الذى يستخدم الماضى هنا مقرونا بالماضى البسيط أو التام.

وقد تكرر هذا التركيب فى ترجمة فانديك للكتاب المقدس أيضا كما تبين ذلك الأمثلة التالية: "قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة" (تكوين/ ١٣/ ١٠)، "مِنْ قَبْلِ أن تَقَرَّرَت الجبال" (الأمثال/ ٨/ ٢٥)، "قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فى الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِم قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ" (إرميا/ ١/ ٥)، "قبلما أتتْ أنبأْتُكَ" (إشعيا/ ٤٨/ ٥)، "وباتوا هناك قبل أَنْ عَبَروا" (يشوع/ ٣/ ١)، "قبل أنْ دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتُك"

---

[1] الشهاب الحجرى/ رحلة أفوقاى أو مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب/ ١٢٠، ١٤٢، ١٤٦.

(يوحنا/ ١/ ٤٨)، وإن كان استعمال المضارع فى هذا التركيب موجودا أيضا فى الكتاب المقدس، ولكن بعد "قبل أن". ولعلم القارئ كان بطرس البستانى أحد من اشتركوا فى ترجمة فانديك للكتاب المقدس، التى أوردنا منها الاستشهادات السالفة.

ومن الأمثلة التى استُعْمِل فيها الفعل الماضى بعد "قبلما" لدى المهجريين واللبنانيين قول إبراهيم اليازجى:

وكُنتُ أَحْسَبُ أَنّا أَهلُها، فَإِذا كُلٌّ يَزُمُّ المَطايا قَبْلَما نَزَلا

وجبران:

فَقُلْ: هُمُ البُهْمُ ماتوا قَبْلَما وُلِدُوا أَنَّى دَرَوْا كُنهَ مَنْ يحيا، وما اختَبَرُوا؟

وجرمانوس الشمالى:

فَلَم نَرَ قَبْلَما قد أرّخوها تجلَّتْ مرتموراً فى سِواها

وخليل مطران:

وَمَضَيْتَ تَمْلِكُ أَمرَهُمْ مِنْ قَبْلَما شَبَّ النِّزالُ وَآذَنُوا بِبَوارِ

ورشيد أيوب:

كم بساحات العُلَى قد مَرَحَتْ قبلما الأتراكُ فيها سَرَحَتْ

ورشيد مصوبع:

أسليم، فارقتَ المرابع قبلما حلَّ الفراق لها، وآن المهجرُ

وسليمان البستانى:

خُطَاه فى خُطَى ابن ويلسٍ تقعْ   من قبلما العِثْيَرُ عنهن ارتفعْ

وفوزى المعلوف:

ومتقن أصنامٍ عفا الفن قبلما   عفا ما بها من دقة النقش والحَفْرِ

وأحيانا نلمح ركاكة فى صياغة البستانى كقوله على لسان بطل الرواية عن العرب الذين أسروه: "عاملونى هناك بأقل رداءة مما كنت أحسب" (ص١٦) فى حين أن التركيب العربى المستقيم يقول مثلا: "عاملونى معاملة أقل رداءةً (أو سوءا) مما كنت أتوقع" . وقد ظننت أولا أن ذلك راجع إلى أنه قد ترجم العبارة الإنجليزية حرفيا، لكن سرعان ما استبانت لى براءة الأصل من هذا، ومن ثم فالأصل غير مسؤول عن تلك الركاكة. وهذا نصه: " The usage I had there was not so dreadful as at first I had apprehended" . ولو أراد أن يحافظ على قربه من النص لكان بمكنته أن يقول مثلا: "كانت المعاملة التى تلقيتها هناك أقل ترويعا مما كنت أتوقع فى البداية" .

ومثل ذلك قوله: "لم يهرب قَطُّ أرنب خائف ولا ثعلب جافل إلى وجاره بأكثرِ رعبٍ مما أصابنى لمّا هربت تلك المرة" (ص١٥٥) . وهذا هو الأصل:

… for never frighted hare fled to cover, or fox to earth, "

"with more terror of mind than I to this retreat" . وكما يرى القارئ فالأصل ليس مسؤولا هذه المرة أيضا عن تلك الركاكة. ومن هذا الوادى أيضا قوله: "كنت أصرف أوقاتى بأكثر حظ ولذة من السابق" (ص١٧٩) . وقد أتى النص الإنجليزى هكذا: " which made the ... time pass more pleasantly with me a great deal than it did before" . وفى نفس الصفحة يكرر البستانى هذا التركيب الذى يبدو أنه كان مغرما به فيقول عن ببغائه: "لم يتعلم قَطُّ طائرٌ التكلمَ بأكثرِ وضوحٍ منه" . ويقول أيضا: "كانت الأشجار هناك تكبر بأكثر سرعة من الأشجار فى بلاد الإنجليز" (ص٣٥٠)، ويقول: "ولم يُجْرَ شىء بأكثر نصاحة وشرف مما أُجْرِيَتْ به تلك الوكالة" (ص٢٧٣) . وقد تكرر هذا التركيب الغريب عند البستانى مرارا .

أما قوله: "صرت أتذكر خطاب أبى النبوى" (ص١٦) فهو ترجمة حرفية لعبارة "my father's prophetic discourse"، التى يقصد بها النبوءة لا النبوة، إذ لم يكن أبو كروسو نبيا بطبيعة الحال ولا استشهد بشىء من كلام الأنبياء، بل يقصد أن أباه تنبأ بما سيقع له من مصائب مبكرا، فأتت الأمور كما تنبأ، إذ نصحه بألا يترك البيت ويلتحق بالبحر والسفن، وإلا فلسوف يواجه مشاكل فوق طاقته، ولسوف يندم حين لا ينفع الندم، وهو ما كان. وكان يمكن مترجمنا بكل بساطة أن يقول: "الخِطَاب النُّبُوئِىّ"، ويدوم لنا سيادته سليمًا

معافًى من كل كدر . والسبب أن النبوة عند أهل الكتاب تعنى فى كثير من الحالات النبوءة، وأن وظيفة النبى فى الأساس هى التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل . فالنبوة عندهم تختلف كثيرا عما هى عندنا ، والمؤلف الإنجليزى نصرانى من أهل الكتاب، وكذلك بطرس البستانى مترجم الرواية . وليس غريبا إذن أن يستعملا هذه الكلمة فى ذلك المعنى .

ويمكن اختصار الفرق المتعلق بهذه النقطة بين الإسلام وأهل الكتاب فى إيراد النصوص التالية من الكتاب المقدس ومن القرآن الكريم على التوالى: فمن "صموئيل الأول (١٠/ ٥): "ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من المرتفعة، وأمامهم رباب ودف وناى وعود، وهم يتنبأون"، ومن نفس السفر (١٩/ ٢٠): "فأرسل شاول رسلا لأخذ داود . ولما رَأَوْا جماعة الانبياء يتنبأون، وصموئيل واقفا رئيسا عليهم، كان روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا"، ومن "إرميا" (١٤/ ١٤): "فقال الرب لى: «بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمى. لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم. برؤيا كاذبة وعِرَافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم»"، ومن "حزقيال" (١٣/ ١٦): "أنبياء إسرائيل الذين يتنبأون لأورشليم ويَرَوْن لها رؤى سلام، ولا سلام: يقول السيد الرب" . . . إلخ. بل إن من ليسوا بأنبياء يتنبأون. جاء فى "أعمال الرسل" (١٩/ ٦): "ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس

عليهم، فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأون". وفى القرآن المجيد نقرأ قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: "قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ" (الأنعام/ ٥٠)، "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ" (الأعراف/ ١٨٨) . . . وهكذا.

ويقول المترجم على لسان كروسو حين مرض فى الجزيرة المنعزلة أيام كان يعيش فيها وحده، فأخذ يتضرع إلى الله أن يشفيه، وشرع يتذكر كيف كان يعيش قبل ذلك بعيدا عن الدين لا يفكر فى الله ولا يتأمل باطنه ولا يتوقف عند تصرفاته: "ولا أظن أنه خطر ببالى فى كل تلك المدة شىء يحملنى على النظر إلى فوق نحو الله أو إلى داخل نحو حواسى للتأمل فى طرقى" (ص٨٨. وفى الأصل "my ways"). ومثلها: " Providence had ensnared them in their own ways: إلا أن العناية الإلهية قد أوقعتهم فى شر طرقهم" (ص٢٦٥). وأود أن أقف عند كلمة "طرقى"، التى من الواضح تماما أن كلا من المؤلف والمترجم قد تأثر فيها باستعمالات الكتاب المقدس. ففيه نقرأ على سبيل المثال: "فَتَتَلَمَّسُ فِى الظُّهْرِ كَمَا يَتَلَمَّسُ الأَعْمَى فِى الظَّلاَمِ، وَلاَ تَنْجَحُ فِى طُرُقِكَ بَلْ لاَ تَكُونُ إِلاَّ مَظْلُومًا مَغْصُوبًا كُلَّ الأَيَّامِ وَلَيْسَ مُخَلِّصٌ" (تثنية/ ٢٨/ ٢٩)، "وَكَانَ دَاوُدُ مُفْلِحًا فِى جَمِيعِ طُرُقِهِ، وَالرَّبُّ مَعَهُ" (صموئيل

الأول/ ١٨/ ١٤)، "فَاسْمَعْ أَنتَ مِنَ السَّمَاء مَكَانِ سُكْنَاكَ وَاغْفِرْ، وَاعْمَلْ وَأَعْطِ كُلَّ إِنْسَانٍ حَسَبَ كُلِّ طُرُقِهِ كَمَا تَعْرِفُ قَلْبَهُ" (ملوك أول/ ٨/ ٣٩)، "فَإِذَا تَوَاضَعَ شَعْبِى الَّذِينَ دُعِى اسْمِى عَلَيْهِمْ وَصَلَّوْا وَطَلَبُوا وَجْهِى، وَرَجَعُوا عَنْ طُرُقِهِمِ الرَّدِيةِ فَإِنَّنِى أَسْمَعُ مِنَ السَّمَاءِ وَأَغْفِرُ خَطِيَّتَهُمْ وَأُبْرِئُ أَرْضَهُمْ" (أخبار الأيام الثانى/ ٧/ ١٤)، "فَإِنَّهُمْ فِى ضَلاَلِهِم تَجَاوَزُوا طُرُقَ الضَّلاَل" (حكمة/ ١٢/ ٢٤)، "الَّذِى فِى الأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ تَرَكَ جَمِيعَ الأُمَمِ يَسْلُكُونَ فِى طُرُقِهِمْ" (أعمال الرسل/ ١٤/ ١٦)، "رَجُلٌ ذُو رَأْيَيْنِ هُوَ مُتَقَلْقِلٌ فِى جَمِيعِ طُرُقِهِ" (رسالة يعقوب/ ١/ ٨) . . . إلخ، وهو كثير جدا . ولو كان المترجم مسلما لا خبرة له بلغة الكتاب المقدس لكتب مثلا: "تصرفاتى" بدلا من "طرقى" . لكن البستانى كان نصرانيا، وأحد من شاركوا فى ترجمة الكتاب المقدس، ومن ثم فهو أحد من استعملوا كلمة "طُرُق" فى هذه العبارات وأمثالها .

ومن الركاكة والغموض أيضا قول المترجم على لسان بطل الرواية عن سيده المغربى المسلم: "كنا (أى كان هو وغلام آخر لهذا السيد) نجتهد فى حظه" (ص١٧) . والمقصود ما جاء فى الأصل الإنجليزى، وهو "we made him very merry"، أى كنا ندخل على قلبه البهجة والسرور . أما أن

يجتهد إنسان فى حظ إنسان آخر فلم أكن لأفهم له معنى لولا رجوعى إلى الأصل أستفتيه، فأفتانى.

كذلك تبدو العبارة التالية غامضة حين يقول البستانى عن المغاربة إنهم كانوا يذهبون إلى بعض النواحى القريبة من بلادهم "نظير عسكر ألفين أو ثلاثة آلاف معا كل مرة" (ص٢٤) . أما الأصل فواضح إذ نقرأ فيه:

"They go like an army, two or three thousand men at a time".

أى أنهم كانوا يذهبون إلى تلك النواحى (بغية الصيد) كأنهم جيش متوجه لميدان القتال، لا أفرادا أو جماعات صغيرة. . . إلخ. وربما لو وضع نقطتين متراكبتين بعد كلمة "عسكر" لانقشع بعض الضباب الذى يغلف المعنى. ثم بعد هذا بعدة أسطر نفاجأ ببطل الرواية البريطانى ابن القرن السابع عشر يترنم ببيت من شعر المتنبى قائلا (ص٢٥):

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

رغم أن الأصل ليس فيه شىء من ذلك طبعا: لا من شعر المتنبى ولا من شعر غير المتنبى، لا من شعراء العرب ولا من شعراء الإنجليز أو الأوربيين. وقد جرى البستانى فى هذا على تقاليد عصره، الذى لم يكن مترجموه يتورعون عن الاستشهاد بشىء من الشعر العربى يناسب السياق عند ترجمتهم الآداب الأوربية. وهناك مثال آخر فى ص٤٦، ونص البيت هو:

مَـرَّتْ بنـا سَـحَرًا طـيرٌ، فقلـتُ لهـا: طُوبَـاكِ، يـا ليتنـى إيـاك، طوبـاكِ

ولا أنوى أن أتوقف إزاء نصب خبر "ليت" فى البيت. وأحيانا ما نراه ينهى الفصل بشاهد شعرى يناسب حوادث ذلك الفصل بعد أن يضع كلمة "شعر" فى منتصف السطر السابق كما هو الحال فى ص٩٠ حين أورد البيتين التاليين ينهى بهما فصلا استرجع فيه كروسو سلسلةَ المصائب والبلايا التى وقعت فوق أم رأسه والتى كان يمكنه تفاديها لو أنصت لما كان أبوه ينصحه به من عدم التهور وترك البيت جريا وراء مطامح وهمية، مما لاءمه أشد الملاءمة أن يختم الفصل بشعر يقول:

هـى الـدنيا تقـولِ بمـلء فيهـا: حَـذَارِ حَـذَارِ مـن بطـشى وفتكـى

فـلا يَغْرُرْكُمُـو منـى ابتـسامٌ فقَـوْلِـى مـضحكٌ، والفعـل مُبْكِـى

حتى عندما ظهر جمعة فى حياة كروسو وبدأ يتعلم منه الإنجليزية ويتحدثها بطريقة مكسرة تحوج كروسو إلى استعادته حتى يفهم منه ما يريد قوله نرى البستانى يختم ذلك الفصل بالبيتين التاليين اللذين يحضان على تعلم اللغات، وكأننا فى مدرسة يريد المدرس حث الطلاب فيها على الجد والمثابرة فى تعلم الألسنة الأجنبية، إذ تحت عنوان "شعر" كعادة البستانى فى كثير من الأوقات نقرأ (ص٢١٥):

بقـدر لغـات المـرء يكثـر نفعـه وتلـك لـه عنـد الـشدائد أعـوانُ

فبــادرْ إلى حفــظ اللغــات مــسارعًا   فكــلّ لــسانٍ بالحقيقــة إنــسانُ

وفى النص الإنجليزى يقول البطل راوى القصة إن عينى كسار كانتا مشغولتين بالمكان وما فيه أكثر مما كانت عيناه هو، فيما يبدو، مشغولتين بذلك:

"we came to an anchor under a little point of land which was pretty high; and the tide beginning to flow, we lay still to go farther in. Xury, whose eyes were more about them than it seems mine were".

بيد أن البستانى قد ترجم ذلك بقوله: "كانت عينا كسار معه أكثر منى" (ص٢٥)، وهو ما يفهم منه أن كسار كان مشغولا بنفسه أكثر من انشغاله برفيقه، فضلا عن حذف عبارة "فيما يبدو"، التى تدل على أن الأمر لم يكن محققا، بل كان يبدو فقط أنه كذلك.

وهناك تعبيرات لغوية وردت فى ترجمة الرواية تأثر فيها البستانى بالأصل سواء أبقاه كما هو أو تصرف فيه: فعلى سبيل المثال نراه يقول على لسان أحد البحارة إن الريح قد هبت على المركب "ملء طربوش" (ص٧). يريد أن يقول إنها كانت ريحا ضعيفة. وقد ضحكت كثيرا وأنا أقرأ هذا التعبير الذى بدا لى جديدا تماما، إذ لا أذكر أننى قرأته فى العربية من قَبْلُ البتة، وتحولت إلى النص الإنجليزى لأرى ماذا قال المؤلف فوجدته يقول: "a capful of wind"، أى ملء "كاب" من الريح. وواضح أنه تعبير أوربى قح، إذ لم يكن العرب يعرفون الكابات، فضلا عن أن يضعوها فوق رؤوسهم، بل كانوا يعرفون

القلنسوات والعمائم مثلا. فلما أراد البستانى أن يترجم هذا التعبير الطريف استبدل بالكاب "الطربوش"، وهو غطاء الرأس الذى أخذه العرب عن الأتراك، وكانوا يستعملونه آنئذ . وقد انتزعَنا هذا التعبير شيئًا ما من جو الرواية، جو قراصنة الإنجليز فى مياه المحيط الأطلنطى، إلى جو عربى إسلامى فى بلاد الشام. وقد ظللنا فى مصر نستعمل الطربوش إلى أن ألغت ثورة يوليه لبسه فى خمسينات القرن الماضى بعد أن كان الأتراك بدورهم قد استبدلوا به القبعة بمرسوم تشريعى صدر عام ١٩٣٥م، وبعد أن كان بعض المصريين قد دعا المواطنين قبل ذلك بوقت طويل إلى استخدام القبعة هم أيضا كالدكتور محمود عزمى وسلامة موسى، وكانا ذَوَىْ منزع أوربى.

بل إن بعض كبار المصريين كأحمد زكى باشا شيخ العروبة قد حاولوا فى عشرينات القرن الفائت نشر استعمال غطاء للرأس مستوحى من الكوفية والعقال، لكنه لم يلق القبول والانتشار، بل صار مدعاة للسخرية، فأقلعوا عنه. كما اشتعلت معركة فى الثلاثينات من القرن المنصرم حول الطربوش حين أخذ أحمد حسين وبعض زملائه من الشباب يجمعون قرشا لعمل مصنع طرابيش ردا على المتغربين الذين ينادون بلبس القبعة. والطريف أن يعود بعض المصريين اليوم عودة جماعية إلى الطرابيش كرة أخرى بعد كل هذا الزمن الطويل فيضعوها

على رؤوسهم فى إحدى تظاهرات هذه الأيام تشبها بثوار ١٩١٩م حسبما قرأت فى إحدى الصحف الآن عند إعادتى النظر فى صياغة هذه الفقرة.

ويعد طربوش أحمد الصباحى هو أشهر طربوش فى القرن الحادى والعشرين. والصباحى المتوفى عام ٢٠٠٩م هو مخترع الكرة الصاروخية وقارئ الكف المعروف ورئيس حزب الأمة السابق، وكان أحد المترشحين للرئاسة أيام حسنى مبارك سنة ٢٠٠٥م إلى جانب نعمان جمعة وأيمن نور حين أريد أن تكون هناك مظاهر انتخابات. ورغم هذا كان يعلن دائما أنه سوف يعطى صوته لمبارك اعتزازا به وإيمانا بأنه هو الوحيد الذى يصلح لحكم البلاد .

وعلى ذكر عبارة "ملء طربوش من الريح"، التى لم يكتب لها الذيوع هناك تعبير آخر يتصل بالريح دخل اللغة العربية وانتشر فيها انتشارا واسعا هو "زوبعة فى فنجان"، وهو ترجمة للتعبير الإنجليزى: " A storm/ tempest in a teacup"، والفرنسى: "Une tempête dans un verre d'eau"، والألمانى: "Ein Sturm im Wasserglas" . وهناك أيضا تعبير صرنا نحن العرب المحدثين نستخدمه بكثرة هو "أثار عاصفة من الضحك" . ولو كان كُتِب لذلك التعبير الطربوشى الذيوع والانتشار لكان فيه ثراء للغة العربية مثلما أَثْرَتْ بدخول العبارات التالية من اللغات الأخرى: "يلعب فى الوقت الضائع"، و"كتب له صَكًّا على بياض"، و"أعطاه الضوء الأخضر"، و"تخطى فلان

الخطوط الحمراء"، و"يعمل كذا فى الساعة الرابعة عشرة"، و"سقط بين كرسيين"، و"خلع له القبعة"، و"ألقى بالقفاز فى وجهه" . . .

ولا شك أن قول البستانى: "وكانت رعدتهم عشر مرات أكثر عندما رَأَوْنى . . ." (ص٢٤٥) بدلا من "كانت رعدتهم (أو بالأحرى: "ارتباكهم/ اضطرابهم") أضعاف ذلك عشر مرات . . ." هو ترجمة حرفية للتركيب الإنجليزى: " They started up at the noise, but were ten times more confounded when they saw me" . ومثل هذا قول بعض المترجمين مثلا: "قابلته يومين بعد وقوع الحادث الفلانى" بدلا من "بعد وقوع الحادث الفلانى بيومين"، وهى ترجمة حرفية يجرى فيها التركيب العربى على غرار التركيب الإنجليزى رغم اختلاف الذوقين اللغويين هنا مما يجعل المعنى فى لغتنا مختلفا عن المعنى فى لغة جون بُلْ، إذ يصير المعنى: "قابلته لمدة يومين بعد وقوع الحادث" .

ومما وجدته أيضا من هذا الباب عبارة "one of his kinsmen"، والمقصود أقارب الرجل المغربى المسلم الذى كان سيدَ بطل الرواية فى الجزء الأول منها . لكن بطرس البستانى جرى على الطريقة العربية القديمة حين كان العربى يشير إلى أى واحد من أقاربه بـ"ابن العم" لا بالمعنى الذى نعرفه حاليا من أنه ابن أخى الوالد، بل المقصود أنه من أبناء القبيلة، أى واحد من قرابته.

ولهذا رأيناه يقول فى ترجمة تلك الكلمة: "مع مغربى من بنى عمه" . وبهذا المعنى جاءت الكلمة فى الشواهد التالية . يقول أُحَيْحَة بن الجلاّح مفتخرا:

وَلا أَدْفَعُ ابنَ العَمِّ يَمْشى على شَفًا ... وَلَو بَلَغَتْنى مِن أَذاهُ الجَنادِعُ

ويقول أوس بن حجر:

لا أَعْتِبُ ابنَ العَمِّ إنْ كانَ ظالِمًا ... وأَغْفِرُ عَنهُ الجَهْلَ إن كانَ أَجْهَلا

ويقول حاتم الطائى:

وَلا يُلْطَمُ ابنُ العَمِّ وَسْطَ بُيُوتِنا ... وَلا تُتَصَبَّى عِرْسُهُ حِينَ يَغْفُلُ

وتقول الخنساء ترثى أخاها:

وَلا يَقُومُ إلى ابنِ العَمِّ يَشتِمُهُ ... وَلا يَدِبُّ إلى الجاراتِ تَخْوِيدا

ويقول الأُقَيْشِر الأسدى يهجو شخصا:

سَرِيعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ ... وَلَيسَ إلى داعى النَّدَى بِسَرِيعِ

ومن ضمن تعريفات "العم" حسبما نقرأ فى المعاجم أنه "كل من جمع أباك وأباه صلب أو بطن. ومن هنا كان الزوج يسمى زوجته: "ابنة العم"، والزوجة تسمى زوجها: "ابن العم" . وفى الحديث عن ابن عباس أنه لما أسر المسلمين أُسَارَى قريش فى بدر "قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ لأبى بكرٍ وعمرَ: ما تَرَوْن فى هؤلاء الأُسَارَى؟ فقال أبو بكر: يا نبىّ الله، هم

بنو العمّ والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى اللهُ أن يهدِيَهم للإسلام". وفى الحديث أيضا على لسان خديجة: "قلت: يا رسول الله يا ابن عم، هل تستطيع إذا جاءك الذى يأتيك أن تخبرنى به؟". وفى الحديث كذلك أن هندا بنت عتبة زوجة أبى سفيان لما ذهبت إلى النبى يوم فتح مكة للمبايعة على ترك الشرك والفواحش قالت له: "يا ابنَ عمّ؟ هل علمتَ فى قومك من هذه العاهاتِ أو الهَنَاتِ شيئًا؟"... وهكذا. وواضح من كل هذه النصوص أن معنى "ابن العم" هنا ليس هو المعنى المعروف الآن، أى ابن أخى الأب، بل القريب بوجه عام، وإلا فهل كانت خديجة بنت عم رسول الله، وأبوها خويلد بن عبد العُزَّى، وأبوه عبد الله بن عبد المطلب؟ ومتى كانت هند بنت عم رسول الله؟ أو كيف يكون أسارى قريش أبناء عم الرسول وأبى بكر وعمر والمؤمنين أجمعين؟ إنما هم أقاربهم: فالقبيلة واحدة، والبلد واحد. وعبثا نحاول أن نجد العرب يقولون فى مثل هذا السياق: "ابن الخال" أو "أبناء الخال" أو ينادون أحدا بـ"يا ابن الخال". وعلى الناحية الأخرى كثيرا ما نجد أحدهم يقول: "يا ابن أخى" يخاطب به رجلا من قرابته أصغر منه لكنه ليس ابن أخيه على الحقيقة.

ومن نفس الوادى أيضا تحويل البستانى الجنيهات الإسترلينية إلى قروش حين قال فى ترجمة كلام كروسو التالى: " I had, as I hinted before, a parcel of money, as well gold as silver, about thirty-six

pounds sterling" ما نصه: "وكان عندى، كما ذكرت، صرة فلوس من ذهب وفضة نحو خمسة آلاف غِرْش" (ص١٢٩) . وأين الجنيهات الإسترلينية من القروش؟ إن المتحدث هنا رجل بريطانى كان يعيش فى القرن السابع عشر، فكيف يتصور متصور أنه يمكن أن يحسب ما معه من مال بالقروش؟ قد يقال إن البستانى إنما أراد أن يقرب الأمر إلى تصور القارئ العربى. إلا أن البستانى، بهذه الطريقة، قد أفسد بعض الشىء جو الرواية، التى تدورأحداثها بعيدا عن العالم العربى بآلاف الأميال، وفى أماكن لا يخطر أى شىء يتعلق بالعالم العربى على بال أحد فيها ولا كان هناك من يعرف شيئًا عن العملات العربية، فضلا عن أن بطلها بريطانى لا عربى، بَلْهَ أنه إنما يخاطب القارئ البريطانى، ولا علاقة له بالقراء العرب بتاتا . بل لا أظنه دار فى ذهنه أن روايته سوف تترجم إلى العربية يوما .

وكان باستطاعة البستانى، لو أراد أن يقرب الأمر للقارئ العربى، أن يصطنع لذلك هامشا يذكر فيه قيمة ما كان يملكه كروسو بالقروش مع إبقائه على الجنيهات الإسترلينية فى النص كما هى فى الأصل الإنجليزى. أما على هذا النحو فقد خلط البستانى بين نفسه كمترجم وبين دانييل ديفو كمؤلف، وشتان الاثنان! وواضح أن البستانى، فى عمله هذا، قد تأثر بكونه مواطنا عثمانيا يتعامل بالقروش! وبالمناسبة فالقرش فى قاموس د . جونسن، وكان

يعيش فى القرن الثامن عشر، أى بعد كروسو بعشرات السنين، هو مجرد عملة أجنبية: "Piaster: a foreign coin, value about 5q."، هكذا بالتجهيل.

ويدخل فى هذا التصرف أيضا قول المترجم: "وبعدها بأنى، إذا بقيتُ حيا، لا أنساها بل سأرسل لها ما يسَّره المولى" (ص٢٧٦). وليس هذا بكلام كروسو، بل كلام بطرس البستانى المتأثر بطريقة بيئته فى التعبير. أما النص الدِّيفُوِىّ فلا يزيد عن القول بأنها سوف يكون لها منه إمدادة أخرى " a further supply"، بدون أى ذكر للمولى أو لتيسيره.

وأحيانا نرى البستانى يأخذ راحته فى الترجمة فيتصرف فى الأصل تصرفا بعيدا كقول بطل الرواية عن بعض الأفكار والوساوس التى كانت تنتابه: "كنت أدفعها بعيدا بنفور كأنها وساوس إبليس" (ص٧– ٨) ترجمةً للعبارة التالية: " I shook them off, and roused myself from them as it were from a distemper"، التى لا يوجد فيها أية إشارة إلى إبليس ووساوسه من قريب أو بعيد. وعلى نفس الشاكلة نراه، بعد ثلاثة أسطر، يتحدث عما كان يقاسيه من "رشقات سهام ضميره الحادة" رغم أنه لا يوجد فى الأصل الإنجليزى سهام ولا رشقات.

ومن هذا الجو أيضا قوله ساجعا مستعينا بالمخزون البلاغى العربى القديم: "فألعبنا فيهم الرصاص والبارود، وكَرَرْنا عليهم كَرَّةَ الأُسُود" (ص١٦) رغم أنه لا إلعاب ولا أسود ولا سجع ولا جناس فى الأصل الإنجليزى، بل "We plied them with small-shot, half-pikes, powder-chests, and such like" ليس إلا.

ومنه كذلك ترجمته لـ" a pound an a half of powder or rather more: رطل ونصف من البارود أو أكثر قليلا" بـ"نحو أُقَّتَيْن من البارود" (ص١٩) . وعقب ذلك ترجم الخمسة أو الستة من أرطال الخردق، وهو طلقات الرصاص، بـ"ست أُقَق" . ومن الواضح أنه يعد الـ"pound" أقة، وربما أكثر من أقة، مع أن الأقة تساوى رطلين وثلاثة أرباع الرطل، فضلا عن أن الأقة غير مستعملة فى بريطانيا طبقا لما أعرف عنها خلال السنين الست التى قضيتها فيها فى أواخر سبعينات القرن الماضى وأوائل ثمانيناته. فلماذا أقحمها هنا ؟ إن هذا من شأنه أن يغير نكهة الجو الطبيعى فى الرواية، على الأقل: لمن يعرف الصواب فى المسألة. ليس هذا فحسب، بل لم تكن الأقة معروفة لدى العرب القدامى، إذ هى غير موجودة فى معاجمهم، ولا أظنها موجودة فى كتبهم أيضا . بل إنها لا مقابل لها فى الإنجليزية إلا نجلزة الكلمة ذاتها كما هى فى العربية، فقد وجدتها فى قاموس إلياس العربى الإنجليزى: "oke" . ويعرّفها

قاموس أكسفورد على النحو التالى: " a turkish and egyptian weight, equal to about 2¾ pounds" .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد كانت الموازين فى طفولتى وصباى بالدرهم والأوقية والرطل والأقة، ثم تغيرت بعد هذا إلى الجرام والكيلوجرام، وظلت كذلك حتى الآن. وقد شعرت بالدهشة حين وجدت الرطل والأوقية فى بريطانيا، إذ تصورت أن البريطان لا يمكن أن يعرفوا سوى الكيلو، أما الدرهم والأوقية والرطل والأقة فهى منا وعلينا . وقد استعمل المترجم كلمة "الأقة" فى مواضع أخرى من الرواية كما هو الحال فى ص١٦٩، وإن كان قد ذكر "أقتين أو أكثر" مقابل "خمسة أرطال أو ستة" فى النص الإنجليزى، حاسبا الأقة هذه المرة حسابا صحيحا .

وفى الصفحة الثانية والعشرين نقرأ أن بطل الرواية والغلام كسار، فى أول ليلة قضياها قريبا من البر بعد فراره من سيده المغربى طلبًا للحرية، قد أحيياها "بالهدوء والقلق والسكينة والأرق" . وهو ما لا وجود له فى النص الأصلى، إذ كل ما نقرأ فيه هو العبارة التالية: " we dropped our little anchor and lay still all night. I say still, for we slept none"، ومعناها أنهما رقدا فى الفراش لا يتحركان. وهذا كل ما هنالك، ولا شىء آخر، فلا حديث عن سكينة ولا قلق ولا أرق. صحيح أنه قد أضاف أيضا أنهما لم يناما، لكنه لم يَعْزُ ذلك إلى الأرق ولا إلى أى سبب آخر .

وكان ينبغى أن يلتزم الأصل. وأغلب الظن أن البطل رأى ألا يتركا النوم يعقد أجفانهما فى ذلك المكان الجديد الذى لا يعرفان عنه شيئًا . لكن هذا شىء، والأرق، أى العجز عن النوم، شىء آخر، إذ الأرق لا يتم بقرار من الشخص بل رغم أنفه، فالشخص فى هذه الحالة يريد أن ينام، بيد أن النوم لا يواتيه. لقد قال المؤلف إنهما قضيا الليلة ساكنين، أى ممددين فى الفراش لا يتحركان. والسكون شىء يختلف عن السكينة. كما أن السكينة تتعارض مع القلق والأرق بطبيعة الحال.

كذلك وجدت البستانى (ص٩١) يتصرف فى العبارة تصرُّف من يؤلف من لدنه مباشرة لا تصرُّف من يترجم، فهو يقول إنه جلس ذات ليلة أمام البحر وحده فى تلك الجزيرة المقفرة، "وأخذت أتأمل فيه، وكان حينئذ هادئا رائقا، أو كما يقال: غلينة" . وتركيب الكلام على هذا النحو لا يكون إلا إذا كان الكاتب يؤلف ولا يترجم لأن دانييل ديفو لم يكن يعرف العربية ولا سمع بكلمة "غلينة" فى حياته قط ولا أظنه سمعها كذلك فى قبره أو فى العالم الآخر، علاوة على أن الأصل يقف عند قوله: "هادئا رائقا" لا يتجاوزه. بل إنى أنا نفسى لم أسمع بها إلا الآن، بل لم أكن أعرف كيف تنطق بالضبط، وإن خمنت أنها على وزن "رغيف وسمير"، فلم أبعد عن الصواب، إذ هى تأتى على هذا الوزن، وبتشديد اللام أيضا كما ذكر البستانى ذاته فى "محيط المحيط"، بل لم

أجدها فى المعاجم العربية القديمة، وإن كنت وجدت فيها مادة "غ ل ن"، بل لم أجدها فى "المعجم الوسيط" لا هى ولا مادتها أصلا. ونفس الشىء قل عن "معجم اللغة العربية العاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر رغم توسعه فى جمع مادته من اللغة المعاصرة وكذلك من الاستعمالات العامية فى كثير من الأحيان.

أما فى "أقرب الموارد" فقد وجدت المادة، لكن لم أجد الكلمة. وإنما وجدتها فى مادة "غ ل ن" من "محيط المحيط" لبطرس البستانى مترجم الرواية كما قلت، وفى "المنجد"، الذى نقل كلام البستانى بنصه تقريبا فقال: "غَلَنَ (يَغْلِنُ غَلْنًا) الشبابُ: غَلاَ. وغُلْوَان الشبابِ أو الأمرِ: نشاطه وأوله. والغَلِّينَة فى اصطلاح الملاحين: الهدوء والسكون فى البحر. وهم يبنون منها فعلا فيقولون: "غَلَّنَ البحرُ"، أى سَكَنَ". ولاحظ أنه قد ضبطها بتشديد النون كما لو كان هذا هو النطق الوحيد لها بالاختلاف عما فى"محيط المحيط"، الذى أوردها بالتشديد وبدونه حسبما أشرنا قبل قليل. كما وجدتها فى "الرائد" لجبران مسعود نقلا، فيما يبدو، عن "محيط المحيط" و"المنجد".

ومثل ذلك قوله فى ترجمة "cocoa trees"، التى اكتشفها كروسو هى وغيرها من الأشجار فى الجزيرة المهجورة ذات يوم: "ووجدت هناك كثيرا من شجر النارجيل، أى الجوز الهندى" (ص١٠٠)، وكان ينبغى أن يكتفى بهذه التسمية أو بتلك فقط لأنه ليس هناك معنى ولا مغزى فى استعمال كلمة

"النارجيل" ثم شرحها بكلمة أخرى عقب ذلك، وكأنه كان يترجم شفويا، فسأله المستمعون عن معنى كلمة "النارجيل"، فاضطر أن يلحق بها شرحها، وهو ما لم يحدث. ومثل ذلك قوله: "ثم أخذتُ أهتم فى تدبير جرن أو هاون من الحجر لسحق بعض الحبوب" (ص١٢٠)، مترجما "a mortar" بـ"جرن أو هاون"، إذ كان ينبغى أن يحسم أمره على كلمة من هاتين الكلمتين يرى أنها أوفى بالمطلوب أو أدنى إلى أن يفهمها القارئ أسهل من صاحبتها، ويهمل الأخرى. وأشد من ذلك قوله فى ترجمة " when I came to have … corn": "عندما يصير عندى طحين أو بالحرى: جريش" (ص١٢١). ذلك أن الكلمتين ليستا مترادفتين، فالطحين شيء، والجريش شيء آخر. والطريف أن كلمة "corn" لا هى طحين ولا هى جريش، بل هى الغلة، أى أن الوضع لم يصل بعد إلى الطحين ولا إلى الجريش.

ومثله أيضا قوله: "كنت قد تعبتُ جدا من التجذيف، أو كما يقال: التقذيف" (ص١٤٣)، وهو تصرف لا معنى له، إذ دانييل ديفو كاتب إنجليزى، وقد استخدم كلمتين إنجليزيتين لا تدلان على نفس المعنى كما تدل عليه كلمتا التجذيف والتقذيف. لقد استخدم كلمتى "rowing or paddling"، وكلتاهما تدل على معنى مختلف، فالأولى منهما تدل على استعمال مجذاف مربوط فى القارب، أما الأخرى فتعنى استخدام مجذاف منفصل عن القارب.

وليس الأمر هكذا فى الكلمتين العربيتين، اللتين تعنيان شيئًا واحدا . وقد وردتا فى "محيط المحيط" للبستانى ذاته بنفس المعنى، فضلا عن صيغة ثالثة هى "التجديف" بالدال لا بالذال.

ويجرى على نفس الوتيرة قول البستانى واصفا ما اعتراه حين رأى لأول مرة آثار قدم بشرية على الجزيرة: "وقفتُ جامدا كمن أصابته صاعقة أو رأى خيالا أو كما يقال: جنّيَّة" (ص١٥٤- ١٥٥) . أما النص الأصلى فهو: " I stood like one thunder-struck, or as if I had seen an apparition" . وليس فيه، كما ترى، عبارة "أو كما يقال: جنية"، فضلا عن أن الجنية ليست من معتقدات القوم. إنما هو الظهور، والظهور فقط. ويمكن أن يقال: "شبح" مثلا. ومرة أخرى لا أستطيع أن أعلل هذا بغير خضوع المترجم لبيئته وما فيها من تقاليد وتصورات ومعتقدات وتعبيرات لغوية وما إلى هذا . وهناك قوله أيضا ترجمة لكلمة "a gridiron": "وأخذتُ. . . سَفُّودا، أى مصبعا من حديد" (ص١٩٢) . يقصد ما نسميه فى مصر: "السِّيخ" . ومنه كذلك قوله: "لعمل قارب كبير، أو كما يقال: شختور، يمكننا أن نسافر فيه" (ص٢٢٠) .

وخذ عندك أيضا هذه العبارة التى قالها أسبانى لكروسو عن أبناء بلده الذين لجأوا إلى بلاد البرابرة، وأراد كروسو أن يأتى بهم إلى جزيرته ثم يحملهم فى قارب من هناك إلى العالم المسكون. لقد نصحه الأسبانى بأن يتريث فى

جلبهم إلى الجزيرة إلى أن يكون عنده طعام كاف لهم حتى لا يظنوا أنهم قد نَجَوْا من مصيبة ووقعوا فى أخرى: " or not to think themselves ... delivered, otherwise than out of one difficulty into another" . فكيف أدى البستانى هذا المعنى؟ لقد كتب الآتى: " . . . أو حملهم على الفكر بأنهم قد خلصوا من مصيبة ووقعوا فى أخرى ربما كانت فى اعتبارهم أعظم منها أو كما يقال: انتقلوا من تحت الدلف إلى تحت المزراب" (ص٢٣٨– ٢٣٩) . والحق أننى لم أكن أحسب البستانى خفيف الظل إلى هذا الحد[1] . إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى ما لاحظته على تلك الترجمة مما أرى

[1] مثلما لم أكن أحسب أن فى أسلوبه، وهو اللغوى المشهور وصاحب المعجمين ودائرة المعارف، أخطاء وركاكات كالتى قابلتنى كثيرا فى ترجمته هذه، وإن لم يكن سياق هذه الدراسة سياق رصد لمثل تلك الأخطاء تفصيلا، إذ هى أساسا فى الأدب المقارن لا فى التصويبات اللغوية، اللهم إلا ما كان منها ذا صلة بالمقارنات الأدبية. ومن هذا استعماله الفعل المضارع من "بان" (بمعنى "ظهر") على وزن "يَفْعَل": "يبان"، ولا أدرى أنى له بها . والرواية تفيض بهذه الصيغة العجيبة التى نستعملها فى عاميتنا المصرية. كما وجدته يقول: "مزقه إربا" ظانا أنها "إِرَب" بمعنى "قِطَع"، والصواب: "إِرْبًا إِرْبًا"، أى شلوا شلوا. أما "إِرَبٌ" فمعناها: "أطماع". . . إلخ. ومن هذا أيضا ترجمته لـ" I saw my deliverance, indeed, visibly put into my hands" بـ"رأيت نجاتى قد وُضِعَتْ بنوع محسوس بيدى". وكان يستطيع أن يقول مثلا: "أبصرت نجاتى إبصارا مستَقِرة فى يدى". ومنها كذلك إدخال "أل" على "غير" عند إضافتها، مثل "الغير المتناهية"، وهو تركيب يتردد كثيرا جدا فى جنبات الرواية. ومنها كلمة "حاسيّاتى"،

أنه يبعد عنها قليلا أو كثيرا . فالنص الأصلى لا يقول إنهم سيخرجون من مصيبة إلى مصيبة أشد منها، بل من مصيبة إلى مصيبة أخرى. ومن ثم لا موضع للمثل الذى ضربه البستانى والذى يقابل قولنا فى مصر: "نجا من حفرة ليقع فى دحدورة" . والمثل الذى ضربه مترجمنا هو، كما نرى، مثل لبنانى، فهو متأثر فيه بالصبغة المحلية[1] .

ويمكن أن نعد الأمثلة التالية أيضا من هذا المجال، فهو يقول (ص٩٢): "ارتكابى معاصى ضده تعالى" (ص٨٨)، مضيفا كلمة "تعالى"، التى ليس لها وجود فى الأصل، جريا على عادة المسلمين، الذين ينتمى البستانى إلى

التى كررها عشرات، وربما مئات، المرات طوال الرواية. والمقصود: "إحساسات" . ومنها قوله: "ولا يجب أن أهمل ذكر بعض ما قاسيناه. . . "، وصوابه: "ويجب ألا أهمل" . ومنها "وكنا نخشى أن تخدر أصابع أيدينا وأرجلنا مائتة"، وهو تركيب تكرر مثله كثيرا بطول الكتاب. ومثله قوله: "من جَرْى عدم الأكل" بدلا من "جراء عدم الأكل" مثلا. وبالمناسبة فهو يستخدم هذا الفعل عوضا عن "وَقَعَ"، والفعل: "أجرى" عوضا عن "عَمِلَ" مما لا أجده سائغا . كذلك يستخدم "إنَّ" كثيرا فى أول الجمل والفقرات حيث لا موجب للتأكيد بتاتا، وهو ما يبدو قلقا . ووجدته مرة يقول: "دُبَبٌ"، يقصد "الدِّبَبَة"، وهو جمع غريب، ولا وجود له ولا حتى فى معجمه هو: "محيط المحيط" . . . إلخ.

[1] ومثل ذلك قوله: "بارودة" للبندقية، و"خردق" لطلقات الرصاص، و"كُفُوف" للقفاز، واستعماله أسماء الشهور السريانية، التى يستعملها الشوام على عكسنا فى مصر حيث نستعمل التقويم الميلادى والهجرى.

حضارتهم وثقافتهم. ويقول: "وإذ كان لا يحدث شيء من دون علمه تعالى". وبالمناسبة فالنص الإنجليزى يقول: "وإذا"، لكن المترجم استبدل بها" وإذ" مبتعدا خطوتين أو ثلاثا عن الأصل. ومثل ذلك يقابلنا فى قول المؤلف بعد ذلك بصفحة، ثم بعد هذه بصفحتين، ثم بعد هذه أيضا بصفحتين أخريين إشارةً إلى عبارة فى الكتاب المقدس بـ"قوله تعالى"، وقوله (ص١٠٣): "صليتُ إليه تعالى"... وغير ذلك. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن عبارة "العناية الصمدانية" (ص٨٩) ترجمةً لـ"Providence"، ففيها نكهة إسلامية شديدة الوضوح. ذلك أن الكتاب المقدس يخلو تماما من كلمة "الصمد"، التى ذكرها القرآن فى سورة "قل هو الله أحد" فى سياق نفى الوالدية والمولودية والكُفْئِيّة عن الله سبحانه وتعالى، وهو ما يتعارض مع ما يقوله معظم النصارى عن الآب والابن والروح القدس وأم الإله وما إلى ذلك. أما بعد ذلك بصفحة فقد اكتفى بكلمة "العناية" وحدها كما هى فى النص الإنجليزى عارية من أية تحبيشات، على حين نجده (ص١٠٧) يقول: "العناية الإلهية".

وعند ترجمة قول بطل الرواية التالى حين لمح آثار قدم بشرية على أرض الجزيرة وشعر بالفزع: "I looked round me" نجده يلجأ إلى التعبير القرآنى المشهور: "ذات اليمين وذات الشمال" كما ورد فى سورة "الكهف" فى قوله تعالى عن أصحاب الكهف النائمين: "ونقلِّبهم ذات اليمين وذات الشِّمال"، وإن

كان قد استعمل "اليسار" عوضا عن "الشمال" (ص١٥٥)، بدلا من أن يلتزم بالنص الأصلى فيقول: "نظرت حوالىَّ" . أما خارج القرآن فإننا نقول عادة: "يَمْنَةً وَيَسْرَةً" . وفى ترجمة فاندايك للكتاب المقدس، التى اشترك فيها بطرس البستانى مترجم الرواية، لا يوجد هذا التعبير، بل الموجود هو "عن اليمين وعن اليسار" أو "إلى اليمين وإلى اليسار" .

وبالمثل أرى أن البستانى، حينما يقول على لسان كروسو لدن أمره الشاب جمعة بإطلاق النار على أكلة لحوم البشر كى يستنقذا الرجل الأسبانيولى الذين كانوا قد كتفوه تمهيدا لسلخه وشَيِّه وأكله: "أطلقْ على اسم الله وتوفيقه" (ص٢٢٧)، فإنه متأثر بالمسلمين، إذ التسمية عند النصارى هى، كما نعلم، "باسم الآب والابن والروح القدس"، وليس "باسم الله" . ومثل هذا أيضا ما جاء فى الترجمة منسوبا إلى كروسو من أنه، بوصفه ملك الجزيرة ومشرِّعها وتضم رعيته الأسبانيولى الكاثوليكى وجمعة البروتستانتى وأبا جمعة الوثنى آكل اللحوم، قد نادى بحرية الضمير وأصدر فرمانًا[1] ساميًا (على سبيل الدعابة) أعلن فيه أنه "لا إكراه فى الدين" (ص٢٣٤) . ولست أظن أحدا يجهل أن هذا

[1] جاء فى النسخة العربية من موسوعة "ويكيبيديا" أن "الفرمان: لفظ فارسي معناه "أمرٌ أو حكمٌ أو دستورٌ مُوَقَّعٌ من السلطان" . وفى قاموس أكسفورد أن أصل الكلمة هو "برامانا" السنسكريتية.

المبدأ بنص ألفاظه هو عبارة مقتبسة من القرآن المجيد تمثل جزءا من الآية ٢٥٦ من سورة "البقرة"، ولا وجود لها فى الكتاب المقدس مثلما أن المبدأ نفسه لا وجود له هناك. بل إن الكتاب المقدس ليخلو تماما من كلمات "أَكْرَهَ، يُكْرِهُ، إكراه، مُكْرِه، مُكْرَه".

ومما له مغزاه فى هذا السياق أننا، فى مادة "Freedom of Religion" بـ"ويكيبيديا" الإنجليزية، لا نجد قسما عن "حرية الاعتقاد" فى النصرانية مع وجود قسم فى ذات الوقت عن ذلك الموضوع فى الإسلام. ومن النصوص القرآنية التى تؤكد هذا المبدأ قوله تعالى موجها الحديث إلى نبيه عليه السلام: "ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَنْ فى الأرض كُلّهم جميعا. أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟" (يونس/ ٩٩)، "قل: لستُ عليكم بوكيل"، (الأنعام/ ٦٦)، "فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِه، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ" (الأنعام/ ١٠٤)، "وما أنت عليهم بجبار" (ق/ ٤٥)، "فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِه، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" (الزمر/ ٤١، والشورى/ ٦)... إلخ.

وقد يجد البستانى نفسه مضطرا إلى عدم الاكتفاء بالترجمة، مضيفا إليها شرحا للكلمة المترجَمة لشعوره أنها غَضَّةٌ جديدةٌ لا يعرفها الكثيرون من القراء ككلمة "journal" بمعنى الدفتر الذى يسجل فيه الإنسان يومياته أولا بأول، إذ

لم يكتف بأن يقول: "جرنال"، بل قال: "ابتدأت حينئذ أدوّن يوما فيوما أخبارا عن أعمالى وأشغالى بالتفصيل فى دفترٍ سميته: جرنالا، أى يومية" (ص٦٨) .

وأحيانا ما يكتفى البستانى بالتعبير عن المعنى العام بألفاظه هو كما فى ترجمة العبارة التالية:

"... I thought would hold my dry corn, and perhaps the meal, when the corn was bruised".

إذ قال فيها: " . . . قاصدا استخدامهما نظير مخزن لوضع ما كنت أنتظره من الغلة أو الطحين" (ص١١٩)، على حين أن ما قاله المؤلف هو أنه قد فكر فى أن الوعاء الطينى الذى صنعه كيفما اتفق سوف يحفظ الغلة، وربما الدقيق، حين يتم فَرْك الغلة. وواضح أن المترجم لم يلتصق بكلام الكاتب، بل أخذ الفكرة الإجمالية وصاغها فى تلك العبارة.

وهو لا يكتفى بهذا فى بعض الأحيان، بل يضيف كلاما من لَدُنْه لا يمكن أن يخطر ببال المؤلف كما فى قوله: "وقد اصطنعت من الأرز كثيرا من الكعك والبوذينو، الذى هو شيخ محالى السفرة عندنا كالخبيصة عند عرب البادية" (ص١٢١- ١٢٢) ترجمةً للعبارة الإنجليزية التالية:

"I made myself several cakes of the rice, and puddings; indeed, I made no pies".

وليس فى النص الأصلى إلا أنه صنع من الأرز عددا من الكعك والبودنج. ولم يكن ديفو ولا كروسو يعرفان شيئًا عن عرب البادية، فضلا عن

أن يعرفا الخبيصة، التى لا أنا ولا أحد من المصريين يعرف عنها شيئا، فضلا عن أن يكون قد ذاقها حتى يقارن بينها وبين شيخ المحالى. ثم إن كروسو لم يكن فى وضع يساعده على أن يقول أو يذكر شيئا كهذا . لقد كان يعيش على الحد الأدنى من كل شىء من هذا القبيل، وكان كل همه أن يبقى على قيد الحياة، علاوة على أنه كان وحيدا لا أنيس له ولا جليس. صحيح أن الترجمة تقول إنه قد أصبح خبازا طباخا لا نظير له، بيد أن هذا خطأ من المترجم لأن النص الإنجليزى لا يقول شيئا من ذلك، بل يقول إنه قد صار مجرد خباز فوق البيعة: "and (I) became, in a little time, a mere pastry-cook into the bargain". وطبعا هذه سخرية من كروسو بنفسه وإمكاناته فى دنيا الخبز والمخبوزات. وتكاد تكون عبارة "فوق البيعة" ترجمة حرفية لـ"in the bargain".

وهناك شىءٌ جِدُّ طريفٍ فى الترجمة، وهو أن البستانى، فى أول حوار يسجله كروسو مما دار بينه وبين جمعة من كلام حين تقدم جمعة شيئا ما فى الإنجليزية، قد ترجم ذلك الحوار بالعامية اللبنانية المحطمة، على حين تم الحوار فى الأصل بالعامية الإنجليزية، وإن لم تكن مشوهة بنفس قدر تشويه العامية العربية، التى يبدو أن البستانى قد بالغ فى تشويه كلام جمعة فيها أكثر مما يستدعى الأمر. وهذا مثال على ما أقول: ففى العربية نقرأ ما يلى: "كل وكت

نهارب الأحسن– جماءتنا يكلبوا أكثر وإن كان– هُمّى كتار أكتر من جماءتى فى مطره اللى أنِى كان فيه هُمّى ياكزوا واهد تنين تلاتى وأَنى. جماءتى كلبوهم هونيك مطره أنِى ما كان. هونيك جماءتى أكزوا رزّال ألف كتير. . ."

(ص٢١٢– ٢١٣)، بينما فى الإنجليزية نسمعه يقول:

"we always fight the better-- My nation beat much for all that -- They more many than my nation in the place where me was; they take one, two, three, and me. My nation overbeat them in the yonder place, where me no was; there my nation take one, two, great thousand".

ومن ذلك أيضا: "نهن نكلص الناسات البيض من تهت"، أى خلصنا الناس البيض من تحت الماء، بمعنى "خلصناهم من الغرق" (ص٢١٦) . ومنه قوله فى نفس الصفحة توضيحا لسبب امتناع قومه من أكل البيض الذين رماهم المحيط على شواطئهم: "إنهن يأملوا إكوة ماهن"، أى عملوا معهم أخوة، بمعنى "عقدوا معهم عهدا" وإنهم "ما بياكلوا ناسات إلا لما يهارب الكتال"، أى إن قومه لا يأكلون البشر إلا إذا كانت هناك حرب يأسرونهم فيها . ويزداد ضحكى لأنى أعرف أنه لا جمعة ولا عُشْرُميت جمعة كانوا يعرفون العربية، ولا يمكن أن تخطر لهم كلمات مثل "ناسات" و"كتال" و"إكوة" . منك لله يا بستانى ! أضحكتنى وأنا ضائق الصدر حزين، أضحك الله سنك وأرانا لك

صورة ضاحكة بدلا من صورتك تلك العابسة التى لا يطالعنى سواها أينما يممتُ وجهى على المشباك!

وقد كان تعقيب كروسو على الأمر كالآتى: "كان المسكين فى أول الأمر لا يحسن النطق ببعض الحروف، بل كان فى الغالب يبدل الغين والخاء والقاف كافا، والعين همزة، والحاء هاء، ويغلط كثيرا فى تركيب الجمل، ولا يميز إلا نادرا بين صيغ الأفعال باعتبار الزمان ولا بين الأجناس كما رأيت" (ص٢١٦–٢١٧). وهى الأخطاء الأساسية التى يقع فيها كل مبتدئ فى تعلم أية لغة. والواقع أن تعلم اللغات هو من أصعب الأمور وأكثرها إرهاقا وتعقيدا. يعرف ذلك كل من كتب عليه أن يكابد تعلم لغة أجنبية. وكنت كلما قرأت مثل هذا الكلام يغلبنى الضحك لا على جمعة ذاته بل بسبب بطرس البستانى وخفة ظله، إذ لا أستطيع أن أتخيل سوى بطرسٍ بستانيٍّ واحدٍ هو ذلك الشيخ العابس الذى لا أعرف له صورة بغير هذا السمت، فأستحلى فكاهة هذا الشيخ العابس قائلا فى نفسى: أو كل هذا يخرج منك يا عم الشيخ بطرس؟

وأخيرا أود أن أشير إلى ما لاحظته فى ص١٨ من ترجمة الرواية، إذ ذكر البستانى أن سيّدَ بطلِ الرواية، وهو مغربى مسلم، قد أعد قاربا للصيد على هيئة مخصوصة بحيث يضم غرفة له تشتمل على سرير ومائدة للطعام والشراب، وسماه: "الكوثر". وقد ظل البستانى يستعمل هذه التسمية كلما وردت سيرة

القارب. وبالرجوع إلى الأصل الإنجليزى لم أجد أى ذكر لاسم "الكوثر" هذا الذى يعزو البستانى اختيار المغربى له بأنه تيمُّنٌ وتبرُّكٌ منه بالجنة. وقد استغربت هذا جدا وأخذت أتساءل: من أين أتى البستانى بهذا الكلام؟ إن النسخة الإنجليزية التى أمامى ليس فيها شىء من هذا، بل كان ديفو يستخدم دائما كلمة "boat" . فقلت لنفسى: ابحث عن نسخة أخرى لعلك تجد فيها هذا الكلام. وفعلا حصلت لا على نسخة واحدة بل على اثنتين من المشباك (الإنترنت)، وفتشتهما فلم أجد شيئًا من ذلك. بل لقد ذهبت أبعد من هذا، إذ بحثت فى جوجل من خلال كلمات "الكوثر، قارب، روبنسون كروسو" بالعربية والإنجليزية، فلم يرتدّ لى عن جوجل شىء .

وزادنى استغرابا أن النص الإنجليزى يستخدم للشراب كلمة "liquor"، أى الخمر. فهل يمكن أن يفكر صياد مسلم فى تسمية قارب له يخزن فيه الخمور بـ"الكوثر" بالغا ما بلغ إهماله للواجبات الدينية؟ أفترى البستانى قد نحل دانييل ديفو هذا الكلام؟ ولكن لمه؟ هذا هو السؤال. أوَيمكن مثلا أن يكون هذا لمزا خفيا فى عقيدة الجنة عندنا نحن المسلمين، التى يتظاهر المنافقون من أتباع الأديان الأخرى بالنفور منها والتحقير من شأنها قائلين إن المتع التى تحويها هى متع حسية لا تليق ببنى الإنسان، وكأنهم هم يأكلون ويشربون وينكحون الأثير، ولا يفكرون فى طعام ولا شراب ولا نساء بوصفهم ملائكة أبرارا لا

ينمون ولا يتناسلون؟ وهى نقطة لا أستطيع المضى فى بحثها أبعد من ذلك. لقد ذكر البستانى فى مقدمة ترجمته للكتاب أنه قد هذبه. لكن التهذيب معناه أن نحذف الأشياء المسيئة من الكتاب لا أن نستجلب ما هو مسىء ونضيفه إليه. أليس كذلك؟

وهكذا نرى أن البستانى، فى ترجمته لـ"روبنسون كروسو" قد تأثر بدينه أحيانا، وبالتقاليد العربية أحيانا، وراعى ظروف عيشه فى دولة مسلمة أحيانا، وكان حرفيا فى النقل من الإنجليزية فأفسد أسلوبه أحيانا، وجرى على طبعه الضاحك أحيانا، واجتهد فوُفِّق أحيانا، ولم يُوَفَّق فأزعجنا أحيانا . . . وهكذا. وكانت ثمرة ذلك أن صار لدينا "روبنسون كروسو" بطعم مختلف شيئا ما فى بعض الأحيان عن طعمها فى أصلها الإنجليزى، وهو ما قربها إلى ذوقنا فى بعض المواضع، وأفسد جو الأحداث والحوارات فى بعض المواضع الأخرى، بالإضافة إلى ما أخذناه على أسلوب الترجمة من ركاكة أو خطإ فى بعض الأحيان.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة ـ غربية فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى – دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد – قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى – مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين — دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن – دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام – أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د .محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية – أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب – دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث – مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكى له – الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

دفاع عن النحو والفصحى – الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق- فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبى

الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب – فصول مترجمة ومؤلفة

"تاريخ الأدب العربي" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

الأسلوب هو الرجل – شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب فى لغة العرب

الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)

فى الأدب المقارن – مباحث واجتهادات

مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)

فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام

بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

دراسات فى النثر العربى الحديث

"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب – قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)

مسير التفسير ـ الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربى – نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد – الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية – نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة

النساء فى الإسلام – نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازنة)

الإسلام الديمقراطى المدنى – الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

كتاب لويس عوض: "مقدمة فى فقه اللغة العربية" تحت الجهر

"روبنسون كروسو"– دراسة فى الأدب المقارن

علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست